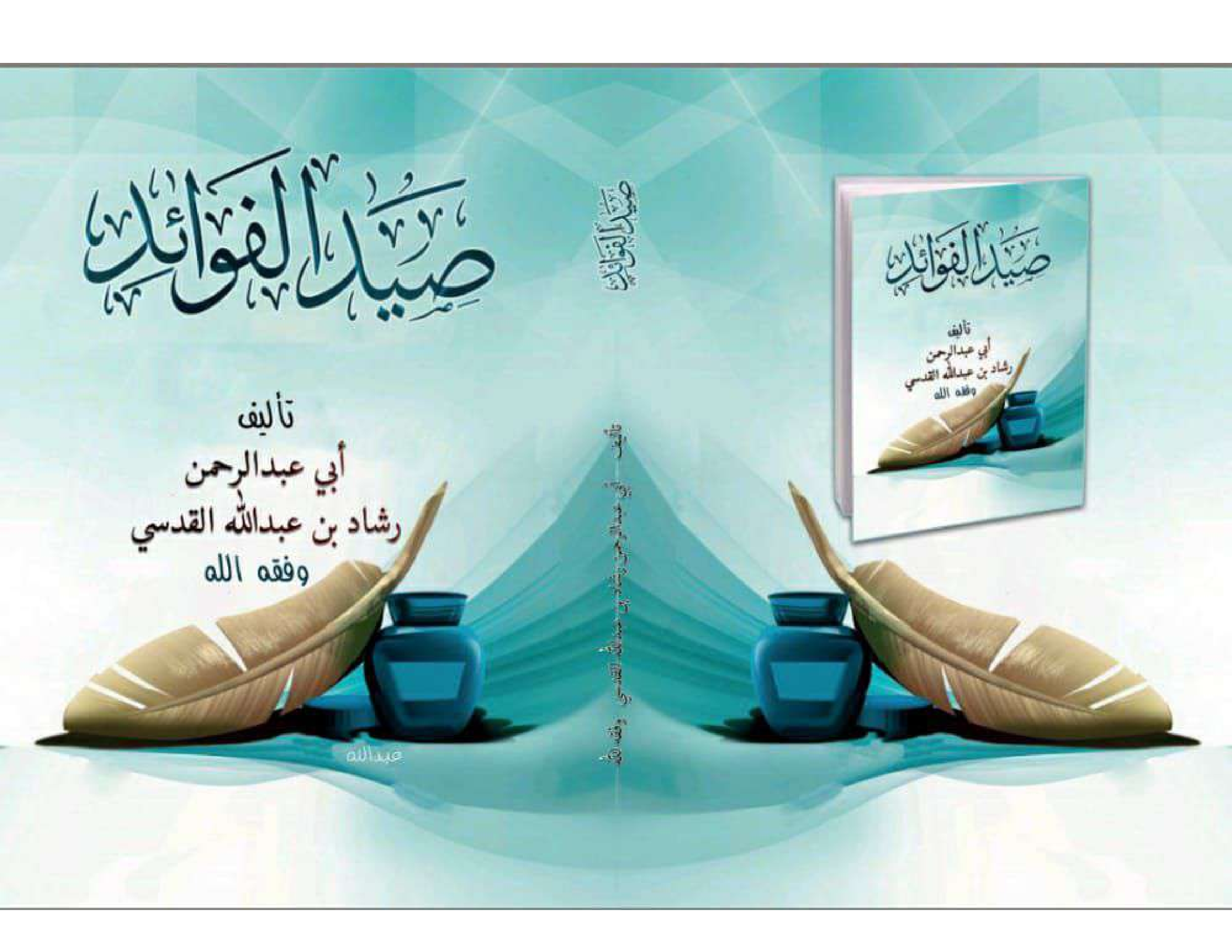

صيد الفوائد
تأليف
أبي عبدالرحمن
رشاد بن عبدالله القدسي
وفقه الله



صيد الفوائد

تأليف

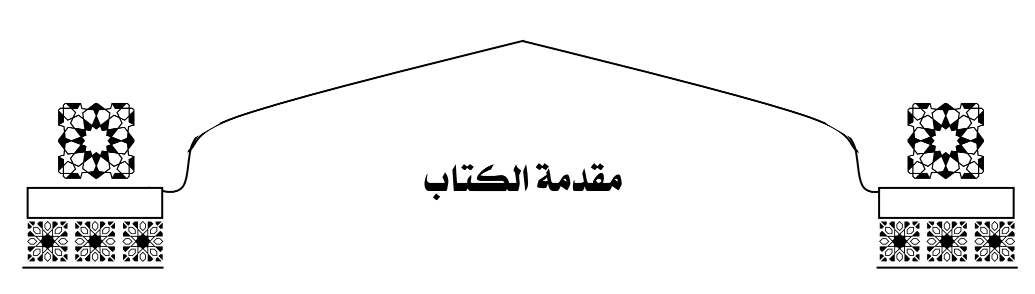
أبي عبد الرحمن

رشاد بن عبد الله القدسي

وفقه الله

الطبعة الثانية

مزيدة ومعدلة



مقدمة الكتاب

الحَمد لله وَحده، والصَّلاة والسَّلام عَلَى مَن لا نبيَّ بعده، نَبيِّنا مُحَمَّدٍ وعَلَى آلِهِ وصَحبه أجمَعين، أمَّا بَعد:

فهذه مجموعة درر ثمينة وغرر كريمة كانت منشورة في مواقع التواصل التابعة لنا، نشرتها مفردة خلال أعوام مضت، ثم بدا لي جمعها في هذا الكتاب الذي وسمته: "صيد الفوائد"؛ ليسهل الوصول إليها والانتفاع بها، نسأل الله العظيم أن ينفع به ويجعله لوجهه خالصا، والله الموفق لما يحب ويرضى.

كتبه: رشاد القدسي

تم الانتهاء منه عصر الأحد ٢٦ ربيع الآخر ١٤٤٤ هـ

واحة القرآن الكريم

تفقهوا في القرآن يا معلمي القرآن

روى ميمون، عن الضحاك قال: حقٌّ على كل من يُعَلِّم الْقُرْآنَ، أَنْ يَكُونَ فَقِيهًا، وتلا قوله تعالى: ﴿كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩] [١].

نصيحة أغلى من الذهب للآباء الراغبين في تعليم أولادهم القرآن الكريم

قال أبو إسحاق الجبنياني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا تعلموا أولادكم إلا عند رجل حسن الدين، فدين الصبي على دين معلمه، فلقد عرفت معلمًا كان يخفي القول بخلق القرآن، ففطن له، فلما علم أنه يُطرد، وقف بين يدي مكتبه وقال لصبيانه: «ما تقولون في القرآن؟» قالوا لا علم لنا. فقال: «هو مخلوق، ولا تُزالون عن هذا القول لو قُتلتم». فماتوا كلهم على هذا الاعتقاد. اهـ[٢]

قلت: فتخيروا لأولادكم -أيها الآباء الكرام- من حسنت عقيدته وسَلِمَ منهجه وخلقه، واحذروا أهل الأهواء والبدع فإن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم لأنفسكم ولفلذات أكبادكم.

---

(١) "تاريخ الإسلام" (٦٤/٣)، "تهذيب الكمال" (٢٩٦/١٣)

(٢) "ترتيب المدارك" للقاضي عياض (٢٤٥/٦)

فضل سورة الفلق.

عن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: تعلقت بقدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقلت: يارسول الله، أقرئني سورة هود وسورة يوسف، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يا عقبة بن عامر، إنك لم تقرأ سورة أحب إلى الله، ولا أبلغ عنده من ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾» قال يزيد: «لم يكن أبو عمران يدعها، وكان لا يزال يقرؤها في صلاة المغرب».

وفي رواية: قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أهديت له بغلة شهباء، فركبها، فأخذ عقبة يقودها له، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعقبة: «اقرأ» فقال: وما أقرأ يا رسول الله؟ قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «اقرأ: قل أعوذ برب الفلق»، فأعادها عليه حتى قرأها، فعرف أني لم أفرح بها جدا، فقال: «لعلك تهاونت بها فما قمت تصلي بشيء مثلها».

وفي رواية: «فإن استطعت أن لا تفوتك في صلاة فافعل».(١)

وهذا الحديث بوب عليه النسائي فقال: ذكر فضل ما يتعوذ به المتعوذون .اهـ

وبوب عليه ابن حبان فقال: ذكر البيان بأن قراءة ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾ من أحب ما يقرأ العبد في صلاته إلى الله جل وعلا.

قال أبو الحسن المباركفوري في "مرعاة المفاتيح"(٢٤٠/٧): لن تقرأ شيئًا أبلغ

---

(١)أخرجه الإمام أحمد (١٧٣٤٢)و(١٧٤١٨)، والنسائي في "الكبرى"(٧٧٩١)، والدارمي (٣٤٨٢)، وابن حبان في "صحيحه"(١٨٤٢)، وهو في "الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين" (٩٣٣)، و صححه بطرقه الحافظ ابن كثير في "تفسيره" (٥٣٣/٨)، والألباني كما في "التعليقات الحسان"(٣٢٥/٣).

عند الله: أي أتم وأعظم في باب التعوذ لدفع السوء وغيره.اهـ

فائدة في الحكمة من ختم آيات الوصايا العشر بما ختمت به.

قال الحافظ ابن رجب: قال ابن الجوزي في "المقتبس": سمعت الوزير يقول: الآيات اللواتي في الأنعام ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام:١٥١]، محكمات، وقد اتفقت عليها الشرائع، إنما قال في الآية الأولى: ﴿لَعَلَّكُمْ تعقلون﴾، وفي الثانية: ﴿لعلكم تذكرون﴾ وفي الثالثة:﴿لعلكم تتقون﴾، لأن كل آية يليق بها ذلك، فإنه قال في الأولى: ﴿أن لا تشركوا به شيئًا﴾ والعقل يشهد أن الخالق لا شريك له، ويدعو العقل إلى بر الوالدين، ونهى عن قتل الولد، وإتيان الفواحش لأن الإنسان يغار من الفاحشة على ابنته وأخته، فكذلك هو ينبغي أن يجتنبها، وكذلك قتل النفس، فلما لاقت هذه الأمور بالعقل، قَالَ: ﴿لعلكم تعقلون﴾، ولما قال في الآية الثانية: ﴿ولا تقربوا مال اليتيم﴾، والمعنى: اذكر لو هلكت فصار ولدك يتيما، واذكر عند ورثتك، لو كنت الموروث له، واذكر كيف تحب العدل لك في القول؛ فاعدل في حق غيرك، وكما لا تؤثر أن يخان عهدك فلا تخن، فلاق بهذه الأشياء التذكر، فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، وقال في الثالثة: ﴿وَأَنَّ هَذَا صراطي مستقيمًا فاتبعوه﴾، فلاق بذلك اتقاء الزلل، فلذلك قال: ﴿لعلكم تتقون﴾.اهـ[1]

---

(١) "ذيل طبقات الحنابلة" (١٤١/٢)

أقسام آيات القرآن الكريم

قال يحي بن سلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وحدثني النضر بن معبد، عن أبي قلابة، عن أبي الدرداء قال: نزل القرآن على ست آيات: آية مبشرة، وآية منذرة، وآية فريضة، وآية قصص وأخبار، وآية تأمرك، وآية تنهاك. (١)

وأخرج عبد الرزاق الصنعاني في "تفسيره"(١/٢٥٣) قال: نا معمر، عن أيوب، عن أبي قلابة، عن أبي إدريس الخولاني قال: القرآن ست آيات: آية تأمرك، وآية تنهاك، وآية تبشرك، وآية تنذرك، وآية فريضة، وآية قصص وأخبار - أو قال: أمثال. وأخرجه أبو نعيم في "حلية الأولياء"(٥/١٢٣)

من البلاغة في القرآن الكريم.

في قوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾، لماذا لم يقل: علينا؟

قال الوزير ابن هبيرة: إنما لم يقل: ما كتب علينا لأنه أمر يتعلق بالمؤمن، ولا يصيب المؤمن شيء إلا وهو له، إن كان خيرًا فهو له في العاجل، وإن كان شرًّا فهو ثواب له في الآجل. (٢)

---

(١) "تفسير يحي بن سلام" (١/٤٤٨)

(٢) "ذيل طبقات الحنابلة" (٢/١٤٢)

المصحف أم الجوال

عَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: «أَدِيمُوا النَّظَرَ فِي الْمُصْحَفِ»[١].

وقال يونس بن عبيد رَحِمَهُٱللَّهُ: «كَانَ مِنْ خُلُقِ الْأَوَّلِينَ النَّظَرُ فِي الْمُصْحَفِ»[٢].

قلت: في هذه الآثار الحث على إدامة القراءة من المصحف لما في النّظر من الإعانة على زيادة التدبّر للقرآن؛ لاجتماع سببين هما: النّظر إلى المتلوّ مع النّطق به، وكذلك تتحقّق به السّلامة من آفات النّسيان الّذي يعتري الحفظ عادة.

والقراءة في المصحف أفضل من القراءة في الجوال، بل لا مفاضلة بين المصحف المكتوب على الورق المتوارث من الصدر الأول، منذ أن كتب إلى يومنا هذا، وبين مصحف هذه الجوالات والآلات المحدثة التي فيها الخير والشر!!

فالمصحف الورقي استعماله لا يكون إلا في الخير هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن المسلم جُبل على تعظيم المصحف، بينما هذه الآلات المحدثة ليس لها من الهيبة والتقدير والاحترام ما للمصحف.

سئل الشيخ عبدالرحمن البراك رَحِمَهُٱللَّهُ عن ذلك؟ فقال: القراءة في المصحف أفضل؛ لأنّ القرآن كلّه مكتوب فيه بحروف ظاهرة، وفي الاعتماد على قراءة

---

(١)أخرجه عبد الرّزّاق(٥٩٧٩)، وابن أبي شيبة (٨٥٥٨، ٣٠١٦٨)، وغيرهما، وصححه الحافظ ابن حجر في "الفتح" (٧٨/٩)، والسيوطي في "الإتقان"(٣٧٥/١).

(٢) "مصنف ابن أبي شيبة" (٢٤٩/٧) (٣٥٧٦١)

الجوال دائمًا هجرٌ للمصحف، والقراءة مِن المصحف أقرب إلى تعظيم تلاوة القرآن؛ لأنّه أبعد عن التعلق بهذه الآلة، وهي الجوال، ومعلوم أنّه يسجل فيه القرآن وغيره مِن صور وفضول كلام، فيختلط فيه -حينئذ- الحقّ والباطل، وهذا يجعل القارئ مِن الجوال ينتقل مِن التلاوة إلى النظر فيما يتذكره مِن المقاطع المكتوبة أو المصورة أو الصوتية، أو ينتقل إلى البحث عن بعض المستجدات، أو الأخبار الطارئة والرسائل الوافدة؛ فلذلك كلّه كانت القراءة مِن المصحف أقرب إلى الخشوع والإقبال على التلاوة، وعدم الانقطاع عنها، فلا تعدل عن المصحف يا عبد الله. نفعنا الله بكتابه وفتح علينا بفهمه واتباعه، والله أعلم.[1]

وسئل الشيخ صالح الفوزان -حفظه الله-: أنا حريص على قراءة القرآن وعادة أكون في المسجد مبكرا ومعي جوال من الجوالات الحديثة التي فيها برنامج كامل للقرآن الكريم -القرآن كاملا- بعض المرات: لا أكون على طهارة فأقرأ ما يتيسر وأقرأ بعض الأجزاء، هل تجب الطهارة عند القراءة من الجوالات؟

فأجاب: هذا من الترف الذي ظهر على الناس، المصاحف والحمد لله متوفرة في المساجد وبطباعة فاخرة، فلا حاجة للقراءة من الجوال، ولكن إذا حصل هذا فلا نرى أنه يأخذ حكم المصحف. المصحف لا يمسه إلا طاهر، كما في

---

(١)أملاه: عبدالرّحمن بن ناصر البرّاك، حرر في: ١٩- ١- ١٤٣٨هـ، نقلا من موقعه على الشبكة.

الحديث: «لا يمس القرآن إلا طاهر» وأما الجوال فلا يسمى مصحفا. اه[١]

مسألة: أيها أفضل القراءة من المصحف أم حفظا عن ظهر قلب.

القراءة من المصحف أكمل وأفضل، إلا لحاجة الاستذكار والحفاظ على المحفوظ، أو كان أجلب للخشوع والتدبر، وأقوال العلماء في ذلك كثيرة ومنها:

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قراءة القرآن من المصحف أفضل من القراءة عن ظهر القلب لأن النظر في المصحف عبادة مطلوبة فتجتمع القراءة والنظر، هكذا قاله القاضي حسين من أصحابنا وأبو حامد الغزالي وجماعات من السلف، ونقل الغزالي في "الإحياء" أن كثيرين من الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ كانوا يقرؤون من المصحف، ويكرهون أن يخرج يوم ولم ينظروا في المصحف. وروى ابن أبي داود القراءة في المصحف عن كثيرين من السلف ولم أر فيه خلافا، ولو قيل: إنه يختلف باختلاف الأشخاص فيختار القراءة في المصحف لمن استوى خشوعه وتدبره في حالتي القراءة في المصحف وعن ظهر القلب، ويختار القراءة عن ظهر القلب لمن لم يكمل بذلك خشوعه ويزيد على خشوعه وتدبره لو قرأ من المصحف لكان هذا قولا حسنا، والظاهر أن كلام السلف وفعلهم محمول على هذا التفصيل.اه[٢]

---

(١)نقلا عن موقعه من الشبكة.

(٢) "التبيان في آداب حملة القرآن" (ص ١٠٠)

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الذي صرح به كثيرون من العلماء أن قراءة القرآن من المصحف أفضل؛ لأنه يشتمل على التلاوة والنظر في المصحف وهو عبادة، كما صرح به غير واحد من السلف، وكرهوا أن يمضي على الرجل يوم لا ينظر في مصحفه... وقال بعض العلماء: المدار في هذه المسألة على الخشوع في القراءة، فإن كان الخشوع عند القراءة على ظهر القلب فهو أفضل، وإن كان عند النظر في المصحف فهو أفضل فإن استويا فالقراءة نظرًا أولى؛ لأنها أثبت وتمتاز بالنظر في المصحف.اهـ[1]

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقد صرح كثير من العلماء بأن القراءة من المصحف نظرًا أفضل من القراءة عن ظهر قلب...ومن حيث المعنى أن القراءة في المصحف أسلم من الغلط لكن القراءة عن ظهر قلب أبعد من الرياء وأمكن للخشوع والذي يظهر أن ذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص.اهـ[2]

وقال المباركفوري: قال النووي في "الأذكار": قال أصحابنا: قراءة القرآن في المصحف أفضل من القراءة من حفظه وهو المشهور عن السلف رضي الله عنهم، وهذا ليس على إطلاقه بل إن كان القاري من حفظه يحصل له من التدبر والتفكر وجمع القلب والبصر أكبر مما يحصل من المصحف، فالقراءة من الحفظ أفضل وإن استويا فمن المصحف أفضل أي لأنه ضم إلى عبادة

---

(١)باختصار من "تفسير ابن كثير" (١/٦٨-٧٠).

(٢) "فتح الباري" (٩/٧٨-٧٩)

القراءة عبادة النظر في المصحف فلاشتمال هذه على عبادتين كان أفضل، قال وهذا مراد السلف. وقيل: إن زاد خشوعه وتدبره وإخلاصه في أحدهما فهو الأفضل وإلا فالنظر، ويدل كلام الطيبي على أن التمكن من التفكر والتدبر واستنباط المعاني في صورة القراءة من المصحف أكثر.اهـ[١]

وقال الحافظ حافظ حكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهو- أي: القرآن في المصحف- من أفضل العبادات وأجلها وذهب كثير من السلف أن قراءة القرآن في المصحف أفضل من على ظهر قلب؛ لأنه يشتمل على التلاوة والنظر في المصحف وكرهوا أن يمضي على الرجل يومان لا ينظر في مصحفهِ.اهـ[٢]

❁❁❁

(١) "مرعاة المفاتيح"(٧/٢٤٣)

(٢) "معارج القبول"(١/٢٨٨-٢٨٩)

واحة الوصايا والتوجيهات

حديث من جوامع الكلم

وفيه وصية عظيمة في تربية الأبناء.

عن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أوصاني رسول الله ﷺ بعشر كلمات قال: «لا تشرك بالله شيئًا وإن قتلت وحرقت، ولا تعقن والديك، وإن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك، ولا تتركن صلاة مكتوبة متعمدا؛ فإن من ترك صلاة مكتوبة متعمدا فقد برئت منه ذمة الله، ولا تشربن خمرا؛ فإنه رأس كل فاحشة، وإياك والمعصية؛ فإنَّ بالمعصية حل سخط الله عز وجل، وإياك والفرار من الزحف وإن هلك الناس، وإذا أصاب الناس موتان وأنت فيهم فاثبت، وأنفق على عيالك من طولك، ولا ترفع عنهم عصاك أدبًا وأخفهم في الله».[1]

قال الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ: قوله:«ولا ترفع عنهم عصاك»، فيه أنه ينبغي لمن كان له عيال أن يخوفهم ويحذرهم الوقوع فيما لا يليق، ولا يكثر تأنيسهم ومداعبتهم، فيفضي ذلك إلى الاستخفاف به ويكون سببا لتركهم للآداب المستحسنة وتخلقهم بالأخلاق السيئة. اهـ[2]

وقال المناوي رَحِمَهُ اللَّهُ: لأن يؤدب الرجل ولده عندما يبلغ من السن والعقل مبلغا يحتمل ذلك بأن ينشئه على أخلاق صلحاء المؤمنين ويصونه عن مخالطة

(١)رواه أحمد (٢٢٠٧٥)، وصححه الألباني لشواهده في "إرواء الغليل" (٢٠٢٦)

(٢) "نيل الأوطار" (٦/٢٥١)

المفسدين، ويعلمه القرآن والأدب ولسان العرب، ويسمعه السنن وأقاويل السلف، ويعلمه من أحكام الدين ما لا غنى عنه، ويهدده ثم يضربه على نحو الصلاة وغير ذلك؛ خير له من أن يتصدق بصاع؛ لأنه إذا أدبه صارت أفعاله من صدقاته الجارية، وصدقة الصاع ينقطع ثوابها، وهذا يدوم بدوام الولد، والأدب غذاء النفوس وتربيتها للآخرة، ﴿ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا ﴾ [التحريم: ٦]، فوقايتك نفسك وولدك منها أن تعظها وتزجرها بورودها النار، وتقيم أودهم بأنواع التأديب، فمن الأدب: الموعظة والوعيد والتهديد والضرب والحبس والعطية والنوال والبر، فتأديب النفس الزكية الكريمة غير تأديب النفس الكريهة اللئيمة.اهـ[1]

وصية عظيمة من وصايا السلف

عنِ ابْنِ مُحَيْرِيزٍ، قَالَ: صَحِبْتُ فَضَالة بْن عُبَيد صَاحِبَ رَسُولِ الله ﷺ فقلت: أَوْصِنِي رحمك اللهُ، قال: احْفَظْ عَنِّي ثَلَاثَ خِلَالٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهِنَّ: إِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَعْرِفَ وَلَا تُعْرَفَ فَافْعَلْ. وَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَسْمَعَ وَلَا تَكَلَّمَ فَافْعَلْ. وَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَجْلِسَ وَلَا يُجْلَسَ إِلَيْكَ فَافْعَلْ.[2]

---

(١) "فيض القدير"(٥/٢٥٧)

(٢)أخرجه الطبراني في"المعجم الكبير"(٧٦٨) ومن طريقه أبو نعيم في "حلية الأولياء"(٥/١٤١)، وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (١٠/٢٩٧): رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ، وَرِجَالُهُ ثِقَاتٌ.

أثران عظيمان في التحذير من تتبع آثار الأولياء والصالحين المكانية.

أخرج ابن وضاح في "البدع"(ص٤١) من حديث الأعمش عن المعرور بن سويد قال: خرجنا حجاجًا مع عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فعرض لنا في بعض الطريق مسجد فابتدره الناس يصلون فيه، فقال عمر: ما شأنهم؟ فقالوا: هذا مسجد صلى فيه رسول الله ﷺ، فقال عمر: أيها الناس إنما هلك من كان قبلكم باتباعهم مثل هذا حتى أحدثوها بِيَعًا، فمن عرضت له فيه صلاة فليصل، ومن لم تعرض له فيه صلاة فليمض.

وفي رواية أخرى أخرجها ابن وضاح (ص٤١): أنه عندما صلى الغداة رأى الناس يذهبون مذهبا، فقال: أين يذهب هؤلاء؟ قيل: يا أمير المؤمنين مسجد صلى فيه رسول الله ﷺ هم يأتون يصلون فيه. فقال: إنما هلك من كان قبلكم بمثل هذا، يتبعون آثار أنبيائهم فيتخذونها كنائس وبيعا، من أدركته الصلاة في هذه المساجد فليصل، ومن لا فليمض ولا يتعمدها.اهـ(١)

فتأمل أخي الكريم كيف أنكر أمير المؤمنين عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذا الفعل وهو التبرك بالأماكن التي صلى فيها رسول الله ﷺ وبين أن بهذا الفعل هلكت الأمم السابقة. فكيف بمن دون النبي ﷺ؟!

وقد أمر عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقطع الشجرة التي زُعم أن الرسول ﷺ بايع تحتها

---

(١)وأخرجه عبدالرزاق (٢٧٣٤)، وابن أبي شيبة (٣٧٦/٢) من طريق الأعمش به.. وهو صحيح، كما في "الفتح"(٥٦٩/١).

الناس.[١]

مع أن الله سبحانه و تعالى أنسى صحابة رسول الله ﷺ مكان هذه الشجرة التي بايعوا عندها رسول الله ﷺ رحمة بهم وبمن أتى من بعدهم، فقد أخرج البخاري في "صحيحه"(٢٩٥٨) من حديث نافع عن ابن عمر قال: رجعنا من العام المقبل فما اجتمع منا اثنان على الشجرة التي بايعنا تحتها كانت رحمة من الله.

وفي الصحيحين[٢] من حديث سعيد بن المسيب قال: قال: حدثني أبي أنه كان فيمن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة. قال: فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها فلم نقدر عليها . فقال سعيد: إن أصحاب محمد ﷺ لم يعلموها وعلمتموها أنتم فأنتم أعلم.

قال الحافظ ابن حجر -تعليقًا على هذا الحديث-: وبيان الحكمة في ذلك: هو ألا يحصل بها افتتان لما وقع تحتها من الخير فلو بقيت لما أُمن تعظيم بعض الجهال لها حتى ربما أفضى بهم إلى اعتقاد أن لها قوة نفع أو ضر كما نراه الآن مشاهدا فيما هو دونها وإلى ذلك أشار ابن عمر بقوله: «كانت رحمة من الله» أي كان خفاؤها عليهم بعد ذلك رحمة الله تعالى. اهـ[٣]

---

(١)أخرجه ابن سعد في "الطبقات" (١٠٠/٢)، وابن وضاح في "البدع" (ص٤٢)، وابن أبي شيبة في "المصنف" (٣٧٥٥/٢).

(٢)البخاري (٤١٦٣) ومسلم (١٨٥٩).

(٣) "الفتح"(١١٨/٦)

وقد سار السلف الصالح على هذا النهج، فقد كانوا لا يأتون إلى مثل هذه الأماكن، بل وينكرون على من فعلها.

قال ابن وضاح في كتابه "البدع" (ص٤٣): وكان مالك بن أنس وغيره من علماء المدينة يكرهون إتيان تلك المساجد وتلك الآثار للنبي ﷺ ما عدا قُبَا وأُحُدًا.اهـ

وصية نفيسة: لا تضيع نفسك يا طالب العلم.

قال البخاري في "صحيحه"(٢٧/١): باب رفع العلم وظهور الجهل وقال ربيعة: «لا ينبغي لأحد عنده شيء من العلم أن يضيِّع نفسه».

قال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومعنى قول ربيعة: أن من كان له قبول للعلم وفهم له، فقد لزمه من فرض طلب العلم ما لا يلزم غيره، فينبغي له أن يجتهد فيه، ولا يضيع طلبه فيضيع نفسه.اهـ[1]

وقال ابن الملقن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مناسبة قول ربيعة للتبويب في رفع العلم: أن من كان فيه فهم وقبول للعلم فلا يضيع نفسه بإهماله بل يقبل عليه ويهتم به، فإنه إِذَا لم يفعل ذَلِكَ أدى إلى رفع العلم؛ لأن البليد لا يقبل العلم فهو عنه مرتفع، فلو لم تصرف الهمة إليه أدى إلى رفعه مطلقًا.

ويحتمل أن المراد به: أن العالم ينبغي له تعظيم العلم بأن لا يأتي أهل الدنيا؛ إجلالًا له، فإنه إِذَا أكثر منهم أداه ذَلِكَ إلى قلة الاشتغال والاهتمام به.

(١) "شرح صحيح البخاري"(١٦٥/١)

ويحتمل معنىً ثالثًا: أن من هذا حاله لا يضيع نفسه بأن يجعله للأغراض الدنيوية، بل يقصد به الإخلاص؛ لتحصل له الثمرات الأخروية فيكون جامعًا للعلم والعمل به.اهـ[١]

وقال العيني رَحِمَهُ اللَّهُ: وَيُقَال: معنى كَلَام ربيعَة: الْحَث على نشر الْعلم، لِأَن الْعَالم فِي قومه إِذا لم ينشر علمه، وَمَات قبل ذَلِك، أدّى ذَلِك إِلَى رفع الْعلم وَظُهُور الْجَهْل، وَهَذَا الْمَعْنى أَيْضا يُنَاسب التَّبْوِيب. وَيُقَال: مَعْنَاهُ: أَنه لَا يَنْبَغِي للْعَالم أَن يَأْتِي بِعِلْمِهِ أهل الدُّنْيَا. وَلَا يتواضع لَهُم إجلالا للْعلم. فعلى هَذَا فَالْمَعْنى فِي مُنَاسبَة التَّبْوِيب مَا يُؤَدِّي إِلَيْهِ من قلَّة الإشتغال بِالْعلمِ والاهتمام بِهِ لما يرى من ابتذال أَهله وَقلة الاحترام لَهُم.اهـ[٢]

وقال السفيري رَحِمَهُ اللَّهُ: معناه: لا ينبغي لمن عنده شيء من العلم ولو كان قليلا أن يضيع نفسه، بأن لا يفيد الناس ولا يسعى في تعليم الخير.

وفيه دليل على أنه يندب للإنسان إذا كان في البلد مثله في العلم أن يقضي بين الناس إذ علم أنه يزول خموله وينتشر علمه بذلك.اهـ[٣]

وقال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ: ومراد ربيعة أن من كان فيه فهم وقابلية للعلم لا ينبغي له أن يهمل نفسه فيترك الاشتغال لئلا يؤدي ذلك إلى رفع العلم، أو مراده الحث على نشر العلم في أهله لئلا يموت العالم قبل ذلك فيؤدي إلى رفع العلم،

---

(١) "التوضيح لشرح الجامع الصحيح" (٤١٥/٣)

(٢) "عمدة القاري"(٨١/٢)

(٣) "شرح البخاري" (١٥٠/٢)

أو مراده أن يشهر العالم نفسه ويتصدى للأخذ عنه لئلا يضيع علمه، وقيل: مراده تعظيم العلم وتوقيره فلا يهين نفسه بأن يجعله عرضا للدنيا وهذا معنى حسن لكن اللائق بتبويب المصنف ما تقدم.اهـ[١]

و قال ابن عثيمين في "شرحه على البخاري": هذا الكلام جيد، قوله: لا ينبغي لأحد عنده شيء من العلم أن يضيِّع نفسه، بماذا؟ بإهمال العلم الذي أعطاه الله إياه وبعدم العمل به. فتضيِيع العلم يكون بإهماله وعدم تعاهده وعدم المبالاة به، ويكون أيضا بترك العمل به، فإن كان لا يهمله بل يتعاهده ويحفظه لكنه لا يعمل به، فهذا يعتبر مضيعا لنفسه، يعني: لم يستفد منه.

فعلى طالب العلم أن يتعاهد ما مَنَّ الله به عليه من العلم وذلك بالمراجعة والمذاكرة والعمل أيضا، ولهذا قال بعضهم: طيب العلم بالعمل، وقال بعضهم: طيبه بالكتابة. وكلاهما صحيح.اهـ[٢]

حث دائم ووصية عالم

من نفائس وصايا العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: ولهذا فأنا أحث دائما أن يحرر الإنسان قلبه ويراقب قلبه، فأعمال الجوارح بمنزلة الماء تسقى به الشجرة لكن الأصل هو القلب، وكثير من الناس يحرص ألا يخطئ في العمل الظاهر، وقلبه مليء بالحقد على المسلمين وعلمائهم، وعلى أهل الخير، وهذا

---

(١) "فتح الباري" (١٧٨/١)

(٢) "صحيح البخاري". ط. دار المستقبل(١/٩٥-٩٦)

يختم له بسوء الخاتمة والعياذ بالله، لأن القلب إذا كان فيه سريرة خبيثة فإنها تهوي بصاحبه في مكان سحيق.

فالحسد، وهو كراهية نعمة الله على الآخرين وإن لم يتمن زوالها، وقد اشتهر بين العلماء تعريف الحسد بأنه: تمني زوال نعمة الله على الغير، ولكن المعنى الدقيق للحسد: هو كراهية نعمة الله على غيره سواء تمنى زوالها أو لم يتمن.

وهذا الحسد موجود في كثير من الناس وهو من خصال اليهود كما هو من خصال إبليس لعنه الله، فقال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ [البقرة: ١٠٩] فإذا وجدت في قلبك حسدا على المسلمين جماعات أو أفرادا فاعلم أن في قلبك خصلة من خصال اليهود والعياذ بالله، فطهر قلبك من هذا الحسد، واعلم أن هذا الخير الذي فيه غيرك إنما هو فضل من الله فلا تعترض على فضل الله ولا تكره تقدير الله: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [النساء: ٥٤] .اهـ(١)

وصية إمامٍ جامعة

قال الشيخ العلامة الإمام ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومما يجمع الخير كله للمسلم العناية بكتاب الله، وسنة رسوله ﷺ قولا وعملا، والأخذ بما أوصى به الله عباده وأمرهم به في كتابه الكريم وسنة رسوله الأمين ﷺ، ومن ذلك أنه أوصى

---

(١) "مجموع فتاوى ورسائل العثيمين" (٥/٢٣٨)

عباده بالتقوى وأمرهم بها في آيات كثيرة، ولا شك أن التقوى هي أعظم الوصايا؛ فهي وصية الله عز وجل، ووصية رسوله عليه الصلاة والسلام، وهي جامعة للخير كله. ومن جملة التقوى العناية بكتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وقد أوصى الله بذلك، فقال جل وعلا: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥٥].اهـ[١]

اتقوها بالتقوى

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين؛ أما بعد:

فكلما قرُب الزمان من الساعة، كثُرت الفتن، وتعاظمت، حتى إن الفتنة الأولى وإن كانت شديدة، إلا أن التي بعدها تكون أعظمَ منها، فتخفُّ الأولى، فهي فِتَنٌ يُرقِّق بعضُها بعضًا؛ كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ.

وأصل كل فتنة إنما هو من تقديم الرأي على الشرع، والهوى على العقل.[٢]

والفتن إذا وقعت لا يسلَم منها إلا من عصمه الله؛ قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الفتنة إذا وقعت لم يسلم من التلوُّث بها إلا من عصمه الله.اهـ[٣]

وسُنَّة الله في خلقه أنه يبتلي عباده ليتميز المؤمن الصادق من المنافق؛ ﴿ أَمْ

---

(١) "مجموع الفتاوى"(١٥٣/٨)

(٢) "إغاثة اللهفان" (١٦٧/٢)

(٣) "منهاج السنة" (٣٤٣/٤)

حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةًۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [التوبة: ١٦]، ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وعند الفتن يُعرف أهل الشر ويفتضحون.

قال الإمام الآجُرِّيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الفتنة يُفتَضَحُ عندها خَلْقٌ كثير. اهـ[١]

وقال ابن بطة العَكْبَرِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فإن هذه الفتن والأهواء قد فضحت خلقًا كثيرًا، وكشفت أستارهم عن أحوال قبيحة، فإن أصْوَنَ الناس لنفسه أحفظُهم للسانه، وأشغلهم بدينه، وأتركهم لِما لا يعنيه.اهـ[٢]

وقال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فالفتنة قسمت الناس إلى صادقٍ وكاذبٍ، ومؤمن ومنافق، وطيبٍ وخبيثٍ، فمن صبر عليها كانت رحمة في حقه، ونجا بصبره من فتنة أعظمَ منها، ومن لم يصبر وقع في فتنةٍ أشدَّ منها.اهـ[٣]

وما دخل أحد في الفتن إلا ندم

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من استقرأ أحوال الفتن التي تجري بين المسلمين، تبيَّن له أنه ما دخل فيها أحدٌ فحمِدَ عاقبة دخوله؛ لِما يحصل له من

---

(١) "الشريعة" (٣٩٣/١).

(٢) "الإبانة"(٥٩٦/٢).

(٣) "إغاثة اللهفان"(١٦٢/٢).

الضرر في دينه ودنياه.اهـ[١]

ومن لم يدخل في الفتن طابت نفسه واستراح قلبه، قال قتادة بن دعامة: «قد رأينا والله أقوامًا يسرِعون إلى الفتن، ويَنزِعون فيها، وأمسك أقوام عن ذلك؛ هيبةً لله، ومخافة منه، فلما انكشفت إذا الذين أمسكوا أطيبُ نفسًا، وأثلج صدورًا، وأخَفُّ ظهورًا من الذين أسرعوا إليها، وينزعون فيها، وصارت أعمال أولئك حزازاتٍ على قلوبهم كلما ذكروها، وايْم الله، لو أن الناس يعرفون من الفتنة إذا أقبلت كما يعرفون منها إذا أدبرت، لعَقَلَ فيها جيل من الناس كثير».اهـ[٢]

والفتنة تُتَّقَى بالإيمان والصدق والتقوى

قال بكر المُزني: لما كانت فتنة ابن الأشعث، قال طلق بن حبيب: اتقوها بالتقوى[٣].

وقال الإمام العكبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الفتن على وجوه كثيرة، وضروب شتى، قد مضى منها في صدر هذه الأمة فتن عظيمة، نجا منها خلق كثير، عصمهم الله فيها بالتقوى.اهـ [٤]

فاتقوا الفتنة بالتقوى وفروا عنها فإن السعيد من جُنِّب الفتن؛ قال رسول الله

---

(١) "منهاج السنة" (٤/٤١٠)

(٢) "حلية الأولياء" (٢/٣٣٦).

(٣) "الزهد" لابن المبارك (١/٤٧٣)

(٤) "الإبانة" (٢/٥٩٦)

ﷺ: «إن السعيد لمن جُنب الفتن، إن السعيد لمن جُنب الفتن، إن السعيد لمن جُنب الفتن، ولمن ابتُلِيَ فصبر فَوَاهًا». أخرجه أبو داود(٤٢٦٣)، عن المقداد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وصححه العلامة الألباني، كما في "الصحيحة" (٩٧٥)

نسأل الله العظيم أن يجنِّبنا الفتن، ما ظهر منها وما بطن.

تحذير المؤمنين والمؤمنات من تتبع العثرات وتصيد الزلات

﴿ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ﴾ [النور: ١٥]

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، أما بعد: انتشر في هذا الزمان نوع من الصيد يكاد يحترفه كثيرٌ من الناس إلا ما رحم الله، ويجتهد في صيده وهو «صيد عيوب الخلائق بما سترها عليهم رب الخلائق»، وقد تجد أن الأمر لم يقتصر فحسب على المختلفين أو المتخاصمين بل وأصبح في بيوتنا وعملنا ووصل الأمر إلى مساجدنا في التفتيش والتقصي عن عيوب أهله ومشايخه وحملة الدعوة فيه، وقصر النظر عن حقيقة خلقتهم التي خلقهم رب العالمين عليها وهي حالة الضعف البشري الذي هو حظ البشر جميعا إلا من عصم الله، وصار الساقط على العثرات كأنه يريد منهم أن يكونوا ملائكة يمشون على الأرض أو لهم من النبوة والرسالة مقاما، فليتق الله من هذا حاله وليتذكر أن سقوطه على العثرات وبحثه عن الزلات ثم حرصه على إشاعة الفاحشات؛ لهو -والله- من أكبر الموبقات قال رب الأرض والسماوات: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا

وَٱلْأَخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ [النور: ١٩]

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهذا تأديب ثالث لمن سمع شيئا من الكلام السيئ، فقام بذهنه منه شيء، وتكلم به، فلا يكثر منه ويشيعه ويذيعه.اهـ[١]

وَقَالَ الشَّيْخُ العلامة السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فإذا كان هذا الوعيد، لمجرد محبة أن تشيع الفاحشة، واستحلاء ذلك بالقلب، فكيف بما هو أعظم من ذلك، من إظهاره ونقله؟ وسواء كانت الفاحشة، صادرة أو غير صادرة.اهـ[٢]

وَقَالَ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والمراد: إشاعة الفاحشة على المؤمن المستتر فيما وقع منه، أو اتهم به وهو بريء منه، كما في قصة الإفك. قال بعض الوزراء الصالحين لبعض من يأمر بالمعروف: اجتهد أن تستر العصاة، فإن ظهور معاصيهم عيب في أهل الإسلام، وأولى الأمور ستر العيوب.اهـ[٣]

أيها المتتبع للعثرات الساقط على العيوب

أُذَكِّرُك بقوله ﷺ: «وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِك تكن مؤمنا». رواه ابن ماجه (٤٢١٧) عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ

أتحب أن يسقط الناس على عيوبك فتنشر؟! هَلْ تحبُّ لِنَفْسِك أَنْ تَظْهَرَ عَثَرَاتُك، وَأَنْ تَنْتَشِرَ بَينَ الْأَنَامِ زَلّاتُك؟! والله لئن فعلت ذلك فإن الجزاء من جنس العمل.

---

(١) "تفسير ابن كثير" (٦/٢٩)

(٢) "تيسير الكريم الرحمن" (ص: ٥٦٤)

(٣) "تفسير ابن رجب الحنبلي" (٢/٣٤)

عن أبي برزة الأسلمي قال: نادى رسول الله ﷺ حتى أسمع العواتق، فقال:«يا معشر من آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم؛ فإنه من يتبع عورة أخيه يتبع الله عورته حتى يفضحه في بيته».

أخرجه أحمد (١٩٨٠١) وهو صحيح لغيره

عن عبد الله بن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال: «من ستر عورة أخيه المسلم، ستر الله عورته يوم القيامة، ومن كشف عورة أخيه المسلم، كشف الله عورته، حتى يفضحه بها في بيته». أخرجه ابن ماجه (٢٥٤٦) وهو حسن لغيره.

قَالَ الْفُضَيلُ بْنِ عِيَاضٍ: الْمُؤْمِنُ يَسْتُرُ وَيَنْصَحُ، وَالْفَاجِرُ يَهْتِكُ وَيُعَيِّرُ.اهـ(١)

لَا تَلْتَمِسْ مِنْ مَسَاوِي النَّاسِ مَا سَتَرُوا   فَيَكْشِفُ اللهُ سِتْرًا مِنْ مَسَاوِيكَا

وَاذْكُرْ مَحَاسِنَ مَا فِيهِمْ إِذَا ذُكِرُوا   وَلَا تُعِبْ أَحَدًا مِنْهُمْ بِمَا فِيكَا

يا من يسقط على العيوب:

اعلم أنه لا يتم إيمان المرء ما لم يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وأقل درجات الأخوة أن يعامل أخاه بما يحب أن يُعامله به، قال سيد المرسلين ﷺ: «لا يؤمنُ أَحدُكم حتَّى يحبَّ لأَخيهِ ما يحبُّ لنفسهِ»(٢).

فللمسلم على المسلم أن يستر عورته، ويغفر زلته، ويرحم عبرته ويُقيل عثرته، ويقبل معذرته، ويرد غيبته، ويُديم نصيحته، ويحفظ خلته، ويرعى ذمته،

---

(١) "جامع العلوم والحكم"(١/٢٢٥)

(٢)متفق عليه [خ(١٣) م (٤٥)] عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.



ويُكافئ صِلَته، ويشكر نعمته، ويُحسن نصرته ويُواليه ولا يُعاديه، ولا يُسلمه، ولا يخذله، ويحب له ما يحب لنفسه.

مهلا أيها الساقط على العيوب:

فاللهُ سُبْحَانَه وتعالى يقول: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾

قَالَ ابْن الجَوْزِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال المفسرون: التجسس: البحث عن عيب المسلمين وعوراتهم فالمعنى: لا يبحث أحدكم عن عيب أخيه ليطَّلع عليه إذ ستره الله. وقيل لابن مسعود: هذا الوليد بن عقبة تقطر لحيته خمرا، فقال: إنا نُهينا عن التجسس، فإن يَظهرْ لنا شيء نأخذْه به.اهـ[١]

وقَالَ الْأَلُوسِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿وَلا تَجَسَّسُوا﴾: ولا تبحثوا عن عورات المسلمين ومعايبهم وتستكشفوا عما ستروه، تفعل من الجَسِّ باعتبار ما فيه من معنى الطلب كاللمس، فإنَّ من يطلب الشيء يجسه ويلمسه فأريد به ما يلزمه، واستعمال التفعل للمبالغة، وقرأ الحسن وأبو رجاء وابن سيرين، «ولا تحسسوا» بالحاء من الحَس الذي هو أثر الجس وغايته.اهـ[٢]

قال ابن الجوزي: لا ينبغي له أن يسترق السمع على دار غيره ليسمع صوت الأوتار، ولا يتعرض للشم ليدرك رائحة الخمر، ولا يمس ما قد ستر بثوب ليعرف شكل المزمار، ولا أن يَستخبِر جيرانه ليُخبَر بما جرى، بل لو أخبره عدلان ابتداء أن فلانا يشرب الخمر فله إذ ذاك أن يدخل، وينكر. انتهى

---

(١) "زاد المسير في علم التفسير" (١٥٢/٤)

(٢) "روح المعاني" (٣٠٨/١٣)

كلامه.[١]

وقد روي عن الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: أدركت بالمدينة قوما لم تكن لهم عيوب فبحثوا عن عيوب الناس فذكر الناس لهم عيوبًا، وأدركت بها قوما كانت لهم عيوب سكتوا عن عيوب الناس فسكت الناس عن عيوبهم.اهـ[٢]

وشاهد هذا قوله ﷺ: «فإنه من تتبّع عوراتهم تتبّع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته».

قال ابن المبارك: المؤمن يطلب المعاذير والمنافق يطلب العثرات.

وأنشد الإمام ابن الجوزي في المعنى:

ومن لم يغض عينه عن صديقه وعن بعض ما فيه يمت وهو عائب

ومن يتتبع جـــاهدا كل عثرة يجدها ولا يسلم له الدهر صاحب.

وختاما: يقول الله تعالى في آية عظيمة تهتز لها القلوب: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

عِبَادَ اللهِ: ماذا يستفاد من تتبع عثرات المسلمين ثم نشرها بين النَّاس، وقد أمر الرسول ﷺ بِالسّترِ عَلى أهل الإِسْلَامِ؛ فَقَالَ ﷺ: «مَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ يوم القيامة». متفق عليه [خ(٢٤٤٢)م (٢٥٨٠)] عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا

وكان هذا شأن السلف وخلقهم الكريم يسترون ولا يتجسسون.

عن زبيد بن الصلت، قال: سمعت أبا بكر الصديق، يقول: «لو أخذت شاربا

---

(١) "الآداب الشرعية والمنح المرعية" (٢٨٣/١)

(٢) "المنتقى شرح الموطأ" (٣٠٠/٧).

لأحببت أن يستره الله، ولو أخذت سارقا لأحببت أن يستره الله».[١]

وعن العلاء بن بدر قال: لا يعذب الله قوما يسترون الذنوب.[٢]

اللَّهُمَّ استر عورَاتنا وعيوبنا وزلّاتنا في الدنيا والآخرة.

والحمد لله ربّ العالمين.

النصح الأمين لمن غفل عن عيوبه وانشغل بعيوب الآخرين

الحمد لله مُقيل العثرات، وغافر الخطيئات، ومُجيب الدعوات، وأشهد أن لا إله إلا الله أمر بالعفو عن الزلات والستر على المؤمنين والمؤمنات، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله أعظم من عفا وصفح عن الهفوات صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وأتباعه النبلاء في مكارم الأخلاق وجميل المعاملات أما بعد:

عِبَادَ اللهِ: لا دين أعظم من دين الإسلام ولا أشمل ولا أكمل، ومن عظم هذا الدين أنه ما ترك شيئا فيه خير في الدنيا أوالآخرة إلا وبين لنا أحكامه، وذكرها لنا، فهو دين الاعتقاد والعبادة والمعاملة، وهو جماع الأخلاق العظيمة.

ولما كانت سنة الله الكونية أنه ما من جوادٌ إلا له كبوة، ولا قدمٌ إلا وله عثرة، ولا كلمةٌ إلا ولها زلة، والمرء لا بُد له من الخطأ، فقد قال الرسول المرتضى ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّه بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّه فَيَغْفِرُ لَهُم». رواه مسلم(٢٧٤٩) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٢٨٠٨٢)

(٢) "المنتقى من كتاب مكارم الأخلاق"(ص: ١٠٢)رقم (٢٢٦)

فالكمال عزيز وليس هناك أحدٌ إلا وقد صدرت منه زلة ووقع في هفوة.

مَنْ ذا الذي ما ساء قَطّ ومنْ لهُ الحُسْنى فقطْ

ولهذا جاء الإسلام بخلق عظيم وأدب كريم يدل على سمو صاحبه وكمال خلقه ألا وهو إقالة العثرات والستر للزلات، وحين تَجَمَّل بهذا الخلق الكرماء، أوقع الشيطان في نقيضه من أوقع؛ فتتبع العيوب ونقب في الخبايا والجيوب بحثا عن زلة يطير بها فرحا -ولو كانت ميتة عفا عليها الزمن، سترها الرب العفو الكريم وتاب العبد منها إلى ربه الغفور الرحيم- فتشبع بنتنها هذا البحَّاث وأشعل فتيلها وتبخر بقشبها، وإن هذه لهي إحدى مداخل إبليس يوهم تلك الضحية أن ذلك من النهي عن المنكر؛ فيولع به حتى تكون له هواية فما أن يرى عيبا في شخص ما حتى يذيعه ويشهر به بين الناس، يترصد كلماته ويتلقف سقطاته كأن كل همه هو البحث عن عيوب الناس، ولهذا أمليت هذه الكليمات نصحا للمسلمين، فأقول مستعينا بالله رب العالمين:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُبْصِرُ أَحَدُكُمُ الْقَذَاةَ فِي عَيْنِ أَخِيهِ، وَيَنْسَى الْجِذْعَ فِي عَيْنِهِ»[1].

وهذا الكلام مثل يضرب لمن يرى الصغير من عيوب الناس ويعيرهم به، وفيه من العيوب ما نسبته إليه كنسبة الجذع إلى القذاة، كأنه لا يدري أن هذا العمل من أقبح القبائح، لأن الإنسان الناقص، الإنسان المريض هو الذي

(١)أخرجه الإمام ابن حبان (٥٧٦١)، وصححه الإمام الألباني في "التعليقات الحسان" (٢٥٠/٨)، و "الصحيحة" (٣٣).

يكرس وقته لنبش عيوب الآخرين فيحييها بعد موتها، ويظهرها بعد اندثارها، ويذكر بها بعد نسيانها، وهذا من أعظم مداخل الشيطان عليه ومكره به.

شر الورى مَن بعيب الناس مشتغلا   مثلُ الذباب يُراعي موضعَ العِلَلِ

عن جعفر بن أبي عثمان الطيالسي؛ قال: قال بعض الحكماء: عاب رجل رجلا عند بعض أهل العلم، فقال له: قد استدللت على كثرة عيوبك بما تكثر من عيوب الناس؛ لأن الطالب للعيوب إنما يطلبها بقدر ما فيه منها.اهـ[١]

قال ذو النون بن إبراهيم: ثلاثة من أعلام الخير في المتعلم: تعظيم العلماء بحسن التواضع لهم، والعمى عن عيوب الناس بالنظر في عيب نفسه، وبذل المال في طلب العلم إيثارا له على متاع الدنيا.[٢]

فالإنسان السوي هو الذي يهتم ببناء نفسه بناء سليما يشغله عن تتبع عورات الناس والإنسان الناقص هو الذي يعيش على تدقيق النظر في عيب أخيه، فيدركه مع خفائه، فيعمى به عن عيبٍ في نفسه ظاهر، لا خفاء به، ولو أنه اشتغل بعيب نفسه عن التفرغ لتتبع عيوب الناس لكف عن أعراض الناس، وسدَّ الباب إلى الغيبة.

ولو أبصر المرء عيوب نفسه لانشغل بها عن عيوب الناس؛ لأن المرء مطالب بإصلاح نفسه أولا وسيسأل عنها قبل غيرها، وقد قال الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ

---

(١) "المجالسة وجواهر العلم" (٥٦/٣)

(٢) "المدخل إلى السنن الكبرى" للبيهقي (ص: ٣٩٠)

بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[المدثر:٣٨]. وقال: ﴿مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء:١٥]. وقال سبحانه: ﴿وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[الأنعام: ١٦٤].

قبيح من الإنسان أن ينسى عيوبه ويذكر عيبا في أخيه قد اختفى

ولو كان ذا عقل لـما عاب غيره وفيه عيوب لو رآها قد اكتفى

وقد يكون انشغال العبد بعيوب الناس والتحدث بها بمثابة ورقة التوت التي يحاول أن يغطي بها عيوبه وسوءاته.

والشخص الذي يرى صورة نفسه صغيرة جدا تجده دائما يضخم عيوب الآخرين، ولذا تبرز شخصية الإنسان من خلال نصيبه من هذه القضية، فإذا عُرف بأنه مشغول بتضخيم عيوب الآخرين والطعن في الناس، فهذه مرآة تعكس أنه يشعر بضآلة نفسه وبحقارتها وأن حجم نفسه صغير؛ لأنه يعتقد أنه لن ينفتح إلا على أنقاض الآخرين، فدائمًا يحاول أن يحطم الآخرين، ولذا يكثر نقد الناس وذكر عيوبهم، وهذه مرآة تعكس أن إحساسه وثقته بنفسه ضعيفة، وأنه في داخل نفسه يحس أنه صغير وحقير، فلذلك يشتغل بعيوب الآخرين.

منهج السلف الصالح في هذا الباب:

وإذا رجعت إلى السلف الصالح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لوجدت منهم في هذا الباب عجبا؛ إذ كانوا مشغولين بعيوب أنفسهم عن عيوب غيرهم، بل ينظرون إلى أنفسهم

نظرة كلها تواضع مع رفعتهم وعلو شأنهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، بل كانوا يخافون إن تكلموا في الناس بما فيهم أن يبتلوا بما ابتلي به الناس من هذه العيوب وبالإضافة إلى هذا كانوا يوقنون ويعملون بحديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي يقول فيه: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه».رواه الترمذي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهاك بعض ما دون من دررهم:

قال الأعمش: سمعت إبراهيم يقول: إني لأرى الشيء أكرهه، فما يمنعني أن أتكلّم فيه إلا مخافة أن أُبتلى بمثله[١].

وقال بكر بن عبد الله: إذا رأيتم الرجل موكّلا بعيوب الناس، ناسيا لعيوبه فاعلموا أنه قد مُكِرَ به. [٢]

وعن عون بن عبد الله قال: لا أحسب الرجل ينظر في عيوب الناس إلا من غفلة، قد غَفَلها عن نفسه.[٣]

وعن محمد بن سيرين قال: كنا نُحَدَّثُ أن أكثر الناس خطايا أفرغُهم لذِكر خطايا الناس.[٤]

وقال ذَو النُّونِ المصري: ثَلَاثَةٌ مِنْ أَعْلَامِ أَعْمَالِ الْكَيَاسَةِ تَرْكُ الْمِرَاءِ، وَالْجِدَالُ فِي الدِّينِ، وَالْإِقْبَالُ عَلَى الْعَمَلِ بِيَسِيرِ الْعِلْمِ، وَالِاشْتِغَالُ بِإِصْلَاحِ عُيُوبِ النَّفْسِ

---

(١)رواه البيهقي في "الشعب"(٣١٥/٥) رقم (٦٧٧٥).

(٢) "صفة الصفوة"(٢٤٩/٣)

(٣) "الصمت"لابن أبي الدنيا رقم (٧٤٦)، "صفة الصفوة"(١٠١/٣)

(٤) "الصمت"ص (١٠٤)

غَافِلًا عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ قَالَ: وَثَلَاثَةٌ مِنْ أَعْلَامِ التَّوَاضُعِ تَصْغِيرُ النَّفْسِ مَعْرِفَةً بِالْعَيْبِ، وَتَعْظِيمُ النَّاسِ حُرْمَةً لِلتَّوْحِيدِ، وَقَبُولُ الْحَقِّ وَالنَّصِيحَةِ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ، وَثَلَاثَةٌ مِنْ أَعْلَامِ حُسْنِ الْخُلُقِ: قِلَّةُ الْخِلَافِ عَلَى الْمُعَاشِرِينَ وَتَحْسِينُ مَا يَرِدُ عَلَيْهِمْ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ وَإِلْزَامُ النَّفْسِ اللَّائِمَةِ فِيمَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ كَفًّا عَنْ مَعْرِفَةِ عُيُوبِهِمْ.(١)

وروي عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: لو سخِرت من كلب، لخشيت أن أكون كلبًا، وإني أكره أن أرى رجلا فارغا ليس في عمل آخرة ولا دنيا.(٢)

وعن الحسن قال: كانوا يقولون: من رمى أخاه بذنب قد تاب منه؛ لم يمت حتى يبتليه الله به.(٣)

وقال الفضيل بن عياض: ما من أحد أحب الرياسة إلا حسد، وبغى، وتتبع عيوب الناس، وكره أن يُذكر أحد بخير.(٤)

وقال رجل لإبراهيم بن أدهم: قال الله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] فما بالنا ندعو فلا يستجاب لنا؟ فقال له إبراهيم: من أجل خمسة أشياء قال: وما هي؟ قال: عرفتم الله فلم تؤدوا حقه، وقرأتم القرآن فلم تعملوا بما فيه، وقلتم نحب الرسول ﷺ وتركتم سنته، وقلتم نلعن إبليس وأطعتموه،

---

(١) أخرجه البيهقي في "شعب الإيمان" (١٣/٥٠٥)

(٢) "سير أعلام النبلاء"(١/٤٩٦).

(٣) "فيض القدير"(٦/١٨٣)

(٤) "جامع بيان العلم"(١/١٤٣).

والخامسة تركتم عيوبكم وأخذتم في عيوب الناس.[١]

وقال بِشْر بْن الْحَارِثِ: لَا تَسْأَلْ عَنْ مَسَائِلَ، تَعْرِفُ بِهَا عُيُوبَ النَّاسِ.[٢]

وقال الحافظ أبو بكر الطرطوشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذا رأيت رجلا يطلب عثرات الناس وسقطاتهم، فمثله في الآدميين كمثل الذباب في عالم الطير، فإن الذباب يقع على الجسد فيتحامى صحيحه ويطلب المواضع النغلة منه ذوات المدة والدم والنجاسة .اهـ[٣]

وقال عبيد الله الجِيْلِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مَنْ رَأَيْتَهُ يَطْلُبُ الْعَثَرَاتِ عَلَى النَّاسِ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ مَعْيُوبٌ، وَمَنْ ذَكَرَ عَوْرَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَدْ هَتَكَ سِتْرَ اللَّهِ الْمُرْخَى عَلَى عِبَادِهِ.اهـ[٤]

وقال أبو عبدالله المحاسبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إِن الانسان عِنْد معرفَة عيب نَفسه أبله وَعند معرفَة عيب غَيره جهبيذ فيحتقر عيب أهل كل صناعَة وَأهل كل عمل من أعمال الدُّنْيَا والآخرة ويحتقر عيب من هُوَ فِي مثل مرتبته ويستعظم ذَلِك من كل من رَآهُ مِنْهُ فَإِذا أَتَى على عيب نَفسه جازه إِلى عيوبهم كَأَنَّهُ أعمى عَنهُ لم يره وَهُوَ يطْلب الْعذر لنَفسِهِ وَلَا يَطْلُبهُ لغيره فَهُوَ فِي طلب عذرها جهبيذ وَفِي طلب عذر غَيرهَا أبله وَهُوَ يضمر عِنْد ذَلِك لصَاحبه مَا يكره أَن يضمر لَهُ

---

(١) "جامع بيان العلم وفضله" (٦٩١/١)

(٢) "حلية الأولياء" (٣٤٩/٨)

(٣) "سراج الملوك" (ص: ١١١)

(٤) "التوبيخ والتنبيه" لأبي الشيخ الأصبهاني (ص: ١٠١)

غَيره لَو رأى مِنْهُ مثل ذَلِك الْعَيْب فَإِذا رَأَيْت عَيْبا أَو زلَّة أَو عَثْرَة من غَيْرك فَاجْعَلْ نَفسك مَكَانَهُ ثمَّ انْظُر الَّذِي كنت تحب أن يستقبلك بِهِ لَو رأى مِنْك مثل الَّذِي رَأَيْت مِنْهُ وأضمر ذَلِك لَهُ فِي نَفسك فَإِنَّهُ يحب مِنْك مثل مَا كنت تحبه مِنْهُ.اهـ[1]

وخلاصة المقال، وخاتمة الكلام ما قاله الهمام الإمام أبو حاتم بن حبان البستي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الواجب على العاقل لزوم السلامة بترك التجسس عن عيوب الناس، مع الاشتغال بإصلاح عيوب نفسه، فإن من اشتغل بعيوبه عن عيوب غيره؛ أراح بدنه، ولم يُتعب قلبه، فكلما اطلع على عيب لنفسه هان عليه ما يرى مثله من أخيه. وإنَّ من اشتغل بعيوب النَّاس عن عيوب نفسه عمي قلبه وتعب بدنه، وتعذَّر عليه ترك عيوب نفسه، وإنَّ من أعْجَز الناس من عاب الناس بما فيهم، وأعجز منه من عابهم بما فيه، ومن عاب النَّاس عابوه.اهـ[2]

المرء إن كان عاقلا ورعـــا ... أشغله عن عيوب غيره ورعه

كما العليل السقيم أشغله ... عن وجع الناس كلهم وجعه

فيا أيها الحبيب: لك في نفسك شغل عن عيوب غيرك؛ ففيك أضعاف أضعاف ما تراه في الآخرين، فلا تفتح على نفسك باب الغيبة وسوء الظن وهتك أستار الناس بالانشغال بعيوبهم، ولا تفتح على نفسك باب شر لا يسد بالكلام عن الناس فيتكلموا عنك:

---

(١) "آداب النفوس" (ص: ٨٠)

(٢) "روضة العقلاء" ص (١٢٥).

إن شئت أن تحيا ودينك سالم وحظك موفورٌ وعِرْضُــك صَـيِّنُ
لسانك لا تذكر به عورة امرئ فكلك عــورات وللنـاس ألسُنُ
وعينك إن أبدت إليك مساوئًا فصُنْها، وقل: يا عينُ للناس أعين

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

نداء عاجل ونصيحة غالية

إلى كل طالب علاج ومؤمل عافية

اللهَ اللهَ في الطب النبوي وشرطَ الانتفاع به.

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وليس طبه ﷺ كطب الأطباء، فإن طب النبي ﷺ متيقن قطعي إلهي، صادر عن الوحي ومشكاة النبوة وكمال العقل. وطب غيره أكثره حدس وظنون وتجارب، ولا ينكر عدم انتفاع كثير من المرضى بطب النبوة فإنه إنما ينتفع به من تلقاه بالقبول واعتقاد الشفاء به، وكمال التلقي له بالإيمان والإذعان، فهذا القرآن الذي هو شفاء لما في الصدور - إن لم يتلق هذا التلقي - لم يحصل به شفاء الصدور من أدوائها، بل لا يزيد المنافقين إلا رجسا إلى رجسهم ومرضا إلى مرضهم، وأين يقع طب الأبدان منه فطب النبوة لا يناسب إلا الأبدان الطيبة، كما أن شفاء القرآن لا يناسب إلا الأرواح الطيبة والقلوب الحية، فإعراض الناس عن طب النبوة كإعراضهم عن الاستشفاء بالقرآن الذي هو الشفاء النافع، وليس ذلك لقصور في الدواء،

ولكن لخبث الطبيعة، وفساد المحل وعدم قبوله، والله الموفق.اهـ[١]

وعليكم بالعسل

عليكم بالعسل وخاصة على الريق.

قال فيه الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والعسل فيه منافع عظيمة، فإنه جلاء للأوساخ التي في العروق والأمعاء وغيرها، محلل للرطوبات أكلا وطلاء، نافع للمشايخ وأصحاب البلغم، ومن كان مزاجه باردا رطبا، وهو مغذ ملين للطبيعة، حافظ لقوى المعاجين ولما استودع فيه، مذهب لكيفيات الأدوية الكريهة، منق للكبد والصدر، مدر للبول، موافق للسعال الكائن عن البلغم، وإذا شرب حارا بدهن الورد، نفع من نهش الهوام وشرب الأفيون، وإن شرب وحده ممزوجا بماء نفع من عضة الكَلْب الكَلِب، وأكل الفطر القتال، وإذا جعل فيه اللحم الطري، حفظ طراوته ثلاثة أشهر، وكذلك إن جعل فيه القثاء، والخيار، والقرع، والباذنجان، ويحفظ كثيرا من الفاكهة ستة أشهر، ويحفظ جثة الموتى، ويسمى الحافظ الأمين. وإذا لطخ به البدن المقمل والشعر، قتل قمله وصئبانه، وطول الشعر، وحسنه، ونعمه، وإن اكتحل به جلا ظلمة البصر وإن استن به بيض الأسنان وصقلها، وحفظ صحتها، وصحة اللثة، ويفتح أفواه العروق، ويدر الطمث، ولعقه على الريق يذهب البلغم، ويغسل خمل المعدة، ويدفع الفضلات عنها، ويسخنها تسخينا معتدلا، ويفتح سددها، ويفعل ذلك بالكبد والكلى والمثانة، وهو أقل ضررا لسدد الكبد والطحال من كل حلو.

---

(١) "زاد المعاد في هدي خير العباد" (٣٣/٤).

وهو مع هذا كله مأمون الغائلة، قليل المضار، مضر بالعرض للصفراويين ودفعها بالخل ونحوه فيعود حينئذ نافعا له جدا.

وهو غذاء مع الأغذية، ودواء مع الأدوية، وشراب مع الأشربة، وحلو مع الحلوى، وطلاء مع الأطلية، ومفرح مع المفرحات، فما خلق لنا شيء في معناه أفضل منه، ولا مثله ولا قريب منه، ولم يكن معول القدماء إلا عليه، وأكثر كتب القدماء لا ذكر فيها للسكر البتة، ولا يعرفونه فإنه حديث العهد حدث قريبا، وكان النبي ﷺ يشربه بالماء على الريق، وفي ذلك سر بديع في حفظ الصحة لا يدركه إلا الفطن الفاضل، وسنذكر ذلك إن شاء الله عند ذكر هديه في حفظ الصحة.اهـ[١]

العسل في الطب الحديث:

لقد حظي العسل في الطب الحديث كما حظي من قبل في الطب القديم، واستفاد الإنسان من التقدم العلمي والتكنولوجي في تحليل العسل، ومعرفة مزاياه العلاجية، وقيمته الغذائية والعلاجية

قال الطبيب أحمد قدامة: وفي الطب الحديث تبين من تحليل العسل أنه يحوي عناصر ثمينة كثيرة، أهمها: السكاكر التي اكتشف منها حتى الآن نحو ١٥ نوعا فقط، والبروتين والمعادن (الحديد، النحاس، الكبريت، البوتاسيوم، والمنغنيز، الفوسفور، الكلور، الصوديوم، الكالسيوم، السيلكا، السيليكون، المغنيسيوم)، وفيتامينات (ب١، ب٢، ب٦، ج)، والخمائر والنيتروجين، والحوامض، والزيوت

---

(١) "زاد المعاد في هدي خير العباد" (٣١/٤)

الأثيرية، والمواد القطرانية.اهـ

وقال الطبيب الشهير الدكتور جارفس: إن التجربة المحققة قد أثبتت أن البكتيريا لا تعيش في العسل؛ لاحتوائه على مادة البوتاس، وهي تحرم البكتيريا الرطوبة التي هي مادة حياتها. ويقول: لقد وضع الدكتور (ساكيت) أستاذ البكتيريا في كلية الزراعة في (فورت كولتز) أنواعا من جراثيم الأمراض في قوارير مملوءة بالعسل الصرف، فماتت جراثيم التيفوئيد بعد ثمان وأربعين ساعة، وماتت جراثيم النزلات الصدرية في اليوم الرابع، وجراثيم الزنتارية بعد عشر ساعات، وجراثيم أخرى بعد خمس ساعات.اهـ

وأثبتت تجارب أجريت في (معهد باستور) بفرنسا: أن العسل معقم ومضاد للفساد، وأن أي جرثوم لا يستطيع أن يعيش فيه طويلا؛ لأن درجة تركيزه تجذب الماء من أجسام الجراثيم فتبددها.

وتبين من أبحاث جرثومية أجراها أطباء وعلماء كبار في روسيا أنه لا يفسد ولا يتعفن إذا كان في وعاء مفتوح؛ لأن فيه مادة لا تمكن الجراثيم، أو الفطور التي يأتي بها الهواء أن تنمو في العسل، وأن العصيات التيفية لا تعيش فيه أكثر من ٤٨ ساعة، والزحارية تموت خلال ١٠ ساعات، وعصيات السل يوقف تكاثرها.اهـ[١]

---

(١) "من كتاب قاموس الغذاء" (ص ٤٠٧- ٤٠٨)

فقهيات

حكم مس الحائض وغير المتطهر المصحف بدون حائل.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه أما بعد: فقد ذهب جماهير أهل العلم من الصحابة والتابعين وأئمة المذاهب الأربعة إلى حرمة مس الحائض والجنب المصحف[١].

واستدلوا على ذلك بأدلة، منها:

الدليل الأول: قوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة:٧٩].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ-بعد أن نقل عن الصحابة أن المراد بالآية هم الملائكة-: وقال آخرون: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ أي: من الجنابة والحدث. قالوا: ولفظ الآية خبر، ومعناها الطلب -أي لا يجوز أن يمسه إلا المطهرون-. قالوا: والمراد بالقرآن هاهنا المصحف، كما روى مسلم، عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ نهى أن يُسافَر بالقرآن إلى أرض العدو؛ مخافة أن يناله العدو.اهـ[٢]

وقال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: واحتج أصحابنا بقول الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠﴾

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ -عن منع مس المصحف لغير المتطهر-: هو مذهب الأئمة الأربعة.اهـ "مجموع الفتاوى" (٣٦٦/٣١).

(٢) "تفسير القرآن العظيم" (٥٤٥/٧)

[الواقعة: ٧٧ – ٨٠]، فوصفه بالتنزيل وهذا ظاهر في المصحف الذي عندنا فإن قالوا: المراد اللوح المحفوظ لا يمسه إلا الملائكة المطهرون، ولهذا قال: «يمسُّه» بضم السين على الخبر، ولو كان المصحف لقال: «يمسَّه» بفتح السين على النهي؟ فالجواب أن قوله تعالى: ﴿تنزيل﴾ ظاهر في إرادة المصحف فلا يحمل على غيره إلا بدليل صحيح صريح، وأما رفع السين فهو نهي بلفظ الخبر كقوله: ﴿لاتضارُّ والدة بولدها﴾ على قراءة من رفع، وقوله ﷺ: «لا يبيع أحدكم على بيع أخيه» بإثبات الياء ونظائره كثيرة مشهورة وهو معروف في العربية. فإن قالوا: لو أريد ما قلتم لقال: «لا يمسه إلا المتطهرون»؟ فالجواب: أنه يقال في المتوضئ مطهر ومتطهر واستدل أصحابنا بالحديث المذكور، وبأنه قول علي وسعد بن أبي وقاص وابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ولم يعرف لهم مخالف في الصحابة.اهـ[1]

وقد صح عن أصحاب النبي ﷺ حمل الآية على العموم وهو عدم مس المصحف إلا على طهارة ومن الآثار في ذلك:

ماجاء عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ، عن سلمان، قال عبد الرحمن: كنا معه في سفر، فانطلق، فقضى حاجته، ثم جاء، فقلت: أي أبا عبد الله، توضأ؛ لعلنا نسألك عن آي من القرآن، فقال: سلوني، فإني لا أمسّه؛ إنه لا يمسّه إلا المطهرون، فسألناه، فقرأ علينا قبل أن يتوضأ.[2]

---

(١) "المجموع شرح المهذب" (٧٢/٢).

(٢)رواه الدارقطني وصححه (١ /١٢٤ رقم ١٠)

وعن مصعب بن سعد أَنَّهُ قال: كنت أمسك المصحف على سعد بن أبي وقاص، فاحتككت، فقال سعد: لعلك مسست ذكرك؟ قال: فقلت: نعم، فقال: قم، فتوضأ، فقمت، فتوضأت، ثم رجعت.(١)

وفهم الصحابة مقدم على فهم غيرهم.

وافتراضا: إذا كان المقصود (الملائكة)؛ فإن ذِكْرَ طهارتهم هنا إشارة إلى وجوب طهارة غيرهم عند مسه من باب أولى.

الدليل الثاني: ما رواه عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حَزم: أن في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم: «ألا يمس القرآن إلا طاهر».(٢)

---

(١)أخرجه الإمام مالك في "الموطأ"(١ /٤٢ رقم ٥٩)

(٢)رواه الإمام مالك في "الموطأ" (٢٧٨/٢)، قال الإمام الشافعي: لم يقبلوه حتى ثبت عندهم أنه كتاب رسول الله »ﷺ.اهـ "الرسالة" (ص٤٢٢)

وقال يعقوب بن سفيان الفسوى: لاأعلم في جميع الكتب أصح من كتاب عمرو بن حزم كان أصحاب رسول الله ﷺ يرجعون اليه. "ميزان الإعتدال"(٢٠٢/٢)

وقال الحاكم في "المستدرك" -بعد روايته للحديث بطوله-(٣٩٧/١): هذا حديث كبير مفسر في هذا الباب يشهد له أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز، وامام العلماء في عصره محمد بن مسلم بن شهاب بالصحة.اهـ

وقال ابن عبدالبر: هذا كتاب مشهور عند أهل السير معروف ما فيه عند أهل العلم معرفة يستغنى بشهرتها عن الإسناد لأنه أشبه التواتر في مجيئه لتلقي الناس له بالقبول والمعرفة.اهـ "التمهيد" (٣٣٨/١٧) =

الدليل الثالث: اشتهار هذا الحكم بين الصحابة والتابعين، حتى كاد يقع الإجماع على ذلك، وأقوالهم في ذلك لها حكم الرفع. فمن أحب أن يُطالعها فليرجع إلى "مصنف ابن أبي شيبة" (باب: الرجل على غير وضوء والحائض يمسان المصحف) (٢/٢٥٦).

وأخيرًا: إذا اختلف العلماء في هذه المسألة فهم متفقون على أنَّ الأفضل والأكمل أن يكون القارئُ طاهرَ البدن، بل وطاهرَ الثياب والمكان أيضا تعظيماً لشعائر الله تعالى، والله عز وجل يقول: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الحج:٣٢]، فلنأخذ ما اتفقوا عليه ونترك ما

= وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: قال الإمام أحمد: لا شك أن النبي ﷺ كتبه له، وهو أيضا قول سلمان الفارسي وعبد الله بن عمر وغيرهما. ولا يعلم لهما من الصحابة مخالف.اهـ"مجموع الفتاوى" (٢١/٢٦٦)

وقال الحافظ ابن حجر: وقد صحح الحديث بالكتاب المذكور جماعة من الأئمة لا من حيث الإسناد بل من حيث الشهرة، فقال الشافعي في "رسالته": لم يقبلوا هذا الحديث حتى ثبت عندهم أنه كتاب رسول الله ﷺ. وقال ابن عبد البر: هذا كتاب مشهور عند أهل السير، معروف ما فيه عند أهل العلم معرفة يستغنى بشهرتها عن الإسناد، لأنه أشبه التواتر في مجيئه لتلقي الناس له بالقبول والمعرفة. انتهى من "التلخيص الحبير"(٤/١٧).

ـ وقال الشيخ الألباني عنه: صحيح كما في "إرواء الغليل" (١/١٥٨)

والخلاصة: أن الحديث وان كانت طرقه بمفردها ضعيفة إلا أن كثرة طرقه ووجاداته وتلقي العلماء له بالقبول وكون كل فقرة منه لها شواهد من أحاديث أخرى ورجوع الصحابة الى ما فيه تشهد بصحة الاحتجاج به.

اختلفوا فيه.

وهذه بعض فتاوى أهل العلم في المسألة:

١- سُئل شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هل يجوز مس المصحف بغير وضوء أم لا ؟

فأجاب: مذهب الأئمة الأربعة أنه لا يمس المصحف إلا طاهر كما قال في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم: « أن لا يمس القرآن إلا طاهر». قال الإمام أحمد: لا شك أن النبي ﷺ كتبه له وهو أيضا قول سلمان الفارسي وعبد الله بن عمر وغيرهما. ولا يعلم لهما من الصحابة مخالف .اهـ[1]

٢- قال علماء اللجنة الدائمة للإفتاء: يجوز للحائض أن تقرأ عن ظهر قلب من غير أن تمس المصحف مباشرة إذا احتاجت لقراءة القرآن من أجل ألا تنساه. انتهى.[2]

٣- وقال الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يجوز للحائض والنفساء قراءة القرآن عن ظهر قلب، لأن مدتهما تطول فقياسهما على الجنب غير صحيح، فعلى هذا لا بأس أن تقرأ الطالبة القرآن، وهكذا المدرسة في الامتحان وغير الامتحان عن ظهر قلب لا من المصحف. أما إن احتاجت إحداهن إلى القراءة من المصحف فلا حرج عليها بشرط أن يكون ذلك من وراء حائل. اهـ[3]

---

(١)انظر: "مجموع الفتاوى"(٢١/٢٦٥-٢٦٧).

(٢) "فتاوى اللجنة الدائمة" (٤ /٣٣٢)

(٣) "مجموع فتاوى ابن باز" (٦ /٣٦٠)

وقال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: نعم يجوز لها أن تقرأ القرآن من التفسير وغير التفسير إذا كانت تخشى أن تنسى ما حفظته فإن كان من التفسير لم يشترط أن تكون على طهارة وإن كان من غير التفسير بأن يكون من المصحف فلا بد أن تجعل بينها وبينه حائل من منديل أو قفاز أو نحوه لأن المرأة الحائض وكذلك من لم يكن على طهارة لا يحل له أن يمس المصحف.اه[١] والله الموفق.

صلاة الوتر بين أذان الفجر وصلاة الصبح

لا حرج في صلاة الوتر بين أذان الفجر وصلاة الصبح لمن غلبته عينه أو شغله عذر عنها.

قال الإمام ابن عبدالبر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: اخْتَلَف السلف من العلماء والخلف بعدهم في آخر وقت الوتر، بعد إجماعهم على أن أول وقته بعد صلاة العشاء، وأن الليل كله حتى ينفجر الصبح وقت له؛ إذ هو آخر صلاة الليل. فقال منهم قائلون: لا يصلي الوتر بعد طلوع الفجر، وإنما وقتها من صلاة العشاء إلى طلوع الفجر، فإذا طلع الفجر فلا وتر. وقال آخرون: يصلي الوتر ما لم يُصل الصبح، فمن صلى الصبح فلا يصلي الوتر.

رُوي هذا القول عن ابن مسعود وابن عباس وعبادة بن الصامت وأبي الدرداء وحذيفة وعائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ . وبه قال مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وأبو ثور

---

(١) "فتاوى نور على الدرب"

وإسحاق وجماعة، وهو الصواب عندي؛ لأني لا أعلم لهؤلاء الصحابة مخالفا من الصحابة، فَدَلّ إجماعهم على أن معنى الحديث في مراعاة طلوع الفجر أريد ما لم تُصَلّ صلاة الفجر. ويحتمل أيضا: أن يكون ذلك لمن قصده واعتمده، وأما من نام عنه وغلبته عينه حتى انفجر الصبح وأمكنه أن يصليه مع الصبح قبل طلوع الشمس مما أريد بذلك الخطاب، والله الموفق للصواب، وإلى هذا المعنى أشار مالك رحمه الله.اهـ[١]

مسألة: هل يقال رمضان كريم؟

الحمد لله وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ﷺ. أما بعد:

فقد تناقل الناس بعض الفتاوى التي اجتهد فيها بعض العلماء في النهي عن قول: «رمضان كريم».

وأقول: بالنظر إلى أصل هذه الكلمة (كريم) يتبين الحكم.

فما أصل هذه الكلمة وما معناها؟

الجواب: تطلق عند العرب على عدة معان، فتأتي بمعنى الشرف والكرم

قال الأزهري: «والكَرِيمُ: المحمود فيما تحتاج إليه فيه... والكريم: اسم جامع لكل ما يُحمد» اهـ[٢]

---

(١) "الاستذكار" (١٢٢/٢)

(٢) "تهذيب اللغة" (٢٣٣/١٠-٢٣٤، مادة كرم)

وقال ابن فارس: «الكاف والراء والميم: أصلٌ صحيح له بابان: أحدهما: شَرَفٌ في الشَّيء في نفسِه، أو شرفٌ في خُلُق من الأخلاق. يقال: رجلٌ كريم، وفَرَسٌ كريم، ونبات كريم. وأكرَمَ الرّجلُ: إذا أتَى بأولادٍ كرام... والأصل الآخر الكَرْم، وهي القِلادة....» اهـ[١]

وقال ابن قتيبة: الكريم: الشريف الفاضل، قال الله تعالى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ أي: أفضلكم، وقال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ أي: شرفناهم وفضلناهم، وقال حكاية عن إبليس: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ أي: فضلت. وقال: ﴿إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ﴾ أي: فضله، وقال: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ أي: الشريف الفاضل، وقال: ﴿وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ أي: شريفًا، وقال: ﴿إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ أي شريف لشرف كاتبه، ويقال: شريف بالختم. والكريم: الصفوح. وذلك من الشرف والفضل. قال الله عز وجل: ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ أي: صفوح. وقال: ﴿ما غرك بربك الكريم﴾ أي الصفوح. والكريم: الكثير الكرم قال الله تعالى: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي: كثير.

والكريم: الحسن، وذلك من الفضل. قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ أي: حسن. وكذلك قوله: ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أي: حسن يُبتهج به. وقال تعالى: ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أي: حسنًا. وهذا وإن اختلف، فأصله الشرف)[٢].

---

(١) "مقاييس اللغة"(١٧١/٥-١٧٢، مادة كرم)

(٢) "تأويل مشكل القرآن" (٢٦٩).

فظهر أن الكريم يأتي على عدة أوجه وهي: (الشريف-الفاضل-المحمود-الحسن-الصفوح-الكثير).

وفي كتاب الله عز وجل الكثير من الآيات التي تدل على جواز إطلاق تلك الكلمة، ومنها - مع ما سبق ذكره -: قوله تعالى: ﴿وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء:٥٨]. وقال: ﴿وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ * لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة:٤٣-٤٤]. وقال: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيم﴾[يس:١١]، وقال: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف:٣١]، وقال: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيم﴾ [الدخان:١٧].

ويظهر من ذلك: أن الله سبحانه وصف عددًا من مخلوقاته بالكرم.

فعلى هذا: فلا مانع من إطلاق هذا الوصف على شهر عظيم مبارك، عظيم شريف القدر عالي المنزلة وهو شهر رمضان.

وقد استعمل هذه الكلمة كثير من العلماء، منهم:

الإمام محمد بن عبد الوهاب في "فتاويه" (١٩٣/٢) في خطبة جمعة قال: واعلموا أنه قد نزل بساحتكم شهر كريم، وموسم عظيم.اهـ

الشيخ العلامة محمد بن إبراهيم في "فتاويه" (١٤/٤) حيث قال: وينبغي للإنسان الاستكثار من صدقة التطوع أيضا في هذا الشهر الكريم والموسم العظيم. وقال في (٢٠٧/٤): قد نزل بساحة المسلمين شهر كريم، وموسم عظيم.اهـ

وقال ابن سعدي في "مجموع الخطب النافعة "- ضمن المجموع- (٦٢/٢٣):

واعلموا أنه قد أظلكم شهر عظيم، وموسم مبارك كريم.اهـ

والشيخ العلامة ابن باز في عدة مواضع من فتاويه، وخذ على سبيل المثال:

في (١١/٣٣٤): وحتى يفوز الجميع بالأجر العظيم في هذا الشهر الكريم.

وفي (١٥/٤٨): ولاسيما في هذا الشهر الكريم؛ لأنه شهر عظيم تضاعف فيه الأعمال الصالحات.اهـ

والشيخ ابن عثيمين في كثير من كتبه منها "مجالس شهر رمضان" المجلس الأول ص (٤) قال: لقد أظلنا شهر كريم وموسم عظيم.اهـ

وفي المجلس الثامن والعشرون قال: إن شهركم الكريم قد عزم على الرحيل.اهـ

واللجنة الدائمة في مواضع، منها: المجموعة الأولى (٥/٣٩٣)، والمجموعة الثانية (٢/٢٢٤).

والله الموفق.

هل زاد النبي صلى الله عليه وآله وسلم على إحدى عشرة ركعة في قيام الليل؟

الجواب: نعم، ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم الزيادة على ذلك، وبيانه في التالي:

١- صلاة ثلاث عشرة ركعة: ومما يدل على ذلك:

قال الإمام البخاري-رحمه الله- (١/١٤١)(٦٩٨): حدثنا أحمد، قال: حدثنا ابن وهب، قال: حدثنا عمرو، عن عبد ربه بن سعيد، عن مخرمة بن سليمان، عن كريب، مولى ابن عباس، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: نمت عند ميمونة والنبي صلى الله عليه وآله وسلم عندها تلك الليلة «فتوضأ، ثم قام يصلي، فقمت على يساره، فأخذني، فجعلني عن يمينه، فصلى ثلاث عشرة ركعة، ثم نام حتى نفخ، وكان

إذا نام نفخ، ثم أتاه المؤذن، فخرج، فصلى ولم يتوضأ». وأخرجه مسلم (٧٦٣)
وقال الإمام مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٥٣١/١)ح(٧٦٤): حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا غندر، عن شعبة، ح وحدثنا ابن المثنى، وابن بشار، قالا: حدثنا محمد ابن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي جمرة، قال: سمعت ابن عباس، يقول: «كان رسول الله ﷺ يصلي من الليل ثلاث عشرة ركعة». وأخرجه البخاري رقم(١١٣٨)

وقال(٥٣١/١)ح(٧٦٥): وحدثنا قتيبة بن سعيد، عن مالك بن أنس، عن عبد الله بن أبي بكر، عن أبيه، أن عبد الله بن قيس بن مخرمة، أخبره عن زيد بن خالد الجهني، أنه قال: لأرمقن صلاة رسول الله ﷺ الليلة، «فصلى ركعتين خفيفتين، ثم صلى ركعتين طويلتين طويلتين طويلتين، ثم صلى ركعتين، وهما دون اللتين قبلهما، ثم صلى ركعتين، وهما دون اللتين قبلهما، ثم صلى ركعتين، وهما دون اللتين قبلهما، ثم صلى ركعتين وهما دون اللتين قبلهما، ثم أوتر فذلك ثلاث عشرة ركعة».

٢- صلاة خمس عشرة ركعة؛ أربع بعد العشاء وإحدى عشرة بعد النوم:
قال الإمام أبو داود(٤٢/٢)(١٣٤٦): حدَّثنا علي بن حسين الدَّرهميُّ، حدَّثنا ابنُ أبي عدي، عن بَهزِ بن حكيم، حدَّثنا زُرارة بن أوفى أن عائشةَ سُئِلَتْ عن صلاة رسول الله ﷺ في جوف الليل، فقالت:كان يُصلّي العِشاء في جماعة، ثم يرجعُ إلى أهله، فيركع أربعَ ركعاتٍ، ثم يأوي إلى فِراشه وينام، وطَهورُهُ مغطى عندَ رأسِه، وسواكُه موضوع حتى يبعثه الله ساعتَه التي يبعثه من الليل،

فيتسوَّكُ ويُسبغُ الوضوءَ، ثم يقوم إلى مُصلاه، فيصلي ثمانيَ ركعات يقرأ فيهن بأم الكتاب، وسورة من القرآن، وما شاء الله، ولا يقعُدُ في شيء منها حتى يَقْعُدَ في الثامنة، ولا يُسلِّم، ويقرأ في التاسعة، ثم يقعد، فيدعو بما شاء الله أن يدعوَ، ويسألُه ويرغبُ إليه، ويُسلِّمُ تسليمة واحدة شديدة يكادُ يوقِظُ أهلَ البيت من شدة تسليمه، ثم يقرأ وهو قاعِدٌ بأم الكتاب، ويركع وهو قاعد، ثم يقرأ الثانية فيركعُ ويسجدُ وهو قاعدٌ، ثم يدعو ما شاء الله أن يدعوَ، ثم يُسلِّمُ وينصرفُ، فلم تزل تلك صلاةُ رسول الله ﷺ حتى بَدُنَ، فنقص من التسع ثنتَين، فجعلها إلى الست والسبع وركعتيه وهو قاعد حتى قُبِضَ على ذلك.

٣- صلاة سبع عشرة ركعة

قال الإمام أبو داود (٥١١/٢)(١٣٥٧): حدَّثنا ابنُ المثنَّى، حدَّثنا ابنُ أبي عَدي، عن شُعبة، عن الحكم، عن سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال: بتُّ في بيتِ خالتي ميمونةَ بنت الحارث، فصلَّى النبيّ ﷺ العشاء، ثم جاء فصَلَّى أربعا، ثم نام، ثم قام يُصلِّي، فقمتُ عن يساره، فأدارني، فأقامني عن يمينه، فصلَّى خمسا، ثم نام حتى سمعتُ غَطيطَه - أو خَطيطَه -، ثم قام فصلَّى ركعتين، ثم خَرجَ فصلَّى الغداة.

(١٣٥٨) حدَّثنا قُتيبةُ، حدَّثنا عبدُ العزيز بن محمد، عن عبد المجيد، عن يحي بن عباد عن سعيد بن جُبير، أن ابن عباس حدَّثه في هذه القصة قال: قام فصلَّى ركعتين ركعتين، حتى صلَّى ثمانيَ ركعاتٍ، ثم أوترَ بخمسٍ، لم يجلس بينهن.

الشاهد من الروايتين: أنه ﷺ صلى أربعا بعد العشاء ثم نام ثم قام فصلى ثلاث عشرة ركعة فتلك سبع عشرة ركعة.

قال الحافظ في "التلخيص الحبير" (٣٩/٢): قوله: «لم ينقل زيادة على ثلاث عشرة» كأنه أخذه من رواية أبي داود الماضية عن عائشة ولا بأكثر من ثلاث عشرة وفيه نظر؛ ففي "حواشي المنذري": قيل: أكثر ما روي في صلاة الليل سبع عشرة وهي عدد ركعات اليوم والليلة.اهـ

وقد جزم بعض السلف بذلك ومنهم التابعي الجليل طاووس بن كيسان رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في "مصنف عبدالرزاق" (٣٨/٣)(٤٧١٠): عن معمر، عن ابن طاووس، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي سَبْعَ عَشْرَةَ رَكْعَةً مِنَ اللَّيْلِ».

الشبهة وجوابها:

فإن قيل روت أم المؤمنين عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «ما كان رسول الله ﷺ يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة يصلي أربعا، فلا تسل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي أربعا، فلا تسل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي ثلاثا»[1].

فيقال جوابا عن ذلك: أن المثبت مقدم على النافي ومن علم حجة على من لم يعلم، وكل روى ما رأى وشهد.

وقد ثبت عنها رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا الإخبار عن صلاة النبي ﷺ الزيادة وهو صلاته ﷺ ثلاث عشرة ركعة ومما جاء في ذلك ما أخرجه البخاري في صحيحه رقم(١١٧٠): عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، قالت: «كان رسول الله ﷺ يصلي بالليل

---

(١)متفق عليه [خ (١١٤٧) م(٧٣٨)].

ثلاث عشرة ركعة، ثم يصلي إذا سمع النداء بالصبح ركعتين خفيفتين» .

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "فتح الباري"(٢١/٣): وأما ما رواه الزهري عن عروة عنها كما سيأتي في باب ما يقرأ في ركعتي الفجر بلفظ: «كان يصلي بالليل ثلاث عشرة ركعة ثم يصلي إذا سمع النداء بالصبح ركعتين خفيفتين»، فظاهره يخالف ما تقدم؛ فيحتمل أن تكون أضافت إلى صلاة الليل سنة العشاء لكونه كان يصليها في بيته أو ما كان يفتتح به صلاة الليل فقد ثبت عند مسلم من طريق سعد بن هشام عنها أنه كان يفتتحها بركعتين خفيفتين وهذا أرجح في نظري لأن رواية أبي سلمة التي دلت على الحصر في إحدى عشرة جاء في صفتها عند المصنف وغيره يصلي أربعا ثم أربعا ثم ثلاثا فدل على أنها لم تتعرض للركعتين الخفيفتين وتعرضت لهما في رواية الزهري والزيادة من الحافظ مقبولة، وبهذا يجمع بين الروايات وينبغي أن يستحضر هنا ما تقدم في أبواب الوتر من ذكر الركعتين بعد الوتر والاختلاف هل هما الركعتان بعد الفجر أو صلاة مفردة بعد الوتر، ويؤيده ما وقع عند أحمد وأبي داود من رواية عبد الله بن أبي قيس عن عائشة بلفظ: «كان يوتر بأربع وثلاث وست وثلاث وثمان وثلاث وعشر وثلاث ولم يكن يوتر بأكثر من ثلاث عشرة ولا أنقص من سبع»، وهذا أصح ما وقفت عليه من ذلك وبه يجمع بين ما اختلف عن عائشة من ذلك والله أعلم. قال القرطبي: أشكلت روايات عائشة على كثير من أهل العلم حتى نسب بعضهم حديثها إلى الاضطراب وهذا إنما يتم لو كان الراوي عنها واحدًا أو أخبرت عن وقت واحد والصواب

أن كل شيء ذكرته من ذلك محمول على أوقات متعددة وأحوال مختلفة بحسب النشاط وبيان الجواز والله أعلم.اه

وقال النووي في "شرح مسلم"(١٨/٦): وعنها في البخاري أن صلاته ﷺ بالليل سبع وتسع، وذكر البخاري ومسلم بعد هذا من حديث ابن عباس أن صلاته ﷺ من الليل ثلاث عشرة ركعة وركعتين بعد الفجر سنة الصبح، وفي حديث زيد بن خالد أنه ﷺ صلى ركعتين خفيفتين ثم طويلتين وذكر الحديث وقال في آخره: فتلك ثلاث عشرة. قال القاضي: قال العلماء: في هذه الأحاديث إخبار كل واحد من ابن عباس وزيد وعائشة بما شاهد، وأما الاختلاف في حديث عائشة فقيل: هو منها، وقيل من الرواة عنها، فيحتمل أن إخبارها بأحد عشرة هو الأغلب وباقي رواياتها إخبار منها بما كان يقع نادرا في بعض الأوقات.اه المراد

وختاما: يتبين من هذا أن دعوى وجوب الاقتصار على إحدى عشرة ركعة في قيام الليل دعوى ضعيفة لا يسعفها أثر ولا يؤيدها نظر، بل هي مخالفة للثابت عنه ﷺ في التنوع في عدد ركعات صلاته بالليل.

وصلاة الليل لا حد لها على القول الصحيح من أقوال أهل العلم

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في "الفتاوى"(٤٠١/٢): في قيام رمضان لم يوقت النبي ﷺ فيه عددا معينا... والأفضل يختلف باختلاف أحوال المصلين، فإن كان فيهم احتمال لطول القيام، فالقيام بعشر ركعات وثلاث بعدها كما كان النبي ﷺ يصلي لنفسه في رمضان وغيره هو الأفضل، وإن كانوا لا يحتملونه،

فالقيام بعشرين هو الأفضل... وقد نص على ذلك غير واحد من الأئمة كأحمد وغيره، ومن ظن أن قيام رمضان فيه عدد موقت عن النبي ﷺ لا يزداد فيه ولا ينقص منه فقد أخطأ.اهـ

وقال ابن عبدالبر في "الاستذكار" (٢/١٠٢): وقد أجمع العلماء على أن لا حد ولا شيء مقدرا في صلاة الليل، وأنها نافلة، فمن شاء أطال فيها القيام وقلت ركعاته، ومن شاء أكثر الركوع والسجود.اهـ

وقال العراقي في "طرح التثريب"(٣/٥٠): وقد اتفق العلماء على أنه ليس له حد محصور ولكن اختلفت الروايات فيما كان يفعله النبي ﷺ.اهـ

وفق الله الجميع لما يحب ويرضى، ورزقنا العلم النافع والعمل الصالح.

مسألة : هل يجوز تقديم صيام التطوع كالست من شوال على القضاء الواجب؟

أقول: المسألة مختلف فيها عند أهل العلم قديما وحديثا.

و قول الجمهور هو جواز تقديم التطوع على القضاء.

لقوله تعالى: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾.

فالآية دلت على أن القضاء على التراخي، فيجوز التطوع قبل القضاء.

ولقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كان يكون علي الصوم من رمضان، فما أستطيع أن أقضيه إلا في شعبان، الشغل من رسول الله ﷺ، أو برسول الله ﷺ». متفق عليه، [خ(١٩٥٠) م(١١٤٦)].

فحديث عائشة هذا يدل - والله أعلم - على أنها كانت تتنفل قبل الفريضة.

والغالب: أنها كانت تصوم الست لأن النبي ﷺ كان يندب إليها، ولم ينقل أنه ﷺ منعها من ذلك، فتبين جواز هذا الفعل، بدلالة إقرار النبي ﷺ لها.

وأما قوله ﷺ: « مَنْ صَامَ رَمَضَانَ ثم أتبعه ستا من شوال....»الخ فالمقصود: صوم رمضان أداءً أو قضاءً ولو متأخرا.

لأن من أفطر لعذر وقضى فله الأجر كاملا ويصح وصفه حينئذ بأنه صام رمضان والحسنة بعشر أمثالها، ثم له الست من شوال بشهرين أيضا، وتكون التبعية هنا تبعية تقديرية.

وهذا أيسر على الناس وأدعى لأداء هذه السنة؛ إذ الكثير منهم لا يستطيعون جمع القضاء في شوال ثم صيام الست فينقطعون أو يشق عليهم.

لكن الأفضل والأكمل للإنسان بغض النظر عن كونه خروجا من الخلاف أن يقدم القضاء لما فيه من المسارعة في الخير والمبادرة بإبراء الذمة وذلك مندوب إليه شرعا.

والله الموفق.

إجابة الكرام عن مسألة تقسيم صلاة التراويح في العشر الأواخر من رمضان.

الحمدلله وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ﷺأما بعد: فهذه كلمة نافعة في مسألة يكثر الحديث عنها في هذه الأيام وهي: هل تشرع صلاة التهجد وتقسيم صلاة التراويح في أول الليل وآخره في العشر الأواخر. وهذا الفعل يعرف بـ «التعقيب».

فأقول: اختلف الفقهاء في ذلك والذي عليه جمهورهم أنه جائز لا كراهة فيه، قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ : واختلفت الرواية عن أحمد في التعقيب في رمضان، وهو: أن يقوموا في جماعة في المسجد، ثم يخرجون منه، ثم يعودون إليه فيصلون جماعة في آخر الليل... فنقل المروذي وغيره عنه: لا بأس به، وقد روي عن أنس فيه... ومن أصحابنا من جزم بكراهيته، إلا أن يكون بعد رقدة، أو يؤخره إلى بعد نصف الليل، وشرطوا: أن يكون قد أوتروا جماعة في قيامهم الأول، وهذا قول ابن حامد والقاضي وأصحابه. ولم يشترط أحمد ذلك. **وأكثر الفقهاء على أنه لا يكره بحالٍ**.اهـ باختصار من "فتح الباري"(١٧٥/٩)

وهو الراجح وذلك لأن صلاة الليل لا حجر على المرء ولا حرج في عددها ولا وقتها فكل الليل وقت للقيام.

ولا خلاف بين السلف على أن المسلم إذا صلى أول الليل ثم نام ثم استيقظ قبل الفجر فصلى ثم أوتر أن تقسيمه هذا صحيح، وأنه ليس محدثا ولا بدعة، سواء كان في رمضان أو غير رمضان .

والأصل أنه لا مانع من هذا التقسيم، إذ لا يشترط أن يكون قيام الليل في وقت واحد- ومن اشترط ذلك فعليه الدليل- بل يصح أن يكون مفرقا فيما بين صلاة العشاء وطلوع الفجر، كما صح عنه ﷺ.

قال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "صحيحه"(٣٤/١)(١١٧): حدثنا آدم، قال: حدثنا شعبة، قال: حدثنا الحكم، قال: سمعت سعيد بن جبير، عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: بت في بيت خالتي ميمونة بنت الحارث زوج النبي ﷺ وكان

النبي ﷺ عندها في ليلتها، فصلى النبي ﷺ العشاء، ثم جاء إلى منزله، فصلى أربع ركعات، ثم نام، ثم قام، ثم قال: «نام الغليم» أو كلمة تشبهها، ثم قام، فقمت عن يساره، فجعلني عن يمينه، فصلى خمس ركعات، ثم صلى ركعتين، ثم نام، حتى سمعت غطيطه أو خطيطه، ثم خرج إلى الصلاة.

وأما قول بعضهم لم يفعله الصحابة حين اجتماعهم لصلاة التراويح؟

فالجواب: وذلك لأنهم ماكانوا ينصرفون إلا قبيل الفجر في السحر وذلك لطول صلاتهم.كما صحت بذلك الآثار.

بل قد جاء من فعل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ هذا التقسيم جماعة ولم ينكر أحد ذلك. عن قيس بن طلق، قال: زارنا طلق بن علي في يوم من رمضان، وأمسى عندنا، وأفطر، ثم قام بنا الليلة، وأوتر بنا، ثم انحدر إلى مسجده، فصلى بأصحابه، حتى إذا بقي الوتر قدم رجلا، فقال: أوتر بأصحابك، فإني سمعت النبي ﷺ يقول: «لا وتران في ليلة».[1]

فهذا فعل صحابي ولا يعلم له معارض فيكون حجة على قول جمهور العلماء.

وحتى لا أطيل وأدع القوس لباريها، هاك أخي الكريم بعض أقوال العلماء الكبار في المسألة:

الإمام إسحاق بن راهويه:

قال رحمه الله: وأما الإمام إذا صلى بالقوم ترويحة أو ترويحتين ثم قام من آخر

---

(١)أخرجه الإمام أحمد (١٦٢٩٦) وأبو داود(١٤٣٩) والنسائي(١٦٧٩) وابن خزيمة (١١٠١) وغيرهم وصححه الألباني في "صحيح أبي داود" (١٢٩٣).

الليل فأرسل إلى قوم فاجتمعوا فصلى بهم بعد ما ناموا فإن ذلك جائز.اه[1]

الشيخ العلامة عبد الله أبا بطين رحمه الله:

قال: مسألة في الجواب عما أنكره بعض الناس على من صلى في العشر الأواخر من رمضان زيادة على المعتاد في العشرين الأول، وسبب إنكارها لذلك غلبة العادة، والجهل بالسنة وما عليه الصحابة والتابعون وأئمة الإسلام. فنقول: قد وردت الأحاديث عن النبي ﷺ بالترغيب في قيام رمضان، والحث عليه، وتأكيد ذلك في عشره الأخير.

إذا تبين أنه لا تحديد في عدد التراويح، وأن وقتها عند جميع العلماء من بعد سنة العشاء إلى طلوع الفجر، وأن إحياء العشر سنة مؤكدة، وأن النبي ﷺ صلاها ليالي جماعة، فكيف ينكر على من زاد في صلاة العشر الأواخر عما يفعلها أول الشهر، فيصلي في العشر أول الليل، كما يفعل في أول الشهر، أو قليل أو كثير، من غير أن يوتر، وذلك لأجل الضعيف لمن يحب الاقتصار على ذلك، ثم يزيد بعد ذلك ما يسره الله في الجماعة، ويسمى الجميع قياما وتراويح

وربما اغتر المنكر لذلك بقول كثير من الفقهاء: يستحب أن لا يزيد الإمام على ختمة، إلا أن يؤثر المأمومون الزيادة، وعللوا عدم استحباب الزيادة على ختمة بالمشقة على المأمومين، لا كون الزيادة غير مشروعة، ودل كلامهم على أنهم لو آثروا الزيادة على ختمة كان مستحبا، وذلك مصرح به في قولهم: إلا أن

(١) "مسائل الإمام أحمد وإسحاق بن راهويه للكوسج" (٨٣٩/٢)، "الجامع لعلوم الإمام أحمد" - الفقه (٤٤١/٦)(٥٣٥)

يؤثر المأمومون الزيادة.

وأما ما يجري على ألسنة العوام من تسميتهم ما يفعل أول الليل تراويح، وما يصلي بعد ذلك قياما، فهو تفريق عامي، بل الكل قيام وتراويح، وإنما سمي قيام رمضان تراويح لأنهم كانوا يستريحون بعد كل أربع ركعات من أجل أنهم كانوا يطيلون الصلاة، وسبب إنكار المنكر لذلك لمخالفته ما اعتاده من عادة أهل بلده وأكثر أهل الزمان، ولجهله بالسنة والآثار، وما عليه الصحابة والتابعون وأئمة الإسلام، وما يظنه بعض الناس من أن صلاتنا في العشر هي صلاة التعقيب الذي كرهه بعض العلماء فليس كذلك؛ لأن التعقيب هو التطوع جماعة بعد الفراغ من التراويح والوتر.

هذه عبارة جميع الفقهاء في تعريف التعقيب أنه التطوع جماعة بعد الوتر عقب التراويح، فكلامهم ظاهر في أن الصلاة جماعة قبل الوتر ليس هو التعقيب. انتهى باختصار من بحث له نفيس أنصح بالرجوع إليه[1].

فتوى اللجنة الدائمة ومنهم ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولا بأس أن يزيد في عدد الركعات في العشر الأواخر عن عددها العشرين الأول ويقسمها إلى قسمين: قسما يصليه في أول الليل ويخففه على أنه تراويح كما في العشرين الأول، وقسما يصليه في آخر الليل ويطيله على أنه تهجد، فقد كان النبي ﷺ يجتهد في العشر الأواخر ما لا يجتهد في غيرها، وكان إذا دخلت العشر شمر وشد المئزر وأحيا ليله وأيقظ أهله تحريا لليلة القدر. فالذي يقول:

(١) "الدرر السنية في الأجوبة النجدية" (٤/ ٣٦٣- ٣٧٠).

لا يزيد في آخر الشهر عما كان يصليه في أول الشهر مخالف لهدي النبي ﷺ، ومخالف لما عليه السلف الصالح من طول القيام في آخر الشهر في آخر الليل، فالواجب اتباع سنته ﷺ وسنة الخلفاء الراشدين من بعده وحث المسلمين على صلاة التراويح وصلاة القيام لا تخذيلهم عن ذلك وإلقاء الشبه التي تقلل من اهتمامهم بقيام رمضان.اه[١]

وقالت اللجنة: التهجد في رمضان عمل طيب والنبي ﷺ كان يحيي ليله في العشر الأخيرة من رمضان، ويخصها بما لا يخص غيرها من الليالي.اه[٢]

فتوى الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:

سئل: بعض الناس في المسجد الحرام يصلون القيام دون التراويح بحجة المحافظة على السنة وعدم الزيادة على إحدى عشر ركعة فما رأي فضيلتكم؟

فأجاب بقوله: الذي أرى أنه ينبغي للإنسان أن يحافظ على التراويح والقيام جميعا، فيصلي مع الإمام الأول حتى ينصرف ويصلي مع الإمام الثاني حتى ينصرف؛ لأن تعدد الأئمة في مكان واحد يجعل ذلك كأن الإمام واحد.اه[٣]

وقال: لكن لو أنَّ هذا التَّعقيبَ جاء بعد التَّراويح وقبل الوِتر، لكان القول بعدم الكراهة، وهو عمل النَّاس اليوم في العشر الأواخر من رمضان، يُصلِّي النَّاس التَّراويح في أول الليل، ثم يرجعون في آخر الليل، ويقومون

---

(١) "فتاوى اللجنة الدائمة"- المجموعة الثانية- (٦/٨١-٨٣) رقم(١٩٨٥٤).

(٢)المرجع السابق، الفتوى رقم(١٨٦٣٨).

(٣) "مجموع فتاوى ورسائل العثيمين"(١٤/١٩٠-١٩١).

يتهجَّدون.اه[١]

فتوى الشيخ العلامة صالح الفوزان حفظه الله:

قال: وأما في العشر الأواخر من رمضان، فإن المسلمين يزيدون من اجتهادهم في العبادة، اقتداء بالنبي ﷺ، وطلبا لليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، فالذين يصلون ثلاثا وعشرين ركعة في أول الشهر يقسمونها في العشر الأواخر، فيصلون عشر ركعات في أول الليل، يسمونها تراويح، ويصلون عشرا في آخر الليل، يطيلونها مع الوتر بثلاث ركعات، ويسمونها قياما، وهذا اختلاف في التسمية فقط، وإلا فكلها يجوز أن تسمى تراويح، أو تسمى قياما، وأما من كان يصلي في أول الشهر إحدى عشرة أو ثلاث عشرة ركعة فإنه يضيف إليها في العشر الأواخر عشر ركعات، يصليها في آخر الليل، ويطيلها، اغتناما لفضل العشر الأواخر، وزيادة اجتهاد في الخير، وله سلف في ذلك من الصحابة وغيرهم ممن كانوا يصلون ثلاثا وعشرين كما سبق، فيكونون جمعوا بين القولين : القول بثلاث عشرة في العشرين الأول، والقول بثلاث وعشرين في العشر الأواخر. انتهى[٢].

وقال: أما التهجد فإنه سنة أيضا، وفيه فضل عظيم وهو قيام الليل، والقيام بعد النوم خصوصا في ثلث الليل الآخر أو في ثلث الليل بعد نصفه فهذا في جوف الليل فهذا فيه فضل عظيم وثواب كبير، ومن أفضل صلاة التطوع

---

(١) "الشرح الممتع على زاد المستقنع" (٢/٤٤٧).

(٢) "إتحاف أهل الإيمان بمجالس شهر رمضان"

التهجد في الليل.اهـ[١]

وختاما: جدوا واجتهدوا وصلوا أول الليل وآخره فلاحد لعدد ركعات قيام الليل بإجماع العلماء ولامانع من تقسيم صلاة التراويح جماعة في رمضان على ما ذهب إليه جمهور الفقهاء. ووقتها واسع من بعد العشاء إلى الفجر.

ومن ألزم الناس بخلاف ذلك فقد شدد فيما خفف فيه الشرع وضيق ما وسعه السلف. والله المستعان وعليه التكلان.

فائدة: ما مناسبة ذكر كتاب الاعتكاف عقب كتاب الصيام في تصانيف الفقهاء؟

قال العلامة البكري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وذكره عقب الصوم لمناسبته له من حيث: إن المقصود من كل منهما واحد؛ وهو كف النفس عن شهواتها، ومن حيث أن الذي يبطل الصوم قد يبطل الاعتكاف، ولأنه يسن للمعتكف الصيام.اهـ[٢]

مسألة: لا قصاص على صبي ولا مجنون ونحوهما.

قال ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ولا خلاف بين أهل العلم أنه لا قصاص على صبي ولا مجنون، وكذلك كل زائل العقل بسبب يعذر فيه، مثل النائم والمغمى عليه، ونحوهما، والأصل في هذا قول النبي ﷺ: «رفع القلم عن ثلاثة، عن الصبي حتى يبلغ وعن النائم حتى يستيقظ وعن المجنون حتى يفيق».

---

(١) "مجموع فتاوى الفوزان"(٢/٤٣٤)

(٢) "إعانة الطالبين" (٢/٢٩٢).

ولأن القصاص عقوبة مغلظة، فلم تجب على الصبي وزائل العقل كالحدود، ولأنهم ليس لهم قصد صحيح فهم كالقاتل خطأ.اهـ[١]

مسألة: في الثلث الأخير من الليل أيهما أفضل؟ قراءة القرآن، أم الاستغفار، أم التهجد؟

الجواب: قيام الليل أفضل.

فيقدَّم على قراءة القرآن في ذلك الوقت لأمور، منها:

١- أن قيام الليل عبادة مؤقتة بوقت، تفوت بفواته، فالمشروع أداؤها في وقتها، بخلاف قراءة القرآن، فإنه يُقرأ في كل وقت، بالليل أوالنهار، فيمكن استداركه في وقت آخر.

٢- ومنها أيضًا: أن قيام الليل يتضمن قراءة القرآن، وزيادة أعمال أخرى، فهو أزيد في عمل الطاعة من القراءة المجردة، وما كان أكثر عملا من الطاعات، كان أعظم أجرا.

وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أيما أفضل إذا قام من الليل الصلاة أم القراءة؟ فأجاب: بل الصلاة أفضل من القراءة في غير الصلاة نص على ذلك أئمة العلماء. وقد قال: «استقيموا ولن تحصوا واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن»، لكن من حصل له نشاط وتدبر

---

(١) "المغني" (٨/٢٤٨).

وفهم للقراءة دون الصلاة فالأفضل في حقه ما كان أنفع له.اه[١]

وفي أثناء ذلك: القيام، والاستغفار، والدعاء، والتضرع إلى الله.

قال الله جلَّ وعلا- مبينا مناقب المؤمنين-: ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الذاريات: ١٧ – ١٨]. فبيَّن جلَّ وعلا أن من مناقبهم أنهم في الأسحار يستغفرون. والله أعلم.

فائدة حول إطلاق اسم الأيام البيض

حثَّنا رسولُ الله ﷺ على أن نُتبعَ شهرَ الصوم رمضانَ، بصيام ستَّة أيام من شَوَّال، وبيَّن الأجرَ العظيم الذي أعدَّه الله لصائمي تلك الأيام بقوله: «مَن صامَ رمضانَ، ثم أتبَعَهُ ستًّا من شَوَّالٍ، كانَ كصيامِ الدَّهْرِ».[٢]

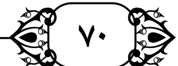
ولقد أطلقَ بعض العامَّةُ على هذه الأيام اسمَ: الأيامِ البِيْضِ، وهو خلطٌ منهم ووَهَم؛ ذلك أن الأيامَ الستةَ من شَوَّالٍ لا تسمَّى الأيامَ البِيض! وهذا كغلطهم في إطلاقهم اسمَ صلاة الأوَّابين على ركَعات يُتَنَفَّل بها بين المغرب والعشاء، مع أن النبيَّ ﷺ بيَّن لنا في أحاديثَ صريحةٍ: أن صلاةَ الضُّحى هي صلاةُ الأوَّابين.

والصواب: أن أيامَ البِيْضِ التي رغَّبَنا رسولُ الله ﷺ في صومها هي: ثلاثةُ أيام محدَّدة من كلِّ شَهر. فعن أبي ذَرٍّ الغفاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: أمَرَنا رسولُ الله ﷺ أن نصومَ من الشهر ثلاثةَ أيامِ البِيْضِ؛ ثلاثَ عشرةَ، وأربعَ عشرةَ، وخمسَ

---

(١) "مجموع الفتاوى" (٦٢/٢٣)

(٢) أخرجه مسلم (١١٦٤) من حديث أبي أيوبَ الأنصاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ



عشرةَ.(١)

وقال ﷺ:«صيام ثلاثة أيام من كل شهر صيام الدهر، وأيام البيض صبيحة ثلاث عشرة، وأربع عشرة، وخمس عشرة».(٢)

وجعلُهم البيضَ صفةً للأيام، في قولهم: الأيامُ البيضُ، غلطٌ أيضًا، والصواب: أيامُ البيضِ، والمراد: أيامُ الليالي البيضِ، وهي الأيامُ الثلاثةُ المذكورةُ في الحديث.

وسمِّيت لياليها بيضًا؛ لأن القمرَ يطلُعُ فيها من أوَّلها إلى آخرها.

قال الجَواليقيُّ: من قال: الأيامُ البيضُ، فجعل البيضَ صفةَ الأيام، فقد أخطأ.اهـ(٣)

وقال ابن الأثير: وأكثر ما تجيء الرواية الأيام البيض، والصواب أن يقال أيام البيض بالإضافة؛ لأن البيض من صفة الليالي.اهـ(٤)

وقال الطيبي: الصواب أن يقال: أيام البيض بالإضافة؛ لأن البيض من صفة

---

(١)أخرجه النسائي (٢٤٢٢)، وابن حبان (٣٦٥٦)، والبيهقي في "شعب الإيمان"(٣٥٦٥)، وحسنه الألباني في "الإرواء" (٩٤٧).

(٢)أخرجه النَّسائي(٢٤٢٠)، والبيهقي في "شعب الإيمان"(٣٥٧٠)، وأبو يعلى (٧٥٠٤) من حديث جَرير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وحسن الألباني كما في "صحيح الترغيب والترهيب" (٦٠٣/١)

(٣)ذكره الحافظ في "الفتح"(٢٢٦/٤)وقال: وفيه نظر لأن اليوم الكامل هو النهار بليلته وليس في الشهر يوم أبيض كله إلا هذه الأيام لأن ليلها أبيض ونهارها أبيض، فصح قول الأيام البيض على الوصف.اهـ

(٤) "النهاية" (١٧٣/١)



الليالي.اه[١]

وقال النووي: وقع في كثير من كتب الفقه وغيرها: «الأيام البيض» بالألف واللام؛ وهذا خطأ عند أهل العربية معدود في لحن العوام؛ لأن الأيام كلَّها بيض، وإنما صوابه: «أيام البيض»، أي: أيام الليالي البيض.اه[٢]

وقال الزَّبيدي: «أيامُ البِيضِ» بالإضافة؛ لأن البِيضَ من صفة الليالي، أي: أيامُ الليالي البيض؛ وهي: الثالث عشر إلى الخامس عشر. وإنما سُمِّيت لياليها بيضًا: لأن القمرَ يطلُعُ فيها من أوَّلها إلى آخرها ... ولا تقُل: «الأيام البيض»؛ قاله ابن بَرِّيٍّ وابن الجواليقي».اه[٣]

لماذا يرتب الفقهاء -غالبا- الكتب الفقهية بهذا الترتيب

العبادات، ثم المعاملات، ثم النكاح، ثم الجنايات والمخاصمات والحدود؟

الجــواب: لأن فقه العبادات المقصود منه التحصيل الأخروي وهو أهم ما خلق له الإنسان. يتبعه فقه المعاملات لأن المقصود منه التحصيل الدنيوي ليكون سببًا للتحصيل الأخروي. ويثلث بفقه النكاح لأن شهوته متأخرة عن شهوة البطن. ورابعها الجنايات والمخاصمات لأن ذلك غالبا إنما يكون بعد شهوتي البطن والفرج.[٤]

---

(١) "شرح المشكاة" (١٦١٦/٥)

(٢) "تحرير ألفاظ التنبيه" (ص١٢٩)

(٣) "تاج العَروس" (٢٦٦/١٨)

(٤) باختصار من "النجم الوهاج في شرح المنهاج" (٧/٤)

لماذا سميت الهدية بهذا الاسم؟

قال أبوالبقاء الدميري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والهدية مشتقة من الهداية؛ لأنه اهتدى بها إلى الخير وإلى تآلف القلوب.اهـ[١]

الجماعة لصلاة التطوع

قال السرخسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والأصل في التطوعات ترك الجماعة فيها ما خلا قيام رمضان لاتفاق الصحابة عليه، وكسوف الشمس لورود الأثر به، ألا ترى أن ما يؤدى بالجماعة من الصلاة يؤذن لها ويقام، ولا يؤذن للتطوعات ولا يقام، فدل أنها لا تؤدى بالجماعة.اهـ[٢]

تذكير الأصحاب ببعض ما ورد في عشر ذي الحجة من الأعمال والثواب

إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ أما بعد:

فمن فضل الله تعالى على عباده أن جعل لهم مواسم للطاعات، يستكثرون فيها

(١) "النجم الوهاج في شرح المنهاج" (٥/٥٣٥)

(٢) "المبسوط" (٢/٧٦)

من العمل الصالح، ويتنافسون فيها فيما يقربهم إلى ربهم، والسعيد من اغتنم تلك المواسم، ومن هذه المواسم الفاضلة عشر ذي الحجة، أفضل أيام الدنيا.
وفي هذه الرسالة أحببنا بيان فضلها وبعض أحكامها، وفضل الأعمال المستحبة فيها، من خلال النقاط التالية:

من فضائل عشر ذي الحجة:

١- أقسم الله تعالى بها: فقال:﴿وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر:١- ٢].
قال ابن عباس: هي ليالي العشر الأول من ذي الحجة. أخرجه الإمام الطبري في "تفسيره"(١٦٨/٣٠)، وهذا قول جمهور العلماء. وهذا وحده يكفيها شرفا وفضلا إذ العظيم لا يقسم إلا بعظيم.

٢- أنها الأيام المعلومات التي شرع الله فيها ذكره على ما رزقهم من بهيمة الأنعام: قال تعالى: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾[الحج: ٢٨] قال الحافظ ابن كثير في "تفسيره"[(١)]: عن ابن عباس: الأيام المعلومات: أيام العشر، وعلقه البخاري عنه بصيغة الجزم به. ويروى مثله عن أبي موسى الأشعري، ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، والضحاك، وعطاء الخراساني، وإبراهيم النخعي. وهو مذهب الشافعي، والمشهور عن أحمد بن حنبل.اهـ

٣- هي أفضل أيام الدنيا، وأعظمها عند الله تعالى:
عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أيام أفضل عند الله من

---

(١)(٤١٥/٥)

أيام عشر ذي الحجة» . قال: فقال رجل: يا رسول الله هي أفضل أم عدتهن جهادا في سبيل الله؟ قال: «هي أفضل من عدتهن جهادا في سبيل الله؛ إلا عفيرا يعفر وجهه في التراب، وما من يوم أفضل عند الله من يوم عرفة، ينزل اللهُ إلى السماء الدنيا فيباهي بأهل الأرض أهل السماء فيقول: انظروا إلى عبادي شعثا غبرا ضاحين جاءوا من كل فج عميق ولم يروا رحمتي ولم يروا عذابي فلم أر يوما أكثر عتيقا من النار من يوم عرفة»[١].

وعن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «ما منْ أيامٍ أعظم عند الله ولا أحَبُّ إليه العمل فيهنَّ منْ هذه الأيام العَشْر، فأكثروا فيهنَّ من التهليل والتكبير والتحميد»[٢].

قال الحافظ ابن حجر: والذي يظهر أن السبب في امتياز عشر ذي الحجة لمكان اجتماع أمهات العبادة فيه، وهي الصلاة، والصيام، والصدقة، والحج، ولا يتأتى ذلك في غيرها.اهـ[٣].

٤- العمل الصالح فيها أحب إلى الله من جهاد النفل في سبيله:

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ أنه قال: «ما العمل في أيام أفضل منها في هذه؟» قالوا: ولا الجهاد؟ قال: «ولا الجهاد، إلا رجل خرج يخاطر بنفسه

---

(١) أخرجه أبو يعلى الموصلي(٢٠٩٠)، و ابن حبان(٣٨٥٣)، وقال الشيخ الألباني في "صحيح الترغيب والترهيب"(١٥/٢): صحيح لغيره.

(٢) أخرجه الإمام أحمد(٥٤٤٦)، والطبراني في "الكبير" (١١١١٦). وهو في "صحيح الترغيب والترهيب" (١٥/٢).

(٣) "فتح الباري"(٤٦٠/٢).

وماله، فلم يرجع بشيء»[١].

٥- أن فيها يوم عرفة: ويوم عرفة يوم مغفرة الذنوب، ويوم العتق من النيران، ولو لم يكن في عشر ذي الحجة إلا يوم عرفة لكفاها ذلك فضلا، ويوم عرفة هو اليوم المشهود الذي أقسم الله به في كتابه الكريم فقال:﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ [البروج:٣]

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «اليوم الموعود يوم القيامة، واليوم المشهود يوم عرفة، والشاهد يوم الجمعة، وما طلعت الشمس ولا غربت على يوم أفضل منه، فيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يدعو الله بخير إلا استجاب الله له، ولا يستعيذ من شيء إلا أعاذه الله منه»[٢].

٦- فيها يوم النحر وهو أفضل الأيام عند الله:

عن عبد الله بن قرط قال: قال رسول الله ﷺ:«أعظم الأيام عند الله يوم النحر، ثم يوم القر[٣]»[٤].

٧- أن الله أكمل لنبيه ﷺ دين الإسلام في يوم من أيامها وهو يوم عرفة حين نزل على النبي ﷺ قوله تعالى:﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينا﴾.[المائدة:٣].

---

(١)رواه البخاري(٩٦٩).

(٢)أخرجه الترمذي (٣٣٣٩) وهو صحيح كما في "الصحيحة"(١٥٠٢).

(٣)يوم القَرِّ هو يوم حادي عشر من ذي الحجة لأن الناس يقرون فيه بمنى أي: يقيمون.

(٤)أخرجه الإمام أحمد(١٩٠٧٥)، وأبو داود(١٧٦٥)، وهو صحيح كما في "صحيح أبي داود"(١٥٤٩).

عن طارق بن شهاب، عن عمر بن الخطاب، أن رجلا، من اليهود قال له: يا أمير المؤمنين، آية في كتابكم تقرءونها، لو علينا معشر اليهود نزلت، لاتخذنا ذلك اليوم عيدا. قال: أي آية؟ قال:﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينا﴾، قال عمر: «قد عرفنا ذلك اليوم، والمكان الذي نزلت فيه على النبي ﷺ، وهو قائم بعرفة يوم جمعة»[١].

بأي شيء نستقبل عشر ذي الحجة؟

١- التوبة الصادقة: فعلى المسلم أن يستقبل مواسم الطاعات عامة بالتوبة الصادقة والعزم الأكيد على الرجوع إلى الله، ففي التوبة فلاح للعبد في الدنيا والآخرة، يقول تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:٣١].

٢- العزم الجاد على اغتنام هذه الأيام: فينبغي على المسلم أن يحرص حرصا شديدا على عمارة هذه الأيام بالأعمال والأقوال الصالحة، ومن عزم على شيء أعانه الله وهيأ له الأسباب التي تعينه على إكمال العمل، ومن صدق الله صدقه الله، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]

٣- البعد عن المعاصي: فكما أن الطاعات أسباب للقرب من الله تعالى، فالمعاصي أسباب للبعد عن الله والطرد من رحمته، وقد يحرم الإنسان رحمة الله

---

(١)متفق عليه [البخاري (٤٥) مسلم(٣٠١٧)].

بسبب ذنب يرتكبه؛ فإن كنت تطمع في مغفرة الذنوب والعتق من النار فاحذر الوقوع في المعاصي في هذه الأيام وفي غيرها؟ ومن عرف ما يطلب هان عليه كل ما يبذل.

فاحرص أخي المسلم على اغتنام هذه الأيام، وأحسن استقبالها قبل أن تفوتك فتندم.

ما يستحب فعله في هذه الأيام:

أيام العشر هي أيام ذكر وعبادة لله سبحانه وتعالى، فيستحب الاجتهاد والإكثار في هذه الأيام من العبادة والتقرب إلى الله بالأعمال الصالحة، لما فيها من مضاعفة الأجور. قال الحافظ ابن رجب: وقد دل حديث ابن عباس على مضاعفة جميع الأعمال الصالحة في العشر من غير استثناء شيء منها.اهـ[١]

وقال ابن قدامة: وأيام عشر ذي الحجة كلها شريفة مفضلة يضاعف العمل فيها، ويستحب الاجتهاد في العبادة. اهـ[٢]

والعبادات التي تشرع في هذه الأيام تنقسم إلى قسمين: عبادات لا تشرع إلا في هذه الأيام، وعبادات مشروعة في هذه الأيام وفي غيرها.

فأما عبادات القسم الأول، فمنها:

١- **التكبير والتهليل والتحميد:** لما ورد في حديث ابن عمر السابق: «فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير والتحميد». وقال الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في

---

(١) "لطائف المعارف" (ص: ٢٦٢)

(٢) "المغني" (٥٨/٣)

"صحيحه"(٢/٢٠): قال ابن عباس: واذكروا الله في أيام معلومات: أيام العشر، والأيام المعدودات: أيام التشريق، وكان ابن عمر، وأبو هريرة: «يخرجان إلى السوق في أيام العشر يكبران، ويكبر الناس بتكبيرهما».

وقال أيضا(٢/٢٠): وكان عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يكبر في قبته بمنى فيسمعه أهل المسجد، فيكبرون ويكبر أهل الأسواق حتى ترتج منى تكبيرا. وكان ابن عمر يكبر بمنى تلك الأيام، وخلف الصلوات وعلى فراشه وفي فسطاطه ومجلسه، وممشاه تلك الأيام جميعا، وكانت ميمونة: تكبر يوم النحر، وكن النساء يكبرن خلف أبان بن عثمان، وعمر بن عبد العزيز ليالي التشريق مع الرجال في المسجد.اهـ

والتكبير في أيام العشر مطلق في الأسواق وفي كل حال ومكان، ومقيد ويكون أدبار الصلوات الخمس.

فأما المطلق يكون من بداية دخول العشر إلى آخر أيام التشريق، وأما المقيد بأدبار الصلوات فيكون من فجر يوم عرفة إلى آخر أيام التشريق.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ: أصح الأقوال في التكبير الذي عليه جمهور السلف والفقهاء من الصحابة والأئمة: أن يكبر من فجر يوم عرفة إلى آخر أيام التشريق عقب كل صلاة ويشرع لكل أحد أن يجهر بالتكبير عند الخروج إلى العيد. وهذا باتفاق الأئمة الأربعة.اهـ[١]

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُٱللَّهُ في كتابه "فتح الباري"(٦/١٢٤):

---

(١) "مجموع الفتاوى" (٢٤/٢٢٠)

وقد حكى الإمام أحمد هذا القول إجماعا من الصحابة، حكاه عن عمر وعلي وابن مسعود وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ .اهـ

وقال أيضا: والاجماع الذي ذكره أحمد، إنما هو في ابتداء التكبير يوم عرفة من صلاة الصبح أما آخر وقته، فقد اختلف فيه الصحابة الذين سماهم.اهـ

وقال السرخسي رَحِمَهُ اللَّهُ في "المبسوط"(٤٢/٢): اتفق المشايخ من الصحابة: عمر وعلي وابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أنه يبدأ بالتكبير من صلاته الغداة من يوم عرفة.اهـ

وفي "فتوى اللجنة الدائمة" (١٠٧٧٧): س: أسمع بعض الناس في أيام التشريق يكبرون بعد كل صلاة حتى عصر اليوم الثالث، هل هم على صواب أم لا؟

ج: يشرع في عيد الأضحى التكبير المطلق والمقيد، فالتكبير المطلق في جميع الأوقات من أول دخول شهر ذي الحجة إلى آخر أيام التشريق. وأما التكبير المقيد فيكون في أدبار الصلوات المفروضة من صلاة الصبح يوم عرفة إلى صلاة العصر من آخر أيام التشريق، وقد دل على مشروعية ذلك الإجماع، وفعل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. وبالله التوفيق وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

من صيغ التكبير الواردة عن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

١- الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد.

عن إبراهيم قال: كانوا يكبرون يوم عرفة وأحدهم مستقبل القبلة في دبر الصلاة: «الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر الله أكبر ولله الحمد»(١).

وعَنِ الأسود، قَالَ: كان عبد الله يُكبر من صلاة الفجر يوم عرفة، إلى صلاة العصر من النّحر يقول: « الله أكبر الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر الله أكبر ولله الحمد».(٢)

٢- الله أكبر. الله أكبر. الله أكبر كبيرا.

عن أبي عثمان النهدي، قال: كان سلمان يعلمنا التكبير يقول: كبروا: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر كبيرا.(٣)

٣- الله أكبر كبيرًا، الله أكبر كبيرًا، الله أكبر وأجل، الله أكبر ولله الحمد.

عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّهُ كَانَ يُكَبِّرُ مِنْ صَلَاةِ الْفَجْرِ يَوْمَ عَرَفَةَ، إِلَى آخِرِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ، لَا يُكَبِّرُ فِي الْمَغْرِبِ، يَقُولُ: «اللَّهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا، اللَّهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا، اللَّهُ أَكْبَرُ وَأَجَلُّ، اللَّهُ أَكْبَرُ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ»(٤).

فينبغي للمسلم في هذه العشر أن يكثر من التكبير وأن يعمل بهذه السنة العظيمة التي تكاد تنسى في هذا الزمان، كما ينبغي التقيد بهذه الصيغ الواردة عن الصحابة وأن لا يزاد عليها ما أحدث في هذا الزمان من زيادات لم ترد

---

(١)أخرجه الإمام أبو بكر بن أبي شيبة في "مصنفه" (٥٦٥٠)

(٢)أخرجه ابن أبي شيبة(١/٤٨٨) رقم(٥٦٣٣).

(٣)أخرجه البيهقي في "السنن الكبرى"(٣/٤٤١) رقم(٦٢٨٢) وفي "فضائل الأوقات"(ص: ٤٢٤)، وصحح إسناده الحافظ في "الفتح"(٢/٤٦٢).

(٤)أخرجه ابن أبي شيبة (١ /٤٨٩)رقم(٥٦٤٦)

عن الصحابة الكرام والسلف الصالح، «وكل خير في اتباع من سلف، وكل شر في ابتداع من خلف».

قال العلامة ابن باز في "مجموع الفتاوى" (٢١/١٣): وصفة التكبير المشروع: أن كل مسلم يكبر لنفسه منفردا ويرفع صوته به حتى يسمعه الناس فيقتدوا به ويذكرهم به، أما التكبير الجماعي المبتدع فهو أن يرفع جماعة - اثنان فأكثر - الصوت بالتكبير جميعا يبدؤونه جميعا وينهونه جميعا بصوت واحد وبصفة خاصة، وهذا العمل لا أصل له ولا دليل عليه ، فهو بدعة في صفة التكبير ما أنزل الله بها من سلطان، فمن أنكر التكبير بهذه الصفة فهو محق؛ وذلك لقوله ﷺ: «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » أي مردود غير مشروع.

وفي "فتوى اللجنة الدائمة" رقم (٢٠١٨٩): س: مازال العلماء عندنا يدعون سنية التكبير الجماعي بقولهم: إن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يكبر في خيمته في منى، ويكبر الناس بتكبيره، هل صحيح أو كذب أو سنة أو بدعة ؟

ج: التكبير الجماعي بدعة ؛ لأنه لا دليل عليه، وقد قال النبي ﷺ: «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد»، وما فعله عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليس فيه دليل على التكبير الجماعي، وإنما فيه أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يكبر وحده فإذا سمعه الناس كبروا، كل يكبر وحده، وليس فيه أنهم يكبرون تكبيرا جماعيا. وبالله التوفيق، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم .

٢- **أداء مناسك الحج والعمرة**: وهما من أفضل ما يعمل في عشر ذي الحجة، والأدلة في بيان فضل ذلك كثيرة معلومة، ومن يسر الله له حج بيته أو أداء

العمرة على الوجه المطلوب فجزاؤه الجنة؛ لقول النبي ﷺ: «الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا، وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ».(١)

٣- ذبح الأضاحي: وهي سنة أبينا إبراهيم وقد أُمرنا باتباع سنته عليه الصلاة والسلام، قال الله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٧]، وعَنْ أَنَسٍ، قَالَ: «ضَحَّى النَّبِيُّ ﷺ بِكَبْشَيْنِ أَمْلَحَيْنِ أَقْرَنَيْنِ، ذَبَحَهُمَا بِيَدِهِ، وَسَمَّى وَكَبَّرَ، وَوَضَعَ رِجْلَهُ عَلَى صِفَاحِهِمَا».(٢)

ثانيا: عبادات القسم الثاني

وأما عبادات القسم الثاني: وهو العبادات المشروعة في هذه الأيام وفي غيرها، فهي كثيرة:

أولهاوأولاها: المحافظة على الفرائض والمقصود: أداؤها في أوقاتها وإحسانها بإتمامها على الصفة الشرعية الثابتة عن رسول الله ﷺ، وهي أول ما ينشغل به العبد في حياته كلها؛ ثم المحافظة على النوافل، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني

---

(١)متفق عليه [خ(١٧٧٣) م(١٣٤٩)] عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢)متفق عليه [خ(٥٥٦٥)م(١٩٦٦)].

لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته»[١].

ثانيها: الإكثار من الصلاة، فإنها من أفضل القربات.

عن معدان بن أبي طلحة اليعمري، قال: لقيت ثوبان مولى رسول الله ﷺ فقلت: أخبرني بعمل أعمله يدخلني الله به الجنة؟ أو قال: قلت: بأحب الأعمال إلى الله، فسكت. ثم سألته فسكت. ثم سألته الثالثة فقال: سألت عن ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «عليك بكثرة السجود لله، فإنك لا تسجد لله سجدة، إلا رفعك الله بها درجة، وحط عنك بها خطيئة». رواه مسلم(٤٨٨).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الصلاة خير موضوع، فمن استطاع أن يستكثر فليستكثر». أخرجه الطبراني في "المعجم الأوسط"(٨٤/١)، وهو في "صحيح الترغيب"(٣٨٦)

ثالثها: **الصيام**، لعموم حديث النبي ﷺ: «ما من أيام العمل الصالح فيهن...» الحديث، والصوم داخل من ضمن العمل الصالح دخولا أوليا؛ إذ أنه من أفضل الأعمال وأجلها عند الله .

قال ابن مفلح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ويستحب صوم عشر ذي الحجة، وآكدها التاسع وهو يوم عرفة.اهـ[٢]

وقال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: باب صوم عشر ذي الحجة... فليس في صوم هذه التسعة

---

(١)رواه البخاري(٦٥٠٢)

(٢) "الفروع"(٨١/٣)

كراهة بل هي مستحبة استحبابًا شديدًا لاسيما التاسع منها وهو يوم عرفة.اهـ[١]

وأما ما أخرجه مسلم عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: «ما رأيت رسول الله ﷺ صائما في العشر قط»، وفي رواية: «لم يصم العشر قط».

قال النووي: فيتأول قولها:«لم يصم العشر»: أنه لم يصمه لعارض مرض أو سفر أو غيرهما، أو أنها لم تره صائما فيه، ولا يلزم من ذلك عدم صيامه في نفس الأمر.اهـ[٢]

وأيضا: فإن النبي ﷺ كان يترك العمل وهو يحبه خشية أن يفرض على أمته، ولعل هذا منه.[٣]

ومن أعظم الصيام في هذه الأيام صيام يوم عرفة لغير الحاج: فقد حث عليه الشارع الحكيم، ورتب عليه الأجر والثواب العظيم، فعن أبي قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سُئِل رسول الله ﷺ عن صوم يوم عرفة؟ قال:«يكفر السنة الماضية والباقية»[٤].

وأما الحاج فيفطر ولا يصوم، عن أم الفضل بنت الحارث، أن ناسا تماروا[٥] عندها يوم عرفة في صوم النبي ﷺ، فقال بعضهم: هو صائم، وقال بعضهم:

---

(١) "شرح مسلم"(٨/٧١-٧٢)

(٢) "شرح مسلم" (٨/٧١-٧٢).

(٣)انظر "الفتح"(٢/٥٣٤)

(٤)أخرجه مسلم برقم (١١٦٢).

(٥)تماروا: أي شكوا وتباحثوا.

ليس بصائم، «فأرسلت إليه بقدح لبن وهو واقف على بعيره، فشربه»[١].

قال ابن قدامة المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ولأن الصوم يضعفه ويمنعه الدعاء في هذا اليوم المعظم الذي يستجاب فيه الدعاء في ذلك الموقف الشريف الذي يقصد من كل فج عميق رجاء فضل الله فيه وإجابة دعائه به فكان تركه أفضل.اهـ[٢]

رابعا: **الصدقة**، وهي من جملة الأعمال الصالحة التي يستحب للمسلم الإكثار منها في هذه الأيام، وقد حث الله عليها فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[البقرة:٢٥٤] وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ»[٣].

خامسا: **الإكثار من قراءة القرآن وذكر الله والتضرع والدعاء وخاصة يوم عرفة**، عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «خير الدعاء دعاء يوم عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير».[٤]

سادسا: **التبكير إلى صلاة العيد**، على المسلم في يوم العيد أن يذهب إلى مصلى العيد مُبكرا ليُدرك صلاة العيد جماعةً مع المسلمين، رافعا صوته بالتكبير

(١)متفق عليه، [خ(١٥٧٥) م(١١٢٣)]

(٢) "المغني"(١١٢/٣).

(٣)رواه مسلم (٢٥٨٨)

(٤)رواه الترمذي(٣٥٨٥)، وهو في "صحيح الترغيب والترهيب"(١٠٦/٢) رقم(١٥٣٦)



والتهليل معظما لشعائر الله تعالى في ذلك اليوم، قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوب﴾ [الحج:٣٢]

بعض أحكام الأضاحي والعيد

١- الأضاحي: اسم لما يذبح من بهيمة الأنعام يوم النحر وأيام التشريق؛ تقربا إلى الله تعالى.

٢- وهي سنة مؤكدة؛ لحديث أُمِّ سَلَمَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا دَخَلَتِ الْعَشْرُ، وَأَرَادَ أَحَدُكُمْ أَنْ يُضَحِّيَ، فَلَا يَمَسَّ مِنْ شَعَرِهِ وَبَشَرِهِ شَيْئًا»[1].

٣- وتكون من بهيمة الأنعام فقط؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ [الحج:٣٤]. وبهيمة الأنعام هي: الإبل والبقر والغنم من ضأن ومعز.

٤- تجزئ البدنة عن عشرة، والبقرة عن سبعة، والشاة عن رجل واحد.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَحَضَرَ النَّحْرُ، فَاشْتَرَكْنَا فِي الْبَعِيرِ عَنْ عَشْرَةٍ وَالْبَقَرَةِ عَنْ سَبْعَةٍ»[2].

٥- أهل البيت الواحد تجزئ عنهم أضحية واحدة: عَن عَطَاء بْنِ يَسَارٍ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا أَيُّوبَ الأَنْصَارِيَّ: كَيْفَ كَانَتِ الضَّحَايَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «كَانَ الرَّجُلُ يُضَحِّي بِالشَّاةِ عَنْهُ وَعَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، فَيَأْكُلُونَ وَيُطْعِمُونَ حَتَّى

---

(١)رواه مسلم(١٩٧٧)

(٢)رواه الترمذي(١٥٠١)، والنسائي(٤٣٩٢)، وصححه شيخنا الوادعي في "الصحيح المسند"(٤٧٦/١)، والألباني في "صحيح ابن ماجه"(٢٥٣٦).

تَبَاهَى النَّاسُ، فَصَارَتْ كَمَا تَرَى»(١).

٦- العيوب التي إن وجدت في الأضحية صارت غير مجزئة.

عن سليمان بن عبد الرحمن، قال: سمعت عبيد بن فيروز، مولى بني شيبان أنه سأل البراء عن الأضاحي، ما نهى عنه رسول الله ﷺ، وما كره فقال: قام فينا رسول الله ﷺ، ويدي أقصر من يده فقال: «أربع لا تجزئ: العوراء البين عورها، والمريضة البين مرضها، والعرجاء البين ظلعها، والكسير التي لا تنقي». قال: قلت: فإني أكره أن يكون في القرن نقص أو قال: في الأذن نقص، أو في السن نقص، قال: «ما كرهت، فدعه، ولا تحرمه على أحد»(٢).

والعجفاء: أي الهزيلة الضعيفة، ويلحق بذلك العمياء، قياسا على العوراء وكذا مقطوعة الرجل، والزمنى- وهي العاجزة عن المشي لعاهة وليس لسمن- قياسًا على العرجاء، وكذلك الثولاء: وهي التي تستدير في المرعى ولا ترعى إلا قليلا، فقد قال النووي في "المجموع"(٤٠١/٨): فلا يجزئ بالاتفاق. اهـ

٧- السن المعتبر في الأضحية؟

اتفق العلماء على أنه لا يجوز من الإبل والبقر والمعز دون الثني، فالسن المعتبر لإجزاء الإبل خمس سنين، والبقر سنتان، والمعز سنة، والضأن ستة أشهر، لما رواه مسلم(١٩٦٣) عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تَذْبَحُوا إِلَّا مُسِنَّةً،

---

(١)رواه الترمذي(١٥٠٥)، وابن ماجه(٣١٤٧)، وهو صحيح كما في "إرواء الغليل" للإمام الألباني(٤ /٣٥٥)

(٢)أخرجه أحمد(١٨٥١٠)، والنسائي (٤٣٦٩)، وصححه الألباني في "إرواء الغليل" (١١٤٨)

إِلَّا أَنْ يَعْسُرَ عَلَيْكُمْ، فَتَذْبَحُوا جَذَعَةً مِنَ الضَّأْنِ».

٨- وقت الأضحية:

يبدأ بعد صلاة العيد؛ وينتهي آخر أيام التشريق، وهي ثلاثة أيام بعد يوم العيد، ويدل على ذلك أدلة كثيرة منها ما جاء عن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ ذَبَحَ قَبْلَ الصَّلَاةِ، فَلْيَذْبَحْ شَاةً مَكَانَهَا، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ ذَبَحَ، فَلْيَذْبَحْ عَلَى اسْمِ اللهِ».[١]

وعَنْ نُبَيْشَةَ الْهُذَلِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَيَّامُ التَّشْرِيقِ أَيَّامُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ»[٢].

٩- ويستحب أن يذبحها بنفسه.

عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: «ضَحَّى النَّبِيُّ ﷺ بِكَبْشَيْنِ أَمْلَحَيْنِ أَقْرَنَيْنِ، ذَبَحَهُمَا بِيَدِهِ، وَسَمَّى وَكَبَّرَ، وَوَضَعَ رِجْلَهُ عَلَى صِفَاحِهِمَا». رواه البخاري (٥٥٦٥)

١٠- ماذا يقول إذا أراد أن يذبح أضحيته؟

عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَمَرَ بِكَبْشٍ أَقْرَنَ فَأَضْجَعَهُ، ثُمَّ ذَبَحَهُ، ثُمَّ قَالَ: «بِاسْمِ اللهِ، اللهُمَّ تَقَبَّلْ مِنْ مُحَمَّدٍ، وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَمِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ، ثُمَّ ضَحَّى بِهِ». رواه مسلم (١٩٦٧)

١١- هل يعطي الجزار منها شيئا؟

إن كان مقابل الذبح فلا يجوز؛ عَنْ عَلِيٍّ، قَالَ: «أَمَرَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ أَقُومَ

---

(١)رواه البخاري(٥٥٠٠) ومسلم(١٩٦٠) واللفظ له.

(٢)رواه مسلم (١١٤١)

عَلَى بُدْنِهِ، وَأَنْ أَتَصَدَّقَ بِلَحْمِهَا وَجُلُودِهَا وَأَجِلَّتِهَا، وَأَنْ لَا أُعْطِيَ الْجَزَّارَ مِنْهَا»، قَالَ: «نَحْنُ نُعْطِيهِ مِنْ عِنْدِنَا». رواه بهذا اللفظ مسلم (١٣١٧)

وإن كان محتاجا وأعطي من غير أجرة الذبح فلا بأس.

١٢- ويستحب للمضحي أن يأكل من أضحيته ويهدي للأقارب ويتصدق منها على الفقراء. قال تعالى: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦)﴾ [الحج: ٣٦، ٣٧]

القانع: هو الفقير الذي لا يسأل تقنعا وتعففا، والمعتر: هو الفقير الذي يسأل.

وعن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أهل المدينة، لا تأكلوا لحوم الأضاحي فوق ثلاث» فشكوا إلى رسول الله ﷺ أن لهم عيالا، وحشما، وخدما، فقال: «كلوا، وأطعموا، واحبسوا»، أو «ادخروا». رواه مسلم (١٩٧٣)

١٣- ماذا على من أراد أن يضحي؟

أن لا يأخذ شيئا من شعره ولا أظفاره ولا بَشَرِه، عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا دَخَلَتِ الْعَشْرُ، وَأَرَادَ أَحَدُكُمْ أَنْ يُضَحِّيَ، فَلَا يَمَسَّ مِنْ شَعَرِهِ وَبَشَرِهِ شَيْئًا». رواه مسلم (١٩٧٧)

وهذا النهي خاص بمن سيضحي فقط، وأما من في البيت، أو وكيل المضحي فلا يلزمهم شيئا؛ لأن النبي ﷺ كان يضحي عنه وعن آل محمد ولم ينقل أنه كان ينهاهم عن ذلك.

١٤- وإذا أخذ من يريد الأضحية شيئا من شعره أو ظفره أو بشرته فعليه أن

يتوب إلى الله تعالى ولا يعود، ولا كفارة عليه، ولا يمنعه ذلك عن الأضحية كما يظن بعض الناس. وإذا أخذ شيئا من ذلك ناسيا أو جاهلا أو سقط الشعر بلا قصد فلا إثم عليه، وإن احتاج إلى أخذه فله أخذه ولا شيء عليه، مثل أن ينكسر ظفره فيؤذيه فيقصه، أو ينزل الشعر في عينيه فيزيله، أو يحتاج إلى قصه لمداواة جرح ونحوه.

بعض أحكام وآداب عيد الأضحى المبارك

هذه بعض الأمور التي يستحب فعلها أو قولها في ليلة عيد الأضحى المبارك ويوم النحر وأيام التشريق الثلاثة، وقد أوجزناها لك في نقاط هي:

١- التكبير: يشرع التكبير من فجر يوم عرفة إلى عصر آخر أيام التشريق وهو الثالث عشر من شهر ذي الحجة، يجهر الرجال به في المساجد والأسواق والبيوت وأدبار الصلوات، إعلانا بتعظيم الله وإظهارا لعبادته وشكره.

٢- ذبح الأضحية.

٣- الاغتسال والتطيب للرجال، ولبس أحسن الثياب بدون إسراف ولا إسبال ولا حلق لحية فهذا حرام، أما المرأة فيشرع لها الخروج إلى مصلى العيد بدون تبرج ولا تطيب.

٤- الأكل من الأضحية: عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَا يَغْدُو يَوْمَ الْفِطْرِ حَتَّى يَأْكُلَ، وَلَا يَأْكُلُ يَوْمَ الْأَضْحَى حَتَّى يَرْجِعَ فَيَأْكُلَ مِنْ أُضْحِيَّتِهِ. رواه أحمد (٢٢٩٨٤)

٥- الذهاب إلى مصلى العيد ماشيًا إن تيسر: فعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «كَانَ

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَخْرُجُ إِلَى الْعِيدِ مَاشِيًا، وَيَرْجِعُ مَاشِيًا». رواه ابن ماجه (١٢٩٥) وهو في "صحيح الجامع"(٤٩٣٢)

والسنة الصلاة في مصلى العيد إلا إذا كان هناك عذر فيصلى في المسجد لفعل الرسول ﷺ.

٦- التهنئة بالعيد: لثبوت ذلك عن صحابة رسول الله ﷺ.[1]

من المخالفات التي تقع في عيد الأضحى

١- التهاون بصلاة العيد وعدم الخروج إليها، وهي على القول الصحيح واجبة، أمرت بها النساء فكيف بالرجال؟!

عن أم عطية، قالت: أمرنا رسول الله ﷺ أن نخرجهن في الفطر والأضحى، العواتق، والحيض، وذوات الخدور، فأما الحيض فيعتزلن الصلاة، ويشهدن الخير، ودعوة المسلمين، قلت: يا رسول الله إحدانا لا يكون لها جلباب، قال: «لتلبسها أختها من جلبابها»[2].

٢- الأكل قبل صلاة العيد: وهذا خلاف الأولى، فالسنة في الأضحى ألا يفطر إلا من أضحيته، كما سبق ذكره.

٣- عدم تأدية صلاة العيد في المصلى، إذ أن هذا هو السنة وقد ترك النبي ﷺ مسجده وخرج إلى المصلى للعيدين، وخير الهدي هديه ﷺ

(١)انظر: "تمام المنة" للألباني(ص: ٣٥٤)

(٢)متفق عليه [خ(٣٢٤)، م(٨٩٠)]

٤- ترك سماع الخطبة بدون سبب، عن أبي واقد الليثي، أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد والناس معه إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد، قال: فوقفا على رسول الله ﷺ، فأما أحدهما: فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر: فجلس خلفهم، وأما الثالث: فأدبر ذاهبا، فلما فرغ رسول الله ﷺ قال: «ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه»[١]. فيخشى على فاعل ذلك أن يكون مثل هذا الثالث الذي أعرض فأعرض الله عنه.

٥- تخصيص زيارة المقبرة للسلام: يسارع بعض الناس إلى زيارة المقابر يعتقدون أنهم يعايدون الموتى، وهذا من البدع المحدثة في الإسلام؛ ولم يكن يفعله أصحاب رسول الله ﷺ، وهم أسبق الناس إلى كل خير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وقد قال الرسول الله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد». متفق عليه عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

٦- التكبير الجماعي بصوت واحد، قال العلامة ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: أما التكبير الجماعي فهو غير مشروع، بدعة، كونهم يتكلمون بصوت واحد هذا بدعة وغير مشروع.اهـ[٢]

٧- جعل أيام العيد أيام معاصي ولهو باطل: كسماع الأغاني، ومشاهدة الأفلام،

---

(١) متفق عليه [خ(٦٦)م (٢١٧٦)]

(٢) "فتاوى نور على الدرب"(٣٥٥/١٣)

واختلاط الرجال بالنساء اللاتي لسن من المحارم ومصافحتهن، وغير ذلك من المنكرات، والإسراف والتبذير وتضييع العمر فيما لا فائدة فيه.

وختامًا: احرص أخي المسلم على أعمال البر والخير في هذا الموسم العظيم.

نسأل الله أن يوفقنا لما يحب ويرضى، وأن يفقهنا في ديننا، وأن يجعلنا ممن عَمِلَ في هذه الأيام وجميع الأيام عملا صالحا متقبلا خالصا لوجهه الكريم.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

مسائل في يوم عاشوراء

الأولى: استحباب صيامه: يستحب صيام يوم عاشوراء وهو اليوم العاشر من شهر الله المحرم ومما ورد في فضله:

عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: «ما رأيت النبي ﷺ يتحرى صيام يوم فضَّله على غيره إلا هذا اليوم، يوم عاشوراء، وهذا الشهر يعني شهر رمضان»[١].

وعن أبي قتادة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كل شهر، ورمضان إلى رمضان، فهذا صيام الدهر كله، صيام يوم عرفة، أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله، والسنة التي بعده، وصيام يوم عاشوراء، أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله»[٢].

---

(١)متفق عليه، [خ (٢٠٠٦)م (١١٣٢)]

(٢) "صحيح مسلم"(١١٦٢)

الثانية: سبب صيامه

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قدم النبي ﷺ المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: «ما هذا؟»، قالوا: هذا يوم صالح هذا يوم نجى الله بني إسرائيل من عدوهم، فصامه موسى، قال: «فأنا أحق بموسى منكم»، فصامه، وأمر بصيامه.(١)

الثالثة: استحباب صيام تاسوعاء معه

صيام عاشوراء مفردا يجوز على القول الصحيح، ولكن يستحب معه صيام تاسوعاء- وهو اليوم التاسع من شهر محرم- وذلك مخالفة لليهود.

عن أَبي غطفان قال: سمعت عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقول: حين صام رسول الله ﷺ يوم عاشوراء وأمر بصيامه قالوا: يا رسول الله إنه يوم تعظمه اليهود والنصارى فقال رسول الله ﷺ: «فإذا كان العام المقبل إن شاء الله صمنا اليوم التاسع» قال: فلم يأت العام المقبل، حتى توفي رسول الله ﷺ.

وفي لفظ: «لَئِنْ بَقِيتُ إِلَى قَابِلٍ لَأَصُومَنَّ التَّاسِعَ». (٢)

الرابعة: ما العمل إذا اشتبه أول الشهر ؟

قال أحمد: فإن اشتبه عليه أول الشهر صام ثلاثة أيام. وإنما يفعل ذلك ليتيقن صوم التاسع والعاشر.(٣)

---

(١)متفق عليه، [خ(٢٠٠٤) م(١١٣٠)]

(٢) "صحيح مسلم" (١١٣٤)

(٣) "المغني" لابن قدامة (٣/١٧٨).

فمن لم يعرف دخول هلال محرّم وأراد الاحتياط للعاشر بنى على إكمال ذي الحجة ثلاثين - كما هي القاعدة - ثم صام التاسع والعاشر.

الخامسة: ذكر مراتب صيامه

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فمراتب صومه ثلاثة أكملها: أن يصام قبله يوم وبعده يوم، ويلي ذلك أن يصام التاسع والعاشر وعليه أكثر الأحاديث، ويلي ذلك إفراد العاشر وحده بالصوم. وأما إفراد التاسع فمن نقص فهم الآثار، وعدم تتبع ألفاظها وطرقها، وهو بعيد من اللغة والشرع، والله الموفق للصواب.اه[١]

قلت: ولم يصح في صيام يوم بعد عاشوراء دليل، والله أعلم.

السادسة: من بدع عاشوراء

سئل شيخ الإسلام: عما يفعله الناس في يوم عاشوراء من الكحل والاغتسال والحناء، والمصافحة وطبخ الحبوب وإظهار السرور وغير ذلك إلى الشارع، فهل ورد في ذلك عن النبي ﷺ حديث صحيح؟ أم لا؟ وإذا لم يرد حديث صحيح في شيء من ذلك فهل يكون فعل ذلك بدعة أم لا؟ وما تفعله الطائفة الأخرى من المأتم والحزن والعطش وغير ذلك من الندب والنياحة وقراءة المصروع وشق الجيوب، هل لذلك أصل أم لا؟

فأجاب: الحمد لله رب العالمين، لم يرد في شيء من ذلك حديث صحيح عن النبي ﷺ ولا عن أصحابه ولا استحب ذلك أحد من أئمة المسلمين، لا الأئمة الأربعة ولا غيرهم، ولا روى أهل الكتب المعتمدة في ذلك شيئا لا عن

---

(١) "زاد المعاد في هدي خير العباد" (٧٢/٢)

النبي ﷺ ولا الصحابة ولا التابعين، لا صحيحًا ولا ضعيفًا لا في كتب الصحيح ولا في السنن ولا المسانيد، ولا يعرف شيء من هذه الأحاديث على عهد القرون الفاضلة. ولكن روى بعض المتأخرين في ذلك أحاديث مثل ما رووا: أن من اكتحل يوم عاشوراء لم يرمد من ذلك العام، ومن اغتسل يوم عاشوراء لم يمرض ذلك العام، وأمثال ذلك. ورووا فضائل في صلاة يوم عاشوراء، ورووا: أن في يوم عاشوراء توبة آدم، واستواء السفينة على الجودي، ورد يوسف على يعقوب، وإنجاء إبراهيم من النار، وفداء الذبيح بالكبش، ونحو ذلك. ورووا في حديث موضوع مكذوب على النبي ﷺ: «أنه من وسع على أهله يوم عاشوراء وسع الله عليه سائر السنة». ورواية هذا كله عن النبي ﷺ كذب..[1]

ثم قال: والصحيح أنه يستحب لمن صامه أن يصوم معه التاسع؛ لأن هذا آخر أمر النبي ﷺ لقوله: «لئن عشت إلى قابل لأصومن التاسع مع العاشر» كما جاء ذلك مفسرا في بعض طرق الحديث فهذا الذي سنه رسول الله ﷺ. وأما سائر الأمور: مثل اتخاذ طعام خارج عن العادة إما حبوب وإما غير حبوب، أو في تجديد لباس، أو توسيع نفقة، أو اشتراء حوائج العام ذلك اليوم، أو فعل عبادة مختصة؛كصلاة مختصة به، أو قصد الذبح، أو ادخار لحوم الأضاحي ليطبخ بها الحبوب، أو الاكتحال، أو الاختضاب، أو الاغتسال، أو التصافح أو التزاور، أو زيارة المساجد والمشاهد، ونحو ذلك؛ فهذا من البدع المنكرة التي لم

---

(١) "مجموع الفتاوى" (٢٥/٢٩٩-٣٠٠)

يسنها رسول الله ﷺ ولا خلفاؤه الراشدون ولا استحبها أحد من أئمة المسلمين، لا مالك ولا الثوري ولا الليث بن سعد ولا أبو حنيفة ولا الأوزاعي ولا الشافعي ولا أحمد بن حنبل ولا إسحاق بن راهويه، ولا أمثال هؤلاء من أئمة المسلمين وعلماء المسلمين، وإن كان بعض المتأخرين من أتباع الأئمة قد كانوا يأمرون ببعض ذلك ويروون في ذلك أحاديث وآثارا ويقولون: إن بعض ذلك صحيح فهم مخطئون غالطون بلا ريب عند أهل المعرفة بحقائق الأمور.اهـ[1]

جواب العلماء الراسخين في صيام المؤمنين لتسع ذي الحجة.

الحمدلله وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ﷺ أما بعد:

فمما ابتليت به الأمة تعجل المتعجلين في الأحكام والتصدر للفتوى ومخالفة جماهير الأمة بلا حُجة، ومما يذكر في هذه الأيام المباركة أيام عشر ذي الحجة، مسألة: التعبد لله بصيام تسع ذي الحجة والتنافس في هذه العبادة العظيمة عبادة الصيام التي لامثل لها.

فأقول باختصار:

اعلم أخي المسلم الكريم أنه يستحب صيام الأيام التسع الأول من ذي الحجة، وعلى ذلك جماهير أهل العلم ؛ لما روى ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله

(١) "مجموع الفتاوى" (٢٥/٣١٢-٣١٣)

ﷺ: «مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ يَعْنِي أَيَّامَ الْعَشْرِ»، قالوا يا رسول الله: ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال:«وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ»[(١)].

ولا شك أن الصيام من أفضل الأعمال وأبرّها؛ فهو داخل في العمل الصالح المستحب في هذه الأيام المباركة بنص هذا الحديث.

وأقوال أهل العلم في رد الشبهات حول صيامها والحث على ذلك كثيرة ومنها:

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: واستدل به – أي بحديث ابن عباس - على فضل صيام عشر ذي الحجة لاندراج الصوم في العمل واستشكل بتحريم الصوم يوم العيد وأجيب بأنه محمول على الغالب ولا يرد على ذلك ما رواه أبوداود وغيره عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: «ما رأيت رسول الله ﷺ صائما العشر قط»، لاحتمال أن يكون ذلك لكونه كان يترك العمل وهو يحب أن يعمله خشية أن يفرض على أمته.اهـ[(٢)]

وقال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأما حديث عائشة قالت: «ما رأيت رسول الله ﷺ صائما في العشر قط». وفي رواية: «لم يصم العشر». رواهما مسلم في صحيحه، فقال العلماء: هو متأول على أنها لم تره ولا يلزم منه تركه في نفس الأمر؛ لأنه ﷺ كان يكون عندها في يوم من تسعة أيام والباقي عند باقي أمهات المؤمنين

---

(١)رواه البخاري (٩٦٩)، وأبو داود (٢٤٣٨) – واللفظ له –، والترمذي (٧٥٧)، وابن ماجه (١٧٢٧).

(٢) "فتح الباري"(٤٦٠/٢).

رضي الله عنهن، أو لعله ﷺ كان يصوم بعضه في بعض الأوقات وكله في بعضها ويتركه في بعضها لعارض سفر أو مرض أو غيرهما وبهذا يجمع بين الاحاديث.اه[١]

وقال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقد تقدم في كتاب العيدين أحاديث تدل على فضيلة العمل في عشر ذي الحجة على العموم، والصوم مندرج تحتها. وأما ما أخرجه مسلم عن عائشة أنها قالت:«ما رأيت رسول الله ﷺ صائما في العشر قط»، وفي رواية:«لم يصم العشر قط». فقال العلماء: المراد أنه لم يصمها لعارض مرض أو سفر أو غيرهما، أو أن عدم رؤيتها له صائما لا يستلزم العدم، على أنه قد ثبت من قوله ما يدل على مشروعية صومها كما في حديث الباب فلا يقدح في ذلك عدم الفعل.اه[٢]

وهذا جواب شاف كاف للعلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

سئل الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هل ورد عن الرسول ﷺ صيام عشر ذي الحجة كاملة ؟

فأجاب: ورد عن النبي ﷺ ما هو أبلغ من أن يصومها، فقد حث على صيامها بقوله عليه الصلاة والسلام: «ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من هذه الأيام العشر»، قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله؛ إلا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء»، ومن المعلوم

---

(١) "المجموع شرح المهذب" (٣٨٧/٦- ٣٨٨).

(٢) "نيل الأوطار" (٢٨٣/٤)

أن الصيام من أفضل الأعمال الصالحة .

أما فعله هو بنفسه فقد جاء فيه حديثان: حديث عائشة، وحديث حفصة، أما حديث عائشة فقالت: «ما رأيت النبي ﷺ صام العشر قط »، وأما حديث حفصة فإنها تقول: «إن النبي ﷺ لم يكن يدع صيامها»، وإذا تعارض حديثان أحدهما يثبِت والثاني ينفي، فالمثبت مقدم على النافي، ولهذا قال الإمام أحمد: حديث حفصة مثبت، وحديث عائشة نافي، والمثبت مقدم على النافي .

وأنا أريد أن أعطيك قاعدة: إذا جاءت السنة في اللفظ فخذ بما دل عليه اللفظ، أما العمل فليس في الشرط أن نعلم أن الرسول ﷺ فعله، أو فعله الصحابة، ولو أننا قلنا: لا نعمل بالدليل إلا إذا علمنا أن الصحابة عملوا به، لفات علينا كثير من العبادات، ولكن أمامنا لفظ وهو حجة بالغة واصل إلينا، يجب علينا أن نعمل بمدلوله، سواء علمنا أن الناس عملوا به فيما سبق، أم لم يعملوا به.اهـ[١]

فشَمِّر أخي المسلم الكريم في اغتنام هذه الأيام المباركة بالعمل الصالح ومن أعظمه الصيام ولا تلتفت للقيل والقال فالحجة فيما قاله سيد الأولين والآخرين ﷺ، والله الموفق.

---

(١) "لقاء الباب المفتوح"(١٢/٩٢)

كراهة تخصيص مكان للصلاة في المسجد، لغير الإمام.

عن عبد الرحمن بن شِبْلٍ قال: نهى رسول الله ﷺ عن نُقْرَة الغُرابِ، وافتراش السبع، وأن يُوَطِّنَ الرَّجُلُ المكانَ في المسجدِ كما يُوَطِّنُ البعير.[1]

فقوله: «وأن يوطن الرجل»: يدل على كراهة اتخاذ الرجل لنفسه مكانًا خاصًّا في المسجد، لا يصلي إلا فيه، إلا الإمام فهو مستثنى من هذا الحديث.

والحكمة من النهي عن ذلك ما يلي:

أولا: أنه قد يؤدي إلى الشهرة، والرياء، والسمعة.

ثانيًا: فيه الحرمان من تكثير مواضع العبادة، التي تشهد له يوم القيامة.

ثالثًا: لأن العبادة فيه تصير له طبعًا، وتثقل في غيره، والعبادات إذا صارت طبعًا فسبيلها إلى الترك.[2]

مسائل مهمة في الفتح على الإمام

١- مواطن الفتح على الإمام.

أولا: التوقف أو السكوت: الوقت الذي يستطعم فيه الإمام من خلفه.

ثانيًا: تجاوز الآية، أو الكلمة.

ثالثًا: اللحن: أي: الخطأ، سواءً كان من ما يغير المعنى أو لا.

رابعًا: إذا وقف وقفًا قبيحًا فيه تغيير للمعنى، مثال: إذا وقف على كلمة رسول

---

(١) "صحيح سنن أبي داود" (١٢/٤)(٨٠٨)

(٢) "القول المبين في أخطاء المصلين"(٧٧)

من قوله تعالى: ﴿وَما أَرسَلنا مِن رَسولٍ إِلّا بِلِسانِ قَومِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُم﴾، فإن هذا الوقوف يؤدي إلى نفي إرسال جميع الرسل.

٢- متى يفتح على الإمام؟

لا خلاف بين العلماء على أنه ينبغي على المأموم أن لا يعجل بالفتح على الإمام إذا ارتج عليه، أو أخطأ، لأنه قد يتذكر من نفسه.

ثم اختلفوا في وقت الفتح عليه، والراجح: أنه على حسب حاجة الإمام للفتح، على ما سبق ذكره في مواطن الفتح.

٣- من الذي يراجع للإمام؟ الجواب: الرجل المتقن.

فقولهم: الرجل. أي: لا تراجعُ المرأة، لأنه ليس لها ذلك، لحديث: «إنما التصفيق للنساء »[(١)]، فلم يبح لها التسبيح، ومن باب أولى ألا يجوز لها القراءة.

وقولهم: المتقن. أي: من كان على يقين من خطأ الإمام في القراءة، وهو متقن حافظ للصواب، ولهذا يراعى الأحفظ فالأحفظ في التلقين للإمام.

٤- ماذا يفعل الإمام إذا لم يُفتح عليه؟

تنقسم المسألة إلى قسمين:

الأول: إذا كان الإغلاق في الفاتحة.

فيجب عليه أن يستطعم من خلفه، بالسكوت، أو ترديد الآية، فإن لم يُفتح

---

(١)جزء من حديث سهل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. وفيه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما لي رأيتكم أكثرتم التصفيق، من رابه شيء في صلاته، فليسبح فإنه إذا سبح التفت إليه، وإنما التصفيق للنساء». متفق عليه، [(٦٨٤)م(٤٢١)]

عليه، وأمكنه النظر في مصحف قريب منه، نظر فيه، فإن لم يمكنه ذلك، استخلف من المأمومين من يتم الصلاة بالقوم[١].

الثاني: إذا كان الإغلاق في غير الفاتحة، ولم يُفتح عليه.

فهو مخير بين ثلاثة أمور:

الأول: أن يترك تلك الآية، فيقرأ التي بعدها.

الثاني: أن يبتدأ سورة أخرى، سوى السورة التي كان يقرأها.

الثالث: أن يقطع القراءة ويركع[٢].

٥- توجيهات عامة، وتنبيهات مهمة.:

- يجب أن تكون نية الفاتح على الإمام خالصة لله، لا لأنْ يُرى مكانه.

- يجب أن يبتعد عن تنبيه الإمام بما يخالف السنة، كالنحنحة.

- يجب على الإمام أن يستجيب إذا نُبه إلى خطئه في القراءة، ولا يتكبر عن تصحيح خطئه.

- إذا أخطأ الإمام في القراءة، وفات المأمومين الفتحُ عليه حتى تجاوز موضع الخطأ بآيات، فلا يصح أن يُفتح عليه، لما في ذلك من التشويش على الإمام.

- ينبغي للمأموم أن لا يمتنع من الفتح على إمامه إذا أخطأ.

- الواجب على أهل الحفظ والإتقان أن يحرصوا على القرب من الإمام، والمبادرة إلى أن يكونوا خلفه.

---

(١)انظر: "المغني" لابن قدامة (٣٩٦/١).

(٢)انظر: المرجع السابق، و"مجموع فتاوى الإمام ابن باز" (١٢٩/١٢)

فائدة نفيسة في معنى الآل

من معاني (الآل): الشخص نفسه فيقال -مثلا-: آل زيد والمراد زيد نفسه.

قال الحافظ ابن حجر في "فتح الباري"(٣٦١/٣) قوله: «على آل أبي أوفى» يريد أبا أوفى نفسه لأن الآل يطلق على ذات الشيء كقوله في قصة أبي موسى: «لقد أوتي مزمارا من مزامير آل داود» - يريد: داود نفسه- وقيل: لا يقال ذلك إلا في حق الرجل الجليل القدر.اهـ

واحة الرقائق والآداب

أركان حسن الخلق

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وحسن الخلق يقوم على أربعة أركان لا يتصور قيام ساقه إلا عليها: الصبر، والعفة، والشجاعة، والعدل.

فالصبر: يحمله على الاحتمال وكظم الغيظ، وكف الأذى، والحلم والأناة والرفق، وعدم الطيش والعجلة.

والعفة: تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل، وتحمله على الحياء، وهو رأس كل خير، وتمنعه من الفحشاء، والبخل والكذب، والغيبة والنميمة.

والشجاعة: تحمله على عزة النفس، وإيثار معالي الأخلاق والشيم، وعلى البذل والندى، الذي هو شجاعة النفس وقوتها على إخراج المحبوب ومفارقته. وتحمله على كظم الغيظ والحلم. فإنه بقوة نفسه وشجاعتها يمسك عنانها، ويكبحها بلجامها عن النزغ والبطش،كما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد: الذي يملك نفسه عند الغضب»[1]، وهو حقيقة الشجاعة، وهي ملكة يقتدر بها العبد على قهر خصمه.

والعدل: يحمله على اعتدال أخلاقه، وتوسطه فيها بين طرفي الإفراط والتفريط. فيحمله على خلق الجود والسخاء الذي هو توسط بين الذل والقحة، وعلى خلق

---

(١)متفق عليه [خ(٦١١٤)م (٢٦٠٩)] عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الشجاعة، الذي هو توسط بين الجبن والتهور، وعلى خلق الحلم، الذي هو توسط بين الغضب والمهانة وسقوط النفس. **ومنشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة**.اهـ(١)

علامات حسن الخلق

قال يوسف بن أسباط: علامة حسن الخلق عشرة أشياء: قلة الخلاف، وحسن الإنصاف، وترك طلب العثرات، وتحسين ما يبدو من السيئات، والتماس المعذرة، واحتمال الأذى، والرجوع بالملامة على نفسه، والتفرد بمعرفة عيوب نفسه دون عيوب غيره، وطلاقة الوجه، ولطف الكلام.اهـ (٢)

وقال ابن دقيق العيد: والمراد بحسن الخلق: الإنصاف في المعاملة، والرفق في المحاولة، والعدل في الأحكام، والبذل في الإحسان، وغير ذلك من صفات المؤمنين الذين وصفهم الله تعالى فقال: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال: ٢] إلى قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾[الأنفال: ٤] وقال تعالى: ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ﴾ [التوبة: ١١٢]. إلى قوله: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١١٢]، وقال: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [المؤمنون: ١] . إلى قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠] وقوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الفرقان: ٦٣] إلى آخر السورة. فمن أشكل عليه حاله فليعرض

---

(١) "مدارج السالكين" (٢/٢٩٤).

(٢) "فيض القدير" (٣/٤٦٤)

نفسه على هذه الآيات فوجود جميعها علامة حسن الخلق وفقد جميعها علامة سوء الخلق ووجود بعضها دون بعض يدل على البعض دون البعض فليشغل بحفظ ما وجده وتحصيل ما فقده.
ولا يظن ظان أن حسن الخلق عبارة عن لين الجانب وترك الفواحش والمعاصي فقط وأن من فعل ذلك فقد هذب خلقه بل حسن الخلق ما ذكرناه من صفات المؤمنين والتخلق بأخلاقهم.اهـ[1]
وقال ابن قدامة: ربما جاهد المريد نفسه حتى ترك الفواحش والمعاصي، ثم ظن أنه قد هذب خلقه، واستغنى عن المجاهدة، وليس كذلك، فإن حسن الخلق هو مجموع صفات المؤمنين.[2]

أسس الأخلاق

قال الإمام الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: اتفق علماء الاجتماع أن أسس الأخلاق أربعة: هي: الحكمة، والعفة، والشجاعة، والعدالة.
ويقابلها رذائل أربعة: هي: الجهل، والشَّرَه، والجبن، والجور.
ويتفرع عن كل فضيلة فروعها:
- عن الحكمة: الذكاء وسهولة الفهم وسعة العلم.
- وعن العفة: القناعة والورع والحياء والسخاء والدعة والصبر والحرية.

---
(١) "شرح الأربعين النووية" (ص٩٥)
(٢) "مختصر منهاج القاصدين" (ص: ١٥٨)

◄ وعن الشجاعة: النجدة وعظم الهمة.

◄ وعن السماحة: الكرم والإيثار والمواساة والمسامحة.

◄ أما العدالة وهي أم الفضائل الأخلاقية فيتفرع عنها: الصداقة والألفة وصلة الرحم وترك الحقد ومكافأة الشر بالخير واستعمال اللطف.

فهذه أصول الأخلاق وفروعها. فلم تبق خصلة منها إلا وهي مكتملة فيه ﷺ.اهـ[١]

قاعدة نبوية جامعة من قواعد السعادة

عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لقي رسول الله ﷺ أبا ذر، فقال: «يا أبا ذر، ألا أدلك على خصلتين هما أخف على الظهر، وأثقل في الميزان من غيرها؟»، قال: بلى يا رسول الله ، قال: «عليك بحسن الخلق ، وطول الصمت، فوالذي نفسي بيده، ما تجمل الخلائق بمثلهما».[٢]

قال المناوي في "فيض القدير"(٣٣٣/٤): «ما تجمل الخلائق بمثلهما» إذ هما جماع الخصال الحميدة، ومن ثم كان من أخلاق الأنبياء وشعار الأصفياء، والجمال يقع على الذات وعلى المعاني.اهـ

وقال ابن الأمير الصنعاني في "التنوير"(٢٧٨/٧): «بمثلهما» فهما جمال المرء في

---

(١) "أضواء البيان" (٢٥٢/٨).

(٢)أخرجه أبويعلى (٣٢٩٨)، والطبراني في "الأوسط"(٧١٠٣)، وهو في "صحيح الجامع" (٤٠٤٨) و"الصحيحة"(١٩٣٨).

دنياه وآخرته، ففي دنياه يحمد الناس حاله، وفي أخراه يجمله الله بإثابته عليهما.اهـ

من حق أخيك عليك

قال يحيى بن مُعاذ الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ: ليكن حظُّ المؤمن منك ثلاث خصال: إنْ لم تَنْفَعْهُ؛ فلا تَضُرَّهُ، وإنْ لمْ تُسره؛ فلا تَغُمَّهُ، وإنْ لم تمدَحْهُ؛ فلا تَذُمَّهُ.(١)

احذر مصاحبة ثلاثة

قال بعض الحكماء: آخ من شئت واجتنب ثلاثة: الأحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرك، والملوك فإنه أوثق ما تكون به لطول الصحبة وتأكدها بخذلك، والكذاب فإنه يجني عليك آمن ما كنت فيه من حيث لا تشعر.(٢)

ليس

عن محمد بن سلام؛ قال: قال بعض الحكماء: ليس غنى أغنى من سكون القلب، وليس فقر أفقر من اضطراب القلب، وليس عز أعز من الزهد، وليس ذل أذل من الرغبة في الدنيا والطمع، وليس شرف أشرف من اليقين، وليس درجة أعلى من الصبر، وليس حلاوة أحلى من محبة الله عز وجل، وليس مرارة أمر من سخطه، وليس زين أزين من التواضع، وليس جهل أجهل من

---

(١) "طبقات الأولياء" (٣٢٢)

(٢) "طوق الحمامة" لابن حزم (١٧٣)

الكبر، وليس قوة أقوى من الجوع، وليس داء أدوى من التعرض لسخط الله، وليس كلام أحسن من قول لا إله إلا الله.اهـ[١]

الصفات المتمناة في الأخ المحبوب في الله.

قال ابن حزم الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومن الأسباب المتمناة في الحب: أن يهب الله عز وجلَّ للإنسان صديقًا مخلصًا، لطيف القول، بسيط الطَّوْل، حسَن المأخذ، دقيق المنفذ، متمكن البيان، مرهف اللسان، جليل الحِلم، واسع العلم، قليل المخالفة، عظيم المساعفة، شديد الاحتمال، صابرًا على الإدلال، جم الموافقة، جميل المخالفة، محمود الخلائق، مكفوف البوائق، محتوم المساعدة، كارهًا للمباعدة، نبيل الشمائل، مصروف الغوائل، غامض المعاني، عارفًا بالأماني، طيب الأخلاق، سري الأعراق، مكتوم السر، كثير البر، صحيح الأمانة، مأمون الخيانة، كريم النفس، صحيح الحدس، مضمون العون، كامل الصون، مشهور الوفاء، ظاهر الغناء، ثابت القريحة، مبذول النصيحة، مستيقن الوداد، سهل الانقياد، حسن الاعتقاد، صادق اللهجة، خفيف المهجة، عفيف الطباع، رحب الذراع، واسع الصدر، متخلقًا بالصبر، يألف الإمحاض [أي: إخلاص الود]، ولا يعرف الإعراض، يستريح إليه ببلابله، ويشاركه في خلوة فكره، ويفاوضه في مكتوماته، وإن فيه للمحب لأعظمَ الراحات، وأين هذا ؟!

فإن ظَفِرَتْ به يداك: فشدهما عليه شد الضنين، وأمسك بهما إمساك البخيل، وصنه بطارفك وتالدك، فمعه يكمل الأنس، وتنجلي الأحزان، ويقصر الزمان،

---
(١) "المجالسة وجواهر العلم" (٤/٥١٥)(١٧٦٤)

وتطيب النفس، ولن يفقد الإنسان من صاحب هذه الصفة عونًا جميلًا، ورأيًا حسنًا.(١)

مَثَلُ الكريمِ واللئيمِ

عن الأعمش، قال: قال الشعبي: يا أعمش، كرام الناس أسرعهم مودة، وأبطأهم عداوة، مثل الكوب من الفضة، يبطئ الانكسار ويسرع الانجبار، ولئام الناس أبطأهم مودة، وأسرعهم عداوة، مثل الكوب من الفخار سريع الانكسار ويبطئ الانجبار.اهـ(٢)

قال الإمام ابن حبان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الكريم من أعطاه شكر، ومن منعه عذر، ومن قطعه وصل، ومن وصله فَضَلَه، ومن سأله أعطاه، ومن لم يسأله ابتدأه، وإذا اسْتَضْعَفَ أحدًا رحمه، وإذا استضعفه أحدٌ رأى الموت أكرم منه. واللئيم بضد ما وصفنا من الخصال كلها.

وقال أيضًا: الكريم لا يكون حقودًا ولا حسودًا ولا شامتًا ولا باغيًا ولا ساهيًا ولا لاهيًا ولافاجرًا ولا كاذبًا ولاملولًا، ولا يَقْطَع إِلْفَه، ولا يؤذي إخوانه، ولا يضيع الحِفَاظَ، ولا يجفو في الوداد، يعطي من لا يرجو، ويُؤمن من لا يخاف، ويعفو عن قُدْرة، ويصل من قطيعة.اهـ(٣)

وقال الإمام ابن الأمير الصنعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهذا هو لئيم الطلبة وخبيث الحُضَّار

---

(١) "طوق الحمامة"(ص ١٦٤)

(٢)أخرجه البيهقي في "الشعب" (٨٠١٨)، وابن حبان في "روضة العقلاء"(ص: ١٧٤)

(٣) "روضة العقلاء" (١٧٢- ١٧٤)

عند العالِم؛ متتبع العثرات وكاشف العورات ودافن الحسنات - وما أكثر هذا النوع لا كثرهم الله - فإنهم الذين أفسدوا معالم العلم، وملؤوا المواقف على العلماء أحاديث كاذبة... وبئس الجزاء أن يجازي التلميذ شيوخه بإشاعة هفواتهم وزلاتهم، فإنه لا بد لكل جواد من كبوة، ولكل صارم من نبوة.

ومن ذا الذي تُرضى سجاياه كلها　　　كفى بالمرء نُبلًا أن تعد معايبه.

فخير الناس من أشاع الخير عن العلماء وأذاعه ودافع عنهم إن سمع قادحًا فيهم.اهـ[١]

ومن اللؤم الاستعانة وعدم الإعانة

قال الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأما من يَستَعينُ ولا يُعين فهو لئيم كَلٌّ، ومَهينٌ مُسْتَذلٌ، قد قَطَع عنه الرغبة، وبسط فيه الرهبة، فلا خيرُه يُرجى، ولا شره يُؤمن. اهـ[٢]

وأحسن ما يقابل به السفيه اللئيم السكوت عنه:

قال المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال الإمام البيهقي عن ذي النون: العزُّ الذي لا ذلَّ فيه سكوتك عن السفيه، وفيه أنشد الأصمعي:

وما شيء أحبُّ إلى لئيم　　　إذا شتم الكرام من الجوابِ.

مُتَاركة اللئيم بلا جوابٍ　　　أشدُّ على اللئيم من السباب.

ومن ثم قال الأعمش: جواب الأحمق السكوت، والتغافل يُطفئُ شرًّا كثيرًا، ورضا المتجني غاية لا تُدرك، والاستعطاف عونٌ للظَّفَر، ومن غضب على من لا

---

(١) "التنوير شرح الجامع الصغير" (٥٢٨/٩)

(٢) "أدب الدين والدنيا" (١٧٢)

يقدر طال حزنه. وقال حكيم: ثلاث لا ينتصفون من ثلاثة: حليم من أحمق، وبر من فاجر، وشريف من دنيء.اه[١]

العشق[٢]

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذا مرض من أمراض القلب مخالف لسائر الأمراض في ذاته وأسبابه وعلاجه، وإذاتمكن واستحكم عز على الأطباء دواؤه وأعيا العليل داؤه، وإنما حكاه الله سبحانه في كتابه عن طائفتين من الناس: من النساء وعشاق الصبيان المردان، فحكاه عن امرأة العزيز في شأن يوسف، وحكاه عن قوم لوط.اه[٣]

وقال الإمام ابن مفلح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: العشق داء صعب ومرض ليس بالهين، وهو فَرطُ الحب.اه[٤]

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال ابن عقيل: العشق مرض يعتلي النفوس العاطلة والقلوب الفارغة والمتلمحة للصور لدواعٍ من النفس، ويساعدها إدمان المخالطة فتتأكد الألفة ويتمكن الأنس فيصير بالإدمان شغفا، وما عَشِقَ قَطُّ إلا فارِغ، فهو من علل البطالين وأمراض الفارغين من النظر في دلائل العبرة

---

(١) "فيض القدير"(١٢٢/١)

(٢)العشق: هو فَرْطُ الحب، وسمي عشقًا ؛ لأنه يصيب القلب بالذبول في بحر الهوى فيهلك. مأخوذ من العَشَقَةِ: وهو نبات يخضر ثم يدق ثم يصفر وينتهي.

(٣) "زاد المعاد" (٢٤٤/٤)

(٤) "الآداب الشرعية"(١٢٥/٣).

وطلب الحقائق المستدل بها على عظم الخالق.اهـ[(١)]

وقال ابن عقيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وما كان العشق إلا لأرعن بَطَّال وقَلَّ أن يكون في مشغول ولو بصناعة أو تجارة، فكيف بعلوم شرعية أو حُكْمِيَّة؟ فإنها صارفة عن ذلك.اهـ[(٢)]

(١) "ذم الهوى" (ص ٣١٠-٣١١).

(٢) "الآداب الشرعية" لابن مفلح (١٢٦/٣)

واحة التاريخ والسير

نصر مبين ودور عالم من علماء المسلمين

في اليوم الثاني من رمضان كسر المسلمون أقوى إمبراطورية مرت على البشرية وهي امبراطورية التتر، وإلى يومنا هذا ولمدة سبعة قرون لم تقم لهم قائمة .

مختصر موجز عن هذا النصر العظيم:

قبل الشروع في أحداث هذا النصر العظيم لابد من وقفة تأمل، ودراسة عميقة لمائة سنة سبقت هذا النصر حتى نعيش بعض اللحظات الصعبة التي مرت على الإسلام والمسلمين.

قال الحافظ ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ثم دخلت سنة سبع عشرة وستمائة، لقد بقيتُ عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها، كارها لذكرها، فأنا أُقَدم إليه رِجلا وأُؤخّر أخرى، فمَن الذي يَسهل عليه أن يَكتُب نَعي الإسلام والمسلمين؟ ومَن الذي يَهون عليه ذِكر ذلك؟ فيا ليتَ أمّي لم تلِدني، ويا ليتني متّ قبل حُدوثها وكنتُ نسيا منسيا، إلا أنّي حثّني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا مُتوقِّف، ثُم رأيتُ أنّ تَرْك ذلك لا يُجدي نفعا، فنقول: هذا الفعل يتضمن ذِكر الحادثة العُظمى، والمُصيبة الكُبرى التي عَقَمت الأيامُ والليالي عن مِثلِها، عمّت الخلائقَ، وخصّت المسلمين، فلو قال قائل: إنّ العالم منذ خَلَق الله سبحانه وتعالى آدمَ، وإلى الآن، لم يُبْتَلَوا بمِثلِها؛ لكان صادقا، فإنّ

التواريخ لم تتضمّن ما يُقارِبها ولا ما يُدانيها.اهـ[١]

سبب تلك الغزوة: هو استمرار الهجوم المغولي على أراضي المسلمين، وذلك بعد إسقاطهم حاضرة الخلافة العباسية «بغداد» عام ست وخمسين وستمائة، ولم تبتلى أمة الإسلام ببلوى أعظم من قدوم التتار، فقد كان التتار يرسلون إلى أمير المدينة يعلمونه بقدومهم فمن شدة خوف الجنود والناس من صنيعهم في غزواتهم، وانتقامهم العنيف، يسلم أميرها المدينة لهم دون قتال، وكان التتار وقتها تحت قيادة «قازان» حفيد «هولاكو» وقد أراد قازان أن يخرج بنفسه على رأس الحملة التترية الغاشمة على بلاد الإسلام، ولكن تهديد حدوده الشرقية أدى إلى أن ينيب عنه «قطلوشاه»، وتعاون قطلوشاه مع الصليبيين، وكان عدد كبير من قوات جيشه من الأرمن النصارى، وخرجت الغزوة التترية الجديدة تحصد في طريقها الأخضر واليابس مما تلاقيه من بلاد الشام، ووصل التتار إلى حمص وبعلبك وعاثوا في تلك البلاد فسادا، وقتلوا الرجال وسبوا النساء والأطفال، وأرادوا استكمال غزو بلاد الشام كلها، فأصاب أهل الشام الرعب، وفروا بأموالهم ومتاعهم إلى مصر والكرك، وكان وقتها الخليفة المستكفي بالله والسلطان الناصر محمد بن قلاوون مقيمين في مصر، وهم على قلق شديد وخوف عظيم من دخول التتار دمشق .

وأصاب الناس بالشام اليأس، وانتشرت الشائعات المثبطة، وخافوا خوفا شديدا، وشرع المثبطون يوهنون من عزائم المقاتلين، ويقولون: لا طاقة

---

(١) "الكامل في التاريخ"(١٢/٣٥٨).

للمسلمين بلقاء التتار؛ وأن التتار داخلون لا محالة الشام، وفي هذه الأثناء برز صوت غريب جدا يخالف ماتعود عليه الناس، ويحث على المواجهة والإستبسال في وجه هذا العدو الغاشم، وهنا برز دور العالم الرباني شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والذي هتف بالناس للجهاد، وشد من عزائمهم، واتصل بالأمراء ودعاهم للخروج وحماية بيضة الإسلام في الشام، وقاد تلك المرحلة الخطيرة والحاسمة بكل ما تعنيه الكلمة وأشعل في قلوب المسلمين فتيل العزة والكرامة وبث فيهم روح العقيدة الصافية، فاجتمع الأمراء بالميدان وتحالفوا على لقاء العدو، وشجعوا أنفسهم، ونودي أن لا يرحل أحد، فسكن الناس وجلس القضاة بالجامع وحلف جماعة من الفقهاء والعامة على القتال.

وقد كان دور ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو العامل الرئيس في انتصار المسلمين في وقعة «شقحب»، ويبرز مثالا رائعا للعلماء المجاهدين بالقول والبنان، فقد انضم ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ لصفوف المجاهدين، ووقف معهم يشجعهم ويبث روح الإصرار والدفاع عن الدين بين جنبات أبناء الشام، وكان يبشر الناس ويثبتهم وهم على خط القتال ويقول لهم: «إنكم لمنصورون والله إنكم لمنصورون» فيقولون: قل: إن شاء الله، فيقول: «إن شاء الله تحقيقا لا تعليقا»، جزما لما يرى من اليقين، ويتأول في ذلك الآيات ومنها: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ﴾ [الحج: ٦٠]

ولم يكتف ابن تيمية بذلك بل سار إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون،

يدعوه للقتال ويثبت قلبه، وكان السلطان الناصر قد أصابه وهن شديد عن لقاء التتار فشد ابن تيمية من أزره وجلس يذكره بفضل الجهاد ووجوب حماية بلاد الإسلام .

وخرج ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ من دمشق صبيحة يوم الخميس أواخر شعبان من باب النصر بمشقة كبيرة وصحبته جماعة كبيرة، ليشهد القتال بنفسه وبمن معه، وخرجت العساكر الشامية إلى ناحية قرية الكسوة استعدادا للقتال، وجاء التتار فخاف أهل الشام أن يكون الجيش الشامي قد فر خوفا من الهزيمة، وأصاب الناس هم وغم شديد، وذلك في يوم الخميس التاسع والعشرين من شعبان، فلما كان آخر هذا اليوم وصل أحد أمراء دمشق، فبشر الناس بأن السلطان قد وصل وقت اجتماع العساكر المصرية والشامية، وتابع التتار طريقهم من الشمال إلى الجنوب ولم يدخلوا دمشق، بل عرجوا إلى ناحية تجمع العساكر، ولم يشغلوا أنفسهم باحتلال دمشق، وقالوا: إن غَلبنا فإن البلد لنا، وإن غُلبنا فلا حاجة لنا به .

ودخل شهر رمضان المبارك يوم الجمعة، وتضرع الناس في صلاة التراويح أن ينصر جيش المسلمين، وجلسوا يرتقبون الأخبار، وكان وقتها أن وقفت العساكر الشامية قريبا من قرية الكسوة، فجاء قادة الجيش، وطلبوا من شيخ الإسلام ابن تيمية أن يسير إلى السلطان يستحثه على السير إلى دمشق، فسار إليه، فحثه على المجيء إلى دمشق بعد أن كاد يرجع إلى مصر، فرجع معه، فسأله السلطان أن يقف في معركة القتال، فقال له ابن تيمية: السنة أن يقف الرجل

تحت راية قومه، ونحن من جيش الشام لا نقف إلا معهم.

وأفتى ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ الناس بالفطر مدة قتالهم وأفطر هو أيضا، وكان يدور على الأجناد والأمراء فيأكل من شيء معه في يده ليعلمهم أن إفطارهم ليتقووا على القتال أفضل فيأكل الناس، وكان يتأول قوله ﷺ: «إنكم ملاقوا العدو غدا، والفطر أقوى لكم». فعزم عليهم في الفطر، فأفطروا، وتقووا. ورتب المسلمون جيشهم بـ «سهل شقحب»، وكان السلطان الناصر في القلب، ومعه الخليفة المستكفي بالله والقضاة والأمراء، وأولادهم، ومواليهم .

وقد قام السلطان الناصر بالثبات في أرض المعركة مع قواده، وأمر بأن يقيد فرسه حتى لا يهرب، وكتب وصيته، وعزم على إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة، والتحم الجيشان، وكان قتال التتار عنيفا حتى أنهم مالوا على المسلمين ميلة عظيمة وقتلوا كثيرا من سادات المسلمين وأمرائهم، ولكن ثبت العسكر الشامي طوال الليل، واشتعل القتل، ومالت الكفة لصالح المسلمين، وتغيرت وجهة المعركة تماما في اليوم التالي، حيث أنه لما طلع النهار أراد التتار أن يلوذوا بالفرار بعد أن ترك المسلمون ثغرة في الميسرة ليمروا منها، فتتبعهم الجنود المسلمون وقتلوا منهم عددا كبيرا، كما أنهم مروا بأرض موحلة، وهلك الكثيرون منهم فيها، وقُبض على بعضهم .

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فلما جاء الليل لجأ التتار إلى اقتحام التلول والجبال والآكام، فأحاط بهم المسلمون يحرسونهم من الهرب، ويرمونهم عن قوس واحد إلى وقت الفجر، فقَتلوا منهم ما لا يعلم عدده إلا الله عز وجل،

وجعلوا يجيئون بهم من الجبال فتضرب أعناقهم .

ووصل التتار إلى الفرات وهو في قوة زيادته، فلم يقدروا على العبور، والذي عبر فيه هلك، فساروا على جانبه إلى بغداد، فانقطع أكثرهم على شاطئ الفرات، وأخذ أهل العراق منهم جماعة كثيرة .

ووصل ابن تيمية وأصحابه دمشق يوم الاثنين، وفي يوم الثلاثاء الخامس من رمضان دخل السلطان إلى دمشق، وبين يديه الخليفة، وزُينت البلد، وبقيا في دمشق إلى ثالث شوال إذ عادوا بعدها إلى الديار المصرية، وكان فرح الناصر بهذا الانتصار فرحا عظيما .

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ - يصف عودة العساكر الشامية، وعلى رأسهم شيخ الإسلام ابن تيمية -: وفي يوم الاثنين رابع الشهر رجع الناس من الكسوة، إلى دمشق فبشروا الناس بالنصر، وفيه دخل الشيخ تقي الدين بن تيمية البلد ومعه أصحابه من الجهاد، ففرح الناس به ودعوا له وهنأوه بما يسر الله على يديه من الخير.

ولقد كان لثبات شيخ الإسلام ابن تيمية واستبساله أحد أهم أسباب النصر في تلك الوقعة، بحسن تدبيره، ومشورته، وبلاءه في أرض الجهاد، ومواقفه البطولية في أرض المعركة، قال ابن عبد الهادي: قال حاجب أمير -وكان ذا دين متين-: قال لي الشيخ -يعني ابن تيمية- يوم اللقاء وقد تراءى الجمعان: يا فلان، أوقفني موقف الموت، قال: فسقته إلى مقابلة العدو وهم منحدرون كالسيل تلوح أسلحتهم من تحت الغبار المنعقد عليهم، ثم قلت له: يا سيدي، هذا

موقف الموت، وهذا العدو قد أقبل تحت هذه الغبرة المنعقدة، فدونك ما تريد، قال: فرفع طرفه إلى السماء، وأشخص بصره، وحرك شفتيه طويلا، ثم انبعث وأقدم على القتال. يقول: وأما أنا فخيل إلي أنه دعا عليهم، وأن دعاءه استجيب منه في تلك الساعة . ثم حال القتال بيننا والالتحام، وما عدت رأيته حتى فتح الله.

وكانت هذه الحملة هي الثالثة من حملات التتار على بلاد الإسلام، وآخر الحملات الكبرى التي قام بها التتار يريدون بها استئصال بيضة الإسلام، إذ سرعان ما أسلموا ودخل أغلبهم في دين الإسلام صادقين، وكانوا مددا للجيوش الإسلامية يجاهدون معها أعدائها وينشرون الإسلام في شتى ربوع الأرض.

ختم ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ أحداث معركة شقحب بكلمة جميلة بعد أن سرد أحداثها بطريقة فريدة: «واستقرت الخواطر، وذهب اليأس وطابت قلوب الناس»[١].

وكان هذا في عام ٧٠٢ من الهجرة النبوية، وفي ثاني يوم من أيام شهر رمضان المبارك، نصر اللهُ عباده وجنده على أعدائه من المغول.

والحمد لله رب العالمين

---

(١)انظر: "البداية والنهاية" ط إحياء التراث (١٤/٢٩-٣٢).

لماذا ينتصر المسلمون

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وروى أحمد بن مروان المالكي في المجالسة: ثنا أبوإسماعيل الترمذي ثنا أبو معاوية عن عمرو عن أبي إسحاق قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يثبت لهم العدو فواق ناقة عند اللقاء، فقال هرقل وهو على أنطاكية لما قدمت منهزمة الروم: ويلكم أخبروني عن هؤلاء القوم. الذين يقاتلونكم أليسوا بشرًا مثلكم؟ قالوا: بلى. قال: فأنتم أكثر أم هم؟ قالوا: بل نحن أكثر منهم أضعافًا في كل موطن. قال: فما بالكم تنهزمون؟ فقال شيخ من عظمائهم: من أجل أنهم يقومون الليل ويصومون النهار، ويوفون بالعهد، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويتناصفون بينهم، ومن أجل أنا نشرب الخمر، ونزني ونركب الحرام، وننقض العهد ونغصب ونظلم ونأمر بالسخط وننهى عما يرضي الله ونفسد في الأرض. فقال: أنت صدقتني.اهـ[١]

أخبار من أخلاق الكبار في قضاء حوائج الإخوان

الحمد لله وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ﷺ، أما بعد:

فإنَّ السعي في قضاء حوائج الناس حبًّا في الله تعالى، وابتغاء مرضاته -سبحانه وتعالى- لهو من صور الإحسان العظيمة ومن أحب الأعمال إلى الله، وأدلة ذلك كثيرة جدا، ولقد كان السلف على جانب عظيم في هذا الباب وأخبارهم

---

(١) "البداية والنهاية" (١٩/٧)، وانظر: "تاريخ دمشق" لابن عساكر (٩٧/٢)

كثيرة جدا، ولكني أذكر في هذا المقام صورًا قليلة لعلها تكون منارات لنا في درب الأخوة وتحقيقها، فمن ذلك:

ثابت البناني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: استعان رجل بثابت البناني رَحِمَهُ ٱللَّهُ على القاضي في حاجة، فجعل لا يمر بمسجد إلا نزل فصلى حتى انتهى إلى القاضي، فكلمه في حاجة الرجل فقضاها، فأقبل ثابت على الرجل، فقال: لعله شقَّ عليك ما رأيت؟ قال: نعم، قال: ما صليت صلاةً إلا طلبت إلى الله تعالى في حاجتك[١].

الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ : قال مالك بن دينار رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بعث الحسن البصري محمد بن نوح، وحميدًا الطويل في حاجة لأخٍ له، وقال: مروا بثابت البناني، فأشْخِصانه - أي: فليذهب- معكم، فأتيَا ثابتًا، فقال لهم ثابت: إني معتكف، فرجع حميد إلى الحسن، فأخبره بالذي قال ثابت، فقال له: ارجعْ إليه، فقل له: يا أعمش، أما تعلم أنَّ مشيك في حاجة أخيك المسلم خيرٌ لك مِن حجة بعد حجة، فقام وذهب معهم، وترك الاعتكاف.[٢]

وقال كلثوم بن جوشن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: استعان رجل بالحسن البصري في حاجة، فخرج معه، فقال الرجل: إني استعنت بابن سيرين وفرقد، فقالا: حتى نشهد الجنازة، ثم نخرج معك، قال: أما إنهما لو مشيا معك لكان خيرًا.[٣]

---

(١) "حلية الأولياء"(٢/٣٢١).

(٢) "البر والصلة" لابن الجوزي (ص ٢٤٧).

(٣) "الطبقات الكبرى" لابن سعد(٢/١٢٥).

سعيد بن العاص رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال شبيب بن شيبة الخطيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لما حضرت سعيد بن العاص الوفاة، قال لبنيه: يا بني، أيكم يقبل وصيتي؟ فقال ابنه الأكبر: أنا، قال سعيد: إن فيها قضاء ديني، قال: وما دينك يا أبت؟ قال: ثمانون ألف دينار، قال: يا أبتِ فيم أخذتها؟ قال: يا بني في كريم سددت خلته - أي فقره- ورجل جاءني في حاجة وقد رأيت السوء في وجهه من الحياء، فبدأت بحاجته قبل أن يسألها.[1]

حكيم بن حزام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: قال شعبة بن الحجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لَمَا توفي الزبير بن العوام، لقي حكيم بن حزام عبدالله بن الزبير، فقال: كم ترك أخي من الدَّين؟ قال: ألف ألف - أي مليون - قال: علي خمسمائة ألف.[2]

الحسن بن علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: قال أبو جعفر الباقر: جاء رجل إلى الحسين بن علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، فاستعان به في حاجة، فوجده معتكفًا، فاعتذر إليه، فذهب إلى الحسن رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فاستعان به فقضى حاجته، وقال الحسن: لقضاء حاجة أخٍ لي في الله أحب إليَّ مِن اعتكاف شهر.[3]

عبدالله بن شبرمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال أبو حفص الأبار: كان لي عند عبد الله بن شبرمة حاجة، فقضاها، فأتيته أشكره، فقال: على أي شيء تشكرني؟ قلت: قضيت لي حاجة، فقال: اذهب، إذا سألت صديقك حاجة يقدر على قضائها

---

(١) "روضة العقلاء" لابن حبان (ص ٢٤٧).

(٢) "سير أعلام النبلاء" (٥٠/٣).

(٣) "البداية والنهاية"(٣٩/٣)

فلم يبذل نفسه وماله، فتوضأ للصلاة، وكبّر عليه أربعًا، وعده في الموتى.(١)

عبدالله بن عثمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال عبدالله بن عثمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما سألني أحد حاجةً إلا قمت له بنفسي، فإن تم وإلا قمت له بمالي، فإن تم وإلا استعنَّا له بالإخوان فإن تم وإلا استعنت له بالسلطان.(٢)

شعبة بن الحجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ : قال أبو داود الطيالسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كنا عند شعبة بن الحجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فجاء سليمان بن المغيرة يبكي، وقال: مات حماري، وذهبت مني الجمعة، وذهبت حوائجي، قال: بكم أخذته؟ قال: بثلاثة دنانير، قال شعبة: فعندي ثلاثة دنانير، والله ما أملك غيرها، ثم دفعها إليه.(٣)

عبدالله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال سلمة بن سليمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: جاء رجل إلى عبدالله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فسأله أن يقضي دينًا عليه، فكتب له إلى وكيل له، فلما ورد عليه الكتاب، قال له الوكيل: كم الدين الذي سألته قضاءه؟ قال: سبعمائة درهم، وإذا عبدالله قد كتب له أن يعطيه سبعة آلاف درهم، فراجعه الوكيل، وقال: إن الغلات -أي: النقود- قد فنيت، فكتب إليه عبدالله: إن كانت الغلات قد فنيت، فإن العمر أيضًا قد فني، فأجر له ما سبق به قلمي.(٤)

ختامًا: أسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلا أن يجعل هذا العمل

---

(١) "تاريخ دمشق"(٣٠٧/٣٤).

(٢) "الآداب الشرعية" لابن مفلح الحنبلي (١٨٠/٢).

(٣) "سير أعلام النبلاء"(٢١١/٧).

(٤) "تاريخ بغداد"(٣٨٨/١١).

خالصًا لوجهه الكريم، نافعا لعباده المؤمنين، وأن يجعله ذخرًا لي عنده يوم القيامة، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨ – ٨٩].

من روائع ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ولا يزال العبدُ يعاني الطاعة، ويألفها ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله -سبحانه وتعالى- برحمته عليه الملائكة تؤزُّه إليها أزًّا وتحرّضه عليها وتزعجه من فراشه ومجلسه إليها.

ولا يزال يألف المعاصي ويحبها، ويؤثِرها حتى يرسل الله عليه الشياطين فتؤزه إليها أزًّا، فالأول قوّى جند الطاعة بالمدد، فصاروا من أكبر أعوانه، وهذا قوّى جند المعصية بالمدد فكانوا أعوانًا عليه.اه[١]

وقال: وأما الكبر فأثر من آثار العجب والبغي، من قلب قد امتلأ بالجهل والظلم، ترحلت منه العبودية، ونزل عليه المقت، فنظره إلى الناس شَزَر، ومشيه بينهم تبختر، ومعاملته لهم معاملة الاستئثار لا الإيثار ولا الإنصاف، ذاهبٌ بنفسه تيهًا، لا يبدأ من لقيه بالسلام وإن رد عليه رأى أنه قد بالغ في الإنعام عليه، لا ينطلق لهم وجهه ولا يسعهم خلقه، ولا يرى لأحد عليه حقا ويرى حقوقه على الناس، ولا يرى فضلهم عليه ويرى فضله، لا يزداد من الله إلا بعدًا ومن الناس إلا صغارًا أو بغضًا.اه[٢]

وقال: أصل الأخلاق المذمومة كلها الكبر والمهانة والدناءة، وأصل الأخلاق المحمودة كلها الخشوع وعلو الهمة، فالفخر والبطر والأشر والعجب والحسد والبغي والخيلاء والظلم والقسوة والتجبر والإعراض وإباء قبول النصيحة

---

(١) "الجواب الكافي" (٥٦).

(٢) "كتاب الروح" (ص٢٣٥).

والاستئثار وطلب العلو وحب الجاه والرئاسة وأن يحمد بمالم يفعل وأمثال ذلك كلها ناشئة من الكبر، وأما الكذب والخسة والخيانة والرياء والمكر والخديعة والطمع والفزع والجبن والبخل والعجز والكسل والذل لغير الله واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير ونحو ذلك فإنها من المهانة والدناءة وصغر النفس.اهـ[(١)]

وقال: لولا محن الدنيا ومصائبها لأصاب العبد من أدواء الكبر والعجب والفرعنة وقسوة القلب ما هو سبب هلاكه عاجلا وآجلا فمن رحمة أرحم الراحمين أن يتفقده في الأحيان بأنواع من أدوية المصائب، تكون حمية له من هذه الأدواء، وحفظا لصحة عبوديته، واستفراغا للمواد الفاسدة الرديئة المهلكة منه، فسبحان من يرحم ببلائه، ويبتلي بنعمائه كما قيل:

قد ينعم بالبلوى وإن عظمت ويبتلي الله بعض القوم بالنعم

فلولا أنه - سبحانه - يداوي عباده بأدوية المحن، والابتلاء لطغوا، وبغوا وعتوا والله - سبحانه - إذا أراد بعبد خيرا سقاه دواء من الابتلاء، والامتحان على قدر حاله يستفرغ به من الأدواء، المهلكة حتى إذا هذبه ونقاه وصفاه أهله لأشرف مراتب الدنيا، وهي عبوديته وأرفع ثواب الآخرة، وهو رؤيته وقربه.اهـ[(٢)]

وقال: ففي القلب شعث، لا يلمه إلا الإقبال على الله، وفيه وحشة، لا يزيلها إلا

---

(١) "الفوائد" (ص١٤٣-١٤٤).

(٢) "زاد المعاد في هدي خير العباد" (١٧٩/٤)

الأنس به في خلوته، وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته وصدق معاملته، وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه والفرار منه إليه، وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه، وفيه طلب شديد لا يقف دون أن يكون هو وحده مطلوبه، وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه ودوام ذكره وصدق الإخلاص له، ولو أعطي الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة منه أبدا.اهـ(١)

وقال: وقد أجمع عقلاء كل أمة على أن النعيم لا يدرك بالنعيم وإن من آثر الراحة فاتته الراحة وإن بحسب ركوب الأهوال واحتمال المشاق تكون الفرحة واللذة فلا فرحة لمن لا هم له ولا لذة لمن لا صبر له ولا نعيم لمن لا شقاء له ولا راحة لمن لا تعب له، بل إذا تعب العبد قليلا استراح طويلا، وإذا تحمل مشقة الصبر ساعة قاده لحياة الأبد، وكل ما فيه أهل النعيم المقيم فهو صبر ساعة والله المستعان ولا قوة إلا بالله، وكلما كانت النفوس أشرف والهمة أعلا كان تعب البدن أوفر وحظه من الراحة أقل.اهـ(٢)

وقال: ولا ينال العلم إلا بهجر اللذات وتطليق الراحة، قال مسلم في "صحيحه": قال يحي بن أبي كثير: لا ينال العلم براحة الجسم. وقال إبراهيم الحربي: أجمع عقلاء كل أمة أن النعيم لا يدرك بالنعم ومن آثر الراحة فاتته الراحة فما لصاحب اللذات وما لدرجة وراثة الأنبياء؟!... فإن العلم صناعة

---

(١) "مدارج السالكين"(١٥٦/٣)

(٢) "مفتاح دار السعادة"(١٥/٢)

القلب وشغله فما لم تتفرغ لصناعته وشغله لم تنلها، وله وجهة واحدة فإذا وجهت وجهته إلى اللذات والشهوات انصرفت عن العلم، ومن لم يغلب لذة إدراكه العلم وشهوته على لذة جسمه وشهوة نفسه لم ينل درجة العلم أبدا، فإذا صارت شهوته في العلم ولذته في كل إدراكه رجى له أن يكون من جملة أهله.اهـ(١)

وقال: كلما كانت النفوس أشرف والهمة أعلى كان تعب البدن أوفر وحظه من الراحة أقل.اهـ(٢)

وقال: الله إذا أراد بعبد خيرا سلب رؤية أعماله الحسنة من قلبه والإخبار بها من لسانه، وشغله برؤية ذنبه، فلا يزال نصب عينيه حتى يدخل الجنة.اهـ(٣)

وقال: قال الله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [الشمس:٩ –١٠]، والمعنى: قد أفلح من كبَّرها وأعلاها بطاعة الله وأظهرها، وقد خسر من أخفاها وحقَّرها وصغَّرها بمعصية الله. فما صغَّر النفوس مثل معصية الله، وما كبَّرها وشرَّفها ورفَعَها مثل طاعته .اهـ(٤)

وقال: والصبر آخيّة المؤمن التى يجول ثم يرجع إليها، وساق إيمانه الذي لا اعتماد له إلا عليها، فلا إيمان لمن لا صبر له وإن كان فإيمان قليل في غاية

---

(١) "مفتاح دار السعادة"(١/١٤٢)

(٢) "مفتاح دار السعادة"(٢ /١٥)

(٣) "طريق الهجرتين"(ص ٢٧٠)

(٤) "الجواب الكافي" (ص ٥٢).

الضعف وصاحبه ممن يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة، ولم يحظ منهما إلا بالصفقة الخاسرة فخير عيش أدركه السعداء بصبرهم وترقوا إلى أعلى المنازل بشكرهم فساروا بين جناحي الصبر والشكر إلى جنات النعيم وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.اهـ

وقال: فإذا ظفرت برجل واحد من أولي العلم طالب للدليل محكم له متبع للحق حيث كان وأين كان ومع من كان زالت الوحشة وحصلت الألفة، ولو خالفك فإنه يخالفك ويعذرك، والجاهل الظالم يخالفك بلا حجة ويكفرك أو يبدعك بلا حجة، وذنبك رغبتك عن طريقته الوخيمة، وسيرته الذميمة، فلا تغتر بكثرة هذا الضرب، فإن الآلاف المؤلفة منهم لا يعدلون بشخص واحد من أهل العلم، والواحد من أهل العلم يعدل بملء الأرض منهم.اهـ[1]

وقال: والصائم هو الذي صامت جوارحه عن الآثام، ولسانه عن الكذب والفحش وقول الزور، وبطنه عن الطعام والشراب، وفرجه عن الرفث، فإن تكلم لم يتكلم بما يجرح صومه، وإن فعل لم يفعل ما يفسد صومه، فيخرج كلامه كله نافعا صالحا، وكذلك أعماله فهي بمنزلة الرائحة التي يشمها من جالس حامل المسك، كذلك من جالس الصائم انتفع بمجالسته وأمن فيها من الزور والكذب والفجور والظلم. هذا هو الصوم المشروع لا مجرد الإمساك عن

(١) "إعلام الموقعين عن رب العالمين" (٣٠٧/٣)



الطعام والشراب.اهـ[١]

مسألة: ما الحكمة من جعل العقوبة على الزاني تعم بدنه؟

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أما الزاني فإنه يزني بجميع بدنه، والتلذذ بقضاء شهوته يعم البدن ... فعوقب بما يعم بدنه، من الجلد مرة، والقتل بالحجارة مرة، ولما كان الزنا من أمهات الجرائم وكبائر المعاصي لما فيه من اختلاط الأنساب الذي يبطل معه التعارف والتناصر على إحياء الدين، وفي هذا إهلاك الحرث والنسل، فشاكل في معانيه أو في أكثرها القتل الذي فيه هلاك ذلك، فزجر عنه بالقصاص، ليرتدع عن مثل فعله من يهم به، فيعود ذلك بعمارة الدنيا، وصلاح العالَم الموصل إلى إقامة العبادات الموصلة إلى نعيم الآخرة.اهـ[٢]

من آداب السؤال

قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ١٠١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ولم ينقطع حكم هذه الآية بل لا ينبغي للعبد أن يتعرض للسؤال عما إن بدا له ساءه، بل يستعفي ما أمكنه ويأخذ بعفو الله.اهـ[٣]

---

(١) "الوابل الصيب"(ص: ٢٦)

(٢) "إعلام الموقعين" (٢/١١٠).

(٣) "إعلام الموقعين"(١/٧١- ٧٢).

عظمة الذكر في جلب النعم ودفع النقم.

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما استجلبت نعم الله عز وجل واستدفعت نقمه بمثل ذكر الله تعالى، فالذكر جلاب للنعم دافع للنقم. قال سبحانه وتعالى:﴿إن الله يدفع عن الذين آمنوا﴾، وفي القراءة الأخرى:﴿إن الله يدافع﴾، فدفعه ودفاعه عنهم بحسب قوة إيمانهم وكماله، ومادة الإيمان وقوته بذكر الله تعالى، فمن كان أكمل إيمانا وأكثر ذكرا كان دفع الله تعالى عنه ودفاعه أعظم، ومن نقص نقص، ذكرا بذكر ونسيانا بنسيان.اهـ[١]

باب عظيم من أبواب العلم: معرفة مفاتيح الخير والشر

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقد جعل الله سبحانه لكل مطلوب مفتاحا يفتح به فجعل مفتاح الصلاة الطهور... ومفتاح الحج الإحرام، ومفتاح البر الصدق، ومفتاح الجنة التوحيد، ومفتاح العلم حسن السؤال وحسن الإصغاء، ومفتاح النصر والظفر الصبر، ومفتاح المزيد الشكر، ومفتاح الولاية المحبة والذكر، ومفتاح الفلاح التقوى، ومفتاح التوفيق الرغبة والرهبة، ومفتاح الإجابة الدعاء، ومفتاح الرغبة في الآخرة الزهد في الدنيا، ومفتاح الإيمان التفكر فيما دعا الله عباده إلى التفكر فيه، ومفتاح الدخول على الله إسلام القلب وسلامته له والإخلاص له في الحب والبغض والفعل والترك، ومفتاح حياة القلب تدبر القرآن والتضرع بالأسحار وترك الذنوب، ومفتاح حصول الرحمة الإحسان في عبادة الخالق والسعي في نفع عبيده، ومفتاح الرزق السعي مع الاستغفار

(١) "الوابل الصيب" (ص ٧٢)

والتقوى، ومفتاح العز طاعة الله ورسوله ﷺ، ومفتاح الاستعداد للآخرة قصر الأمل، ومفتاح كل خير الرغبة في الله والدار الآخرة، ومفتاح كل شر حب الدنيا وطول الأمل.

وهذا باب عظيم من أنفع أبواب العلم وهو معرفة مفاتيح الخير والشر لا يوفق لمعرفته ومراعاته إلا من عظم حظه وتوفيقه فإن الله سبحانه وتعالى جعل لكل خير وشر مفتاحا وبابا يدخل منه إليه، كما جعل الشرك والكبر والأعراض عما بعث الله به رسوله والغفلة عن ذكره والقيام بحقه مفتاحا للنار، وكما جعل الخمر مفتاح كل إثم، وجعل الغنى مفتاح الزنا، وجعل إطلاق النظر في الصور مفتاح الطلب والعشق، وجعل الكسل والراحة مفتاح الخيبة والحرمان، وجعل المعاصي مفتاح الكفر، وجعل الكذب مفتاح النفاق، وجعل الشح والحرص مفتاح البخل وقطيعة الرحم وأخذ المال من غير حله، وجعل الإعراض عما جاء به الرسول ﷺ مفتاح كل بدعة وضلالة.

وهذه الأمور لا يصدق بها إلا كل من له بصيرة صحيحة وعقل يعرف به ما في نفسه وما في الوجود من الخير والشر، فينبغي للعبد أن يعتني كل الإعتناء بمعرفة المفاتيح وما جعلت المفاتيح له، والله ومن وراء توفيقه وعدله، له الملك وله الحمد وله النعمة والفضل، لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون.اه(١)

---

(١) "حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح" (ص: ٦٨)

سموم القلب

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والذنوب للقلب بمنزلة السموم، إن لم تهلكه أضعفته، ولا بد وإذا ضعفت قوته، لم يقدر على مقاومة الأمراض، قال طبيب القلوب عبد الله بن المبارك:

رأيت الذنوب تميت القلوب   وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب   وخير لنفسك عصيانها

فالهوى أكبر أدوائها، ومخالفته أعظم أدويتها، والنفس في الأصل خلقت جاهلة ظالمة، فهي لجهلها تظن شفاءها في اتباع هواها، وإنما فيه تلفها وعطبها ولظلمها لا تقبل من الطبيب الناصح، بل تضع الداء موضع الدواء، فتعتمده وتضع الدواء موضع الداء، فتجتنبه فيتولد من بين إيثارها للداء، واجتنابها للدواء، أنواع من الأسقام والعلل التي تعي الأطباء ويتعذر معها الشفاء.اهـ[١]

عامَّة أسباب فساد الأبناء

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وكم ممن أشقى ولده وفلذة كبده في الدنيا والآخرة بإهماله وترك تأديبه وإعانته له على شهواته، ويزعم أنه يكرمه وقد أهانه، وأنه يرحمه وقد ظلمه وحرمه، ففاته انتفاعه بولده، وفوت عليه حظه في الدنيا والآخرة، وإذا اعتبرت الفساد في الأولاد رأيت عامته من قِبل الآباء.اهـ[٢]

---

(١) "زاد المعاد" (١٨٦/٤)

(٢) "تحفة المولود" (ص ٢٤٢)

حصن المسلم من العين والحسد.

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فما يكاد العين والحسد والأذى يتسلط على محسن متصدق وإن أصابه شيء من ذلك كان معاملاً فيه باللطف والمعونة والتأييد، وكانت له فيه العاقبة الحميدة، فالمحسن المتصدق في خفارة إحسانه، وصدقته عليه من الله جنة واقية وحصن حصين.اهـ[١]

كل معصية عيرت بها أخاك فهي إليك

قال الإمام أبو إسماعيل الهروي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكل معصية عيرت بها أخاك فهي إليك».

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ- في شرح هذه الجملة-: وقوله: «وكل معصية عيرت بها أخاك فهي إليك»: يحتمل أن يريد به: أنها صائرة إليك ولا بد أن تعملها... ويحتمل أن يريد: أن تعييرك لأخيك بذنبه أعظم إثما من ذنبه وأشد من معصيته، لما فيه من صولة الطاعة، وتزكية النفس، وشكرها، والمناداة عليها بالبراءة من الذنب، وأن أخاك باء به، ولعل كسرته بذنبه، وما أحدث له من الذلة والخضوع، والإزراء على نفسه، والتخلص من مرض الدعوى، والكبر والعجب، ووقوفه بين يدي الله ناكس الرأس، خاشع الطرف، منكسر القلب أنفع له، وخير من صولة طاعتك، وتكثرك بها والاعتداد بها، والمنة على الله وخلقه بها، فما أقرب هذا العاصي من رحمة الله! وما أقرب هذا المدل من مقت

---

(١) "بدائع الفوائد" (٢/٢٤٢)

الله، فذنب تذل به لديه، أحب إليه من طاعة تدل بها عليه، وإنك أن تبيت نائما وتصبح نادما، خير من أن تبيت قائما وتصبح معجبا، فإن المعجب لا يصعد له عمل، وإنك إن تضحك وأنت معترف، خير من أن تبكي وأنت مدل، وأنين المذنبين أحب إلى الله من زجل المسبحين المدلين، ولعل الله أسقاه بهذا الذنب دواء استخرج به داء قاتلا هو فيك ولا تشعر.

فلله في أهل طاعته ومعصيته أسرار لا يعلمها إلا هو، ولا يطالعها إلا أهل البصائر، فيعرفون منها بقدر ما تناله معارف البشر، ووراء ذلك ما لا يطلع عليه الكرام الكاتبون.اهـ(١)

الصبر والشكر طريق الاعتبار والتفكر

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وإنما كان الصبر والشكر سببا لانتفاع صاحبهما بالآيات لأن الإيمان ينبني على الصبر والشكر، فنصفه صبر ونصفه شكر، فعلى حسب صبر العبد وشكره تكون قوة إيمانه، وآيات الله إنما ينتفع بها من آمن بالله ولا يتم له الإيمان إلا بالصبر والشكر، فإن رأس الشكر التوحيد ورأس الصبر ترك إجابة داعي الهوى، فإذا كان مشركًا متبعًا هواه لم يكن صابرًا ولا شكورًا فلا تكون الآيات نافعة له ولا مؤثرة فيه إيمانا.اهـ(٢)

---

(١) "مدارج السالكين" (١/١٩٤- ١٩٥)

(٢) "الفوائد" (ص: ١٣١)

التقوى طريق الهداية

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فإن الهداية لا نهاية لها ولو بلغ العبد فيها ما بلغ ففوق هدايته هداية أخرى وفوق تلك الهداية هداية أخرى إلى غير غاية، فكلما اتقى العبد ربه ارتقى إلى هداية أخرى فهو في مزيد هداية ما دام في مزيد من التقوى، وكلما فوت خطا من التقوى فاته حظ من الهداية بحسبه فكلما اتقى زاد هداه وكلما اهتدى زادت تقواه قال تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ١٦ ﴾ [المائدة: ١٥ – ١٦]، وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى: ١٣] وقال: ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ١٠ ﴾ [الأعلى: ١٠] وقال: ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ١٣ ﴾ [غافر: ١٣] ، وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ﴾ [يونس: ٩] فهداهم أولا للإيمان فلما آمنوا هداهم للإيمان هداية بعد هداية ونظير هذا قوله: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ﴾ [مريم: ٧٦] وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الأنفال: ٢٩] ومن الفرقان ما يعطيهم من لنور الذي يفرقون به بين الحق والباطل والنصر والعز الذي يتمكنون به من إقامة الحق وكسر الباطل، فسر الفرقان بهذا وبهذا.اهـ[١]

---

(١) "الفوائد"(ص: ١٣٠)

من روائع ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فكم أفسدت الغيبة من أَعمال الصَّالِحين، وَكم أحبطت من أجور العاملين، وَكم جلبت من سخط رب الْعَالمين، فالغيبة فَاكِهَة الأرزلين، وَسلَاح العاجزين، مُضْغَة طالما لَفظهَا الْمُتَّقِينَ، نَغمَة طالما مجها أسماع الأكرمين. فرحم الله امرءا لم يفْسد عبَادَة يهديها إِلَى حَضْرَة الْعَزِيز الرَّحِيم بلقمة حرَام تعقب طَعَام الزقوم وشراب الْحَمِيم، فَهِيَ كلمة مَا استحلاها إِلَّا طبع لئيم.اهـ[١]

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: واعلم أن الطريق الموصلة إلى الحق سبحانه ليست مما يقطع بالإقدام، وإنما يقطع بالقلوب، والشهوات العاجلة قطاع الطريق، والسبيل كالليل المدلهم؛ غير أن عين الموفق بصر فرس؛ لأنه يرى في الظلمة كما يرى في الضوء، والصدق في الطلب منار، أين وجد يدل على الجادة؛ وإنما يتعثر من لم يخلص، وإنما يمتنع الإخلاص ممن لا يراد، فلا حول ولا قوة إلا بالله.اهـ[٢]

ومن وصاياه لولده قال: واعلم يا بُني أن الأيام تُبسطُ ساعات، والساعات تبسط أَنفَاسًا، وَكُلُ نَفَسٍ خِزَانَةٌ، فاحْذَرْ أَن يَذهبَ نَفَسٌ بغيرِ شَيء، فَتَرَى في القيامة خِزَانَة فارغةً فَتَنْدَمَ.اهـ[٣]

---

(١) "التذكرة في الوعظ" (ص: ١٢٤)

(٢) "صيد الخاطر" (ص: ٣٦٧)

(٣) "صيد الخاطر" (ص٥٠٥)

سَجْعٌ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: {لَقَدْ كُنْتَ فِي غفلة من هذا}

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كَأَنَّكَ بِالْعُمْرِ قَدِ انْقَرَضَ، وَهَجَمَ عَلَيْكَ الْمَرَضُ، وَفَاتَ كُلُّ مُرَادٍ وَغَرَضٍ، وَإِذَا بِالتَّلَفِ قَدْ عَرَضَ أَخَّاذًا ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾ [ق: ٢٢]

شخص البصر وسكن الصوت، ولم يمكن التَّدَارُكُ لِلْفَوْتِ، وَنَزَلَ بِكَ مَلَكُ الْمَوْتِ فَسَامَتِ الرُّوحُ وَحَازَى ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾.

عَالَجْتَ أَشَدَّ الشَّدَائِدِ، فَيَا عَجَبًا مِمَّا تُكَابِدُ، كَأَنَّكَ قَدْ سُقِيتَ سُمَّ الأَسَاوِدِ فَقَطَعَ أَفْلاذًا ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾.

بَلَغَتِ الرُّوحُ إِلَى التَّرَاقِي، وَلَمْ تَعْرِفِ الرَّاقِيَ مِنَ السَّاقِي، وَلَمْ تَدْرِ عِنْدَ الرَّحِيلِ مَا تُلاقِي، عِيَاذًا بِاللَّهِ عِيَاذًا ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾.

ثُمَّ دَرَجُوكَ فِي الْكَفَنِ وَحَمَلُوكَ إِلَى بَيْتِ الْعَفَنِ، عَلَى الْعَيْبِ الْقَبِيحِ وَالأَفَنِ، وَإِذَا الْحَبِيبُ مِنَ التُّرَابِ قَدْ حَفَنَ، وَصِرْتَ فِي الْقَبْرِ جُذَاذًا ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾.

وَتَسَرَّبَتْ عَنْكَ الأَقَارِبُ تَسْرِي، تَقُدُّ فِي مَالِكَ وَتُفْرِي، وَغَايَةُ أَمْرِهِمْ أَنْ تَجْرِيَ دُمُوعُهُمْ رَذَاذًا ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾.

قَفَّلُوا الأَقْفَالَ وَبَضَّعُوا الْبِضَاعَةَ، وَنَسُوا ذِكْرَكَ يَا حَبِيبَهُمْ بَعْدَ سَاعَةٍ، وَبَقِيتَ هُنَاكَ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، لا تَجِدُ وَزَرًا وَلا مَعَاذًا ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾

ثُمَّ قُمْتَ مِنْ قَبْرِكَ فَقِيرًا، لا تَمْلِكُ مِنَ الْمَالِ نَقِيرًا، وَأَصْبَحْتَ بِالذُّنُوبِ عَقِيرًا،

فَلَوْ قَدَّمْتَ مِنَ الْخَيْرِ حَقِيرًا صَارَ مَلْجَأً وَمَلاذًا، ﴿ لَقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾.

وَنُصِبَ الصِّرَاطُ وَالْمِيزَانُ، وَتَغَيَّرَتِ الْوُجُوهُ وَالأَلْوَانُ، وَنُودِيَ: شَقِيَ فُلانُ بْنُ فُلانٍ، وَمَا تَرَى لِلْعُذْرِ نَفَاذًا ﴿ لَقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾.

كَمْ بَالَغَ عَذُولُكَ فِي الْمَلامِ، وَكَمْ قَعَدَ فِي زَجْرِكَ وَقَامَ، فَإِذَا قَلْبُكَ مَا اسْتَقَامَ، قُطِعَ الْكَلامُ عَلَى ذَا {﴿ لَقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾ .

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ[١].

سباعية الذكر العظيمة النافعة

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أول ما يحتاج إليه العازم على ذكر الله التفرغ من الشواغل الظاهرة، ثم تسكين جوارح البدن عن الحركات الشاغلة، ثم قطع الفكر عن قلبه، ثم إشعار نفسه عظمة ما قد عزم عليه من ذكر ربه، ثم استفراغ الوسع في تجويد الذكر، ثم إطالة المجلس ما أمكنه إطالته، ثم التحفظ بالحالة التي استفادها قلبه من الرقة باجتناب الملهيات من حين يقوم عن الذكر إلى أن يعود إليه، **فهذه الشرائط السبع من راعاها حق الرعاية بلغ من مراد الذاكرين أقصى الغاية**.اهـ[٢]

---

(١) "التبصرة لابن الجوزي" (٢/٢٥٨)

(٢) "التذكرة في الوعظ" ص (١١٩)

من روائع الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ

نصيحة تكتب بماء الذهب

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فينبغي للمؤمن أن يحزن لفوات الفضائل الدينية، ولهذا أمر أن ينظر في الدين إلى من فوقه، وأن ينافس في طلب ذلك جهده وطاقته، كما قال تعالى: ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴾ [المطففين: ٢٦] ولا يكره أن أحدا يشاركه في ذلك، بل يحب للناس كلهم المنافسة فيه، ويحثهم على ذلك، وهو من تمام أداء النصيحة للإخوان. كما قال الفضيل: «إن كنت تحب أن يكون الناس مثلك، فما أديت النصيحة لربك، كيف وأنت تحب أن يكونوا دونك؟» يشير إلى أن النصيحة لهم أن يحب أن يكونوا فوقه، وهذه منزلة عالية، ودرجة رفيعة في النصح، وليس ذلك بواجب، وإنما المأمور به في الشرع أن يحب أن يكونوا مثله، ومع هذا، فإذا فاقه أحد في فضيلة دينية، اجتهد على لحاقه، وحزن على تقصير نفسه، وتخلفه عن لحاق السابقين، لا حسدا لهم على ما آتاهم الله، بل منافسة لهم، وغبطة وحزنا على النفس بتقصيرها وتخلفها عن درجات السابقين.

وينبغي للمؤمن أن لا يزال يرى نفسه مقصرا عن الدرجات العالية، فيستفيد بذلك أمرين نفيسين: الاجتهاد في طلب الفضائل، والازدياد منها، والنظر إلى نفسه بعين النقص، وينشأ من هذا أن يحب للمؤمنين أن يكونوا خيرا منه، لأنه لا يرضى لهم أن يكونوا على مثل حاله، كما أنه لا يرضى لنفسه بما هي عليه، بل يجتهد في إصلاحها. وقد قال محمد بن واسع لابنه: «أما أبوك، فلا كثر

الله في المسلمين مثله». فمن كان لا يرضى عن نفسه، فكيف يحب للمسلمين أن يكونوا مثله مع نصحه لهم؟ بل هو يحب للمسلمين أن يكونوا خيرا منه، ويحب لنفسه أن يكون خيرا مما هو عليه.اهـ[١]

سبب عظيم من أسباب إجابة الدعاء نحن عنه غافلون

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن المؤمن إذا استبطأ الفرج، وأيس منه بعد كثرة دعائه وتضرعه، ولم يظهر عليه أثر الإجابة يرجع إلى نفسه باللائمة، وقال لها: إنما أتيت من قبلك، ولو كان فيك خير لأجبت، وهذا اللوم أحب إلى الله من كثير من الطاعات، فإنه يوجب انكسار العبد لمولاه واعترافه له بأنه أهل لما نزل به من البلاء، وأنه ليس بأهل لإجابة الدعاء، فلذلك تسرع إليه حينئذ إجابة الدعاء وتفريج الكرب، فإنه تعالى عند المنكسرة قلوبهم من أجله.اهـ[٢]

---

(١) "جامع العلوم والحكم" (١/٣٠٩- ٣١٠).

(٢) "جامع العلوم والحكم"(٢/٥٨٩)

واحة العلم والدعوة

كن عالما

هذه الألفيات العشر التي من حفظها واستقرأها بعد القرآن والسنة صار عالما وحاز جل العلوم بمشيئة الله تعالى وتوفيقه:

١- "ألفية ابن مالك في النحو والصرف" للعلامة محمد بن عبدالله بن مالك الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٢- "ألفية عقود الجمان في علم المعاني والبلاغة والبيان" للعلامة السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٣- ألفية أصول الفقه للعلامة السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ المسماة: "الكوكب الساطع نظم جمع الجوامع".

٤- ألفية العلامة السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مصطلح الحديث المسماة: "ألفية أهل الأثر".

٥- ألفية الحافظ العراقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في السيرة النبوية المسماة: "الدرر السنية في السيرة الزكية" على صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

٦- "ألفية غريب القرآن" لابن العالم التواتي رحمه الله .

٧- "طيبة النشر في القراءات " للعلامة ابن الجزري رحمه الله .

٨- "عمود النسب في أنساب العرب" للعلامة أحمد البدوي الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ

٩- نونية ابن القيم رحمه الله في العقيدة المسماة: "الكافية الشافية في الإنتصار

للفرقة الناجية" .

١٠- ألفية الفرائض المسماة: "عمدة كل فارض في علم الوصايا والفرائض" للعلامة صالح بن حسن البهوتي رحمه الله .

العابد العالم المفضول المغرور

قال الإمام الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وكل من لم يزم نفسه في تعبده وأوراده بالسنة النبوية، يندم ويترهب ويسوء مزاجه، ويفوته خير كثير من متابعة سنة نبيه الرؤوف الرحيم بالمؤمنين، الحريص على نفعهم، وما زال ﷺ معلما للأمة أفضل الأعمال، وآمرا بهجر التبتل والرهبانية التي لم يبعث بها، فنهى عن سرد الصوم، ونهى عن الوصال، وعن قيام أكثر الليل إلا في العشر الأخير، ونهى عن العزبة للمستطيع، ونهى عن ترك اللحم، إلى غير ذلك من الأوامر والنواهي.

فالعابد بلا معرفة لكثير من ذلك معذور مأجور، والعابد العالم بالآثار المحمدية، المتجاوز لها مفضول مغرور، وأحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قل. ألهمنا الله وإياكم حسن المتابعة، وجنبنا الهوى والمخالفة.اه[1]

رحم الله الإمامين هشامًا والذهبي

قال عون بن عمارة: سمعت هشاما الدستوائي يقول: «والله ما أستطيع أن أقول: إني ذهبت يوما قط أطلب الحديث أريد به وجه الله -عز وجل».

---

(١) "سير أعلام النبلاء" (٨٥/٣)

قلت- الذهبي-: والله ولا أنا فقد كان السلف يطلبون العلم لله، فنبلوا، وصاروا أئمة يقتدى بهم، وطلبه قوم منهم أولا لا لله، وحصلوه ثم استفاقوا، وحاسبوا أنفسهم فجرهم العلم إلى الإخلاص في أثناء الطريق كما قال مجاهد، وغيره: «طلبنا هذا العلم، وما لنا فيه كبير نية ثم رزق الله النية بعد»، وبعضهم يقول: «طلبنا هذا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله». فهذا أيضًا حسن ثم نشروه بنية صالحة. وقوم طلبوه بنية فاسدة لأجل الدنيا، وليثنى عليهم فلهم ما نووا. قال عليه السلام: «من غزا ينوي عقالا فله ما نوى»[1]، وترى هذا الضرب لم يستضيؤوا بنور العلم، ولا لهم وقع في النفوس، ولا لعلمهم كبير نتيجة من العمل، وإنما العالم من يخشى الله تعالى. وقوم نالوا العلم، وولوا به المناصب فظلموا، وتركوا التقيد بالعلم، وركبوا الكبائر والفواحش فتبا لهم فما هؤلاء بعلماء!. وبعضهم لم يتق الله في علمه بل ركب الحيل، وأفتى بالرخص، وروى الشاذ من الأخبار. وبعضهم اجترأ على الله، ووضع الأحاديث فهتكه الله، وذهب علمه، وصار زاده إلى النار، وهؤلاء الأقسام كلهم رووا من العلم شيئا كبيرا، وتضلعوا منه في الجملة فخلف من بعدهم خلف بأن نقصهم في العلم والعمل، وتلاهم قوم انتموا إلى العلم في الظاهر، ولم يتقنوا منه سوى نزر يسير أوهموا به أنهم علماء فضلاء، ولم يدر في أذهانهم قط أنهم يتقربون به

---

(١)أخرجه أحمد(٣١٥/٥)، والدارمي(٢٠٨/٢)، والنسائي(٢٤/٦)، من حديث عبادة بن الصامت، مرفوعا، بلفظ:«من غزا في سبيل الله، ولم ينو إلا عقالا، فله ما نوى». وفي سنده يحي بن الوليد بن عبادة بن الصامت، لم يوثقه غير ابن حبان، وباقي رجاله ثقات.

إلى الله لأنهم ما رأوا شيخا يقتدى به في العلم فصاروا همجا رعاعا غاية المدرس منهم أن يحصل كتبا مثمنة يخزنها وينظر فيها يوما ما فيصحف ما يورده، ولا يقرره. فنسأل الله النجاة والعفو كما قال بعضهم: ما أنا عالم، ولا رأيت عالما.اهـ(١)

قلت: إذا كان هذا كلامهما في ذلك الزمان، فماذا يقال اليوم؟!

رحمك الله أيها الذهبي، ماذا كنت تقول لو أدركت بعض ما نحن فيه؟!! وكأني به قد أبصر عيوبنا في هذا الزمان، من قلة العلماء، والتنافس على الدنيا، وطلب المحمدة وحب الظهور في أوساط بعض المتعلمين والمتعالمين، وكثرة الهمج الرعاع المتشبعون بما لم يُعطَوا، فرحماك ربنا، وعافيتك أوسع لنا.

قاعدة نافعة عظيمة في دراسة المتون العلمية

قال ابن بدران رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَاعْلَم أَن للمطالعة وللتعليم طرقا ذكرهَا الْعلمَاء وإننا نثبت هُنَا مَا أخذناه بالتجربة ثمَّ نذْكر بَعْضًا من طرقهم لِئَلَّا يَخْلُو كتابنَا هَذَا من هَذِه الْفَوَائِد. إذا تمهد هَذَا فَاعْلَم أننا اهتدينا بفضله تَعَالَى أثْنَاء الطّلب إِلَى قَاعِدَة وَهِي أننا كُنَّا نأتي إِلَى الْمَتْن أَولا فنأخذ مِنْهُ جملَة كَافِيَة للدرس ثمَّ نشتغل بِحل تِلْكَ الْجُمْلَة من غير نظر إِلَى شرحها ونزاولها حَتَّى نظن أننا فهمنا ثمَّ نقبل على الشَّرْح فنطالعه المطالعة الأولى امتحانا لفهمنا فَإِن وجدنَا فِيمَا فهمناه غَلطا صححناه ثمَّ أَقبلنَا على تفهم الشَّرْح على نمط مَا فَعَلْنَاهُ فِي الْمَتْن، ثمَّ إِذا ظننا أننا فهمناه راجعنا حَاشِيَته إِن كَانَ لَهُ حَاشِيَة

(١) "سير أعلام النبلاء" (٦/٥٧٠- ٥٧١)

مُرَاجعَة امتحان لفكرنا، فَإِذا علمنَا أننا فهمنا الدَّرْس تركنَا الكتاب وَاشْتَغَلْنَا بتصوير مَسْأَلَة فِي ذهننا فحفظناه حفظ فهم وتصور لَا حفظ تراكيب وألفاظ، ثمَّ نجتهد على أَدَاء مَعْنَاهُ بعبارات من عندنَا غير ملتزمين تراكيب الْمُؤلف، ثمَّ نَذْهَب إِلَى الْأُسْتَاذ للْقِرَاءَة وهنالك نمتحن فكرنا فِي حل الدَّرْس ونُقَوِّم مَا عساه أَن يكون بِهِ من اعوجاج ونوفر الهمة على مَا يُورِدهُ الْأُسْتَاذ مِمَّا هُوَ زَائِد على الْمَتْن وَالشَّرْح وَكُنَّا نرى أَن من قَرَأَ كتابا وَاحِدًا من فَنٍّ على هَذِه الطَّرِيقَة سهل عَلَيْهِ جَمِيع كتب هَذَا الفن؛ مختصراتها ومطولاتها، وَثبتت قَوَاعِده فِي ذهنه وَكَانَ الْأَمر على ذَلِك.اهـ[1]

جعل العلم في غير أهله مضيعة

قال الإمام الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: نقل أبو الشَّيْخ بْن حيان وغيره من وجهٍ أنّ الشّافعيّ لمّا دخل مصر أتاه جلّةُ أصحاب مالك، وأقبلوا عَلَيْهِ، فلمّا رأوْه يخالف مالكًا وينقض عَلَيْهِ تنكروا لَهُ وجفوه، فأنشأ يَقُولُ:

أَأنثر درّا بين سَارحة النَّعَم؟ ... أَأَنْظُمُ منثورًا لراعية الْغَنَمْ؟
لَعَمْري لَئِنْ ضُيـِّعْتُ في شَرِّ بَلْدةٍ ... فلستُ مُضِيعًا بينهم غُرَرَ الْكَلِمْ
فـإنْ فَـرَّج اللَّهُ اللّطيف بلُطْفِه ... وصادَفْتُ أهلًا للعلوم وَالْحِكَمْ
بَثَثْتُ مُفِيدًا واستَفَدْتُ ودَادَهُمْ ... وإلّا فمخزونٌ لديّ ومُكْتَتَمْ

---

(١) "المدخل إلى مذهب الإمام أحمد" لابن بدران (ص: ٤٨٩).

وَمَنْ مَنَح الْـجُهَّالَ عِلْمًا أضَاعَهُ ... ومَن مَنَعَ المُسْتَوجِبِينَ فقد ظَلَمْ
وكاتمُ عِلْم الـدِّين عمّن يُرِيــدُهُ ... يَــبُوء بأَوْزارٍ وآثِــمٍ إذا كَتَــم[١]

أخطاءٌ لغويَّة في ضَبط ألفاظ السنَّة النبويَّة[٢]

أجمع العربُ قديمًا وحديثًا على أن النبيَّ ﷺ أفصحُ من نطق بالضَّاد، وأنه أُوتيَ جوامعَ الكَلِم، وأن كلامَه أبلغُ كلامٍ بعد كلام الله المعجِز؛ القرآن الكريم.

ومن هنا كانت سنَّته القَوليَّة مصدرًا رئيسًا من مصادر العربيَّة، وميزانًا دقيقًا للفَصيح من القَول، ومثالاً يُحْتَذى لطالب البيان وناشِد التبيين.

وإن تعجَبْ فعَجَبٌ أن يتطرَّقَ اللحنُ والخَطَلُ إلى أحاديثِ النبيِّ ﷺ، على ألسنتنا وأقلامنا؛ لأنها - على ما أَلْمَعْنا - ميزانٌ، وإذا اختلَّ الميزان وقعَ من الفساد ما يَهول. فالحِرصُ على أداء ألفاظ السنَّة النبويَّة على الوَجْه الصحيح الذي انتهَت به إلينا واجبٌ شرعيٌّ وعلميٌّ، لا يُقبَل التهاونُ به بحال، ومما يلحَنون فيه - كتابةً ونُطقًا - من حديث النبيِّ ﷺ- ما يلي:

١- قولُه ﷺ في الحثِّ على إكرام الزوجة وحُسن عِشرتها:«لا يَفْرَك مؤمنٌ مؤمنةً، إن كَرِهَ منها خُلُقًا رَضِيَ منها آخَر[٣]».

فيَضبِطونَه: (يفرُك) بضم الراء، وهو خطأٌ مُفسِد للمعنى، والصَّواب في

---

(١) "تاريخ الإسلام" (١٦٨/٥)

(٢) مستفاد من مقال للأستاذ أيمن بن أحمد ذوالغنى – وفقه الله-.

(٣)أخرجه مسلم(١٤٦٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

ضبطه: (يَفْرَك) بفتح الراء، ومعناه: يُبْغِض، يقال: فَرِكَ الرجلُ امرأتَه يَفْرَكُها: إذا أبغَضَها. وأكثرُ ما يُستعمَل هذا الفعلُ في بِغْضَة الزوجين، أي: بُغْض الرجل زوجتَه، أو بُغْضها إياه. وأما (يَفْرُك) فمعناه: يدلُك ويَحُتُّ، يقال: فَرَكَ الرجلُ السنبلَ والثوبَ ونحوَهما يَفْرُكُه: إذا دَلَكَه وحَتَّه بيده.

٢- ومن ذلك أيضًا: ما يقعُ في ضبط الحديث: «الحبَّةُ السوداءُ شِفاءٌ من كلِّ داءٍ إلا السَّامَ»[١].

فيَضبِطونه: (إلا السَّامَّ) بتشديد الميم؛ ظنًّا منهم أن المُرادَ بها: ما فيه السَّمُّ، وجذرَها (س م م)، وليس بذاك، والصَّواب فيها أنها مخفَّفةُ الميم، أي: (إلا السَّامَ) وهو: الموت، من الجذر (س و م)، والألفُ فيها منقلبةٌ عن واو.

٣- ومما يلحَن فيه بعض الناس من حديث رسول الله ﷺ قولُه: «إنَّ رُوحَ القُدُسِ نَفَثَ في رُوْعي؛ أن نَفْسًا لن تموتَ حتى تَسْتكمِلَ رزقَها؛ فاتَّقوا الله، وأَجْمِلوا في الطَّلَب»[٢].

فيَضبِطونَه: (في رَوْعي) بفتح الراء، وهو ضبطٌ مفسدٌ للمعنى، والصواب: ضمُّ

---

(١)متفقٌ عليه من حديث أبي هريرة، [خ (٥٦٨٨) م (٢٢١٥)].

(٢)حسن لغيره: أخرجه البزار في "المسند"(٢٩١٤)، والقضاعي في "مسند الشهاب" (١١٥١)، وابن أبي شيبة في "مصنفه"(٧٩/٧، رقم ٣٤٣٣٢)، وهناد فى "الزهد" (٢٨١/١، رقم ٤٩٤)، والدارقطنى فى "العلل" (٢٧٣/٥، رقم ٨٧٥)، والبيهقى فى "شعب الإيمان" (٢٩٩/٧، رقم ١٠٣٧٦) وسنده منقطع، لكن قد روي من حديث أبي أمامة ومن حديث حذيفة ومن حديث المطلب بن حَنْطَب ومن حديث جابر ومن حديث سعد. انظر: "أنيس الساري في تخريج أحاديث فتح الباري" (١٨٢٧/٣)

الراء (فِي رُوْعي)؛ لأن الرُّوْع هو: القلبُ والنفْسُ، والذِّهنُ والعَقلُ.

والمراد: أن رُوحَ القُدُس - وهو: جبريلُ عليه السلام - نَفَثَ، أي: نفخَ - وَحْيًا وإلهامًا - في قلب النبيِّ ﷺ ونفْسِه بالأمر المذكور.

وأما الرَّوْع بالفتح فهو: الفَزَعُ والخَوفُ، وهو غيرُ مرادٍ هنا.

٤- ومن ذلك أيضًا: قولُه ﷺ مخاطبًا خَتَنَه -زوج ابنته- وابنَ عمِّه عليَّ بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «فَوَاللهِ، لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رجُلًا واحِدًا خَيرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ»(١).

فيَضبِطونَه: (النِّعَم) بكسر النون؛ لتوهُّمِهم أنها جمعُ نِعْمَة، والحقُّ أنها (النَّعَم) بفتح النون، وهو جمعٌ لا واحدَ له من لفظِه، يُطلَق على جماعة الإبِلِ والبَقَر والغَنَم، وأكثرُ ما يُطلَق على الإبِلِ خاصَّة.

والمراد بحُمْر النَّعَم: كرائمُها وخِيارُها. قال الفيُّومي: وهو مَثَلٌ في كلِّ نفيس "المصباح المنير" (ح م ر)، والعربُ تقول: خيرُ الإبِلِ حُمْرُها وصُهْبُها (الناقة الصَّهْباء هي: الشَّقْراء أو الحَمراء).

٥- قوله ﷺ: «اللهُمَّ لا سَهْلَ إلا ما جَعَلتَهُ سَهْلا، وأنت تَجعَلُ الحَزْنَ إذا شئتَ سَهْلا»(٢).

---

(١)متفقٌ عليه من حديث سهل بن سعد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ [خ (٣٠٠٩)م (٢٤٠٦)]

(٢)أخرجه ابن حبان في "صحيحه"(٩٧٤) وابن السني في "عمل اليوم والليلة"(٣٥١) والبيهقي في "الدعوات الكبير"(٢٦٥) من حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ. وهو في "الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين" (٧٢/١)، و"الصحيحة" (٢٨٨٦).

والحَزْنُ (بفتح الحاء، وسكون الزاي): ما غَلُظَ من الأرض وخَشُنَ وارتَفَع. ومعناهُ في هذا الحديث: كلُّ أمر شاقٍّ وَعْر مُتَصَعِّب، وهو عكسُ السَّهْل الهيِّن.

وما أكثرَ ما يُخطئ الخطباءُ والكَتَبَةُ فيضبطونها: الحَزَن (بفتح الحاء والزاي)، فيُحيلون المعنى عن وجهه المراد؛ لأن الحَزَن كالحُزْن، وهو: الهَمُّ والغَمُّ، ومنه قوله تعالى: ﴿ الحَمدُ لله الَّذي أذْهَبَ عنَّا الحَزَن ﴾ [فاطر: ٣٤].

٦- ومما يقعُ الوَهَمُ في ضبطه من حديث النبيِّ ﷺ: قولُه:«مَطْلُ الغَنيِّ ظُلمٌ »[1].

فيقولون: مُطْل (بضم الميم)، والصواب: مَطْل (بفتحها).

والمَطْلُ: هو تأجيلُ مَوعِد الوَفاء بالدين مع القدرة على القضاء.

٧- ومنه أيضًا: قولُه ﷺ:«لا رُقْيَةَ إلاَّ مِن عَينٍ أو حُمَةٍ»[2].

فيضبطونها: حُمَّة (بتشديد الميم)، والحُمَّةُ والحُمَّى بمعنًـى واحد، وهو: ارتفاعُ حرارة الجسم من مَرَضٍ وعِلَّة [من الجذر (ح م م)]، وليس هذا المرادَ في حديثنا، والصوابُ فيها: تخفيفُ الميم، حُمَة [من الجذر (ح م ي)]، وهي: سَمُّ كلِّ ما يَلدَغُ ويَلسَعُ، وتُطلَق أيضًا على الإبْرَة التي بها يُلدَغ ويُلسَع.

٨- في قول النبي ﷺ:«المؤمنُ القَويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله منَ المؤمن الضَّعيف، وفي كُلٍّ خيرٌ، احرِصْ على ما ينفَعُك، واستعِنْ بالله ولا تَعْجِز، وإن أصابَكَ شيءٌ فلا تقُل: لو أنِّي فعَلتُ كان كذا وكذا، ولكنْ قُل: قَدَرُ الله وما شاءَ فعَل؛ فإنَّ

---

(١)متفق عليه من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [خ (٢٢٨٧) م(١٥٦٤)]

(٢)أخرجه أحمد (١٩٩٠٨)، وأبو داود (٣٨٨٤)، والبزار في "مسنده"(٣٥٩٧)، والترمذي (٢٠٥٧)، من حديث عِمرانَ بن حُصَين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

لو تفتحُ عملَ الشيطان»[١].

وقلَّما يُضبَط هذا الفعلُ (تعجز) على الصَّواب، وأكثرُ ما يُضبَط في الكتب رَسمًا، ويَنطِقُ به الخطباءُ والمتكلِّمون لفظًا: (تَعْجَز) بفتح الجيم، وهو خطأٌ مخالفٌ لما نصَّ عليه غيرُ إمام من شُرَّاح كتب السنَّة؛ من أنها: بكسر الجيم؛ لأن الفعلَ (عجز) هنا من العَجْز الذي هو: الضَّعفُ وانقطاعُ الحيلَة دونَ الأمر، فهو بوزن ضَرَبَ، أي: عَجَزَ يَعْجِزُ (بفتح الجيم في الماضي، وكسرها في المضارع).

وأما إذا كان بوزن فَرِحَ، أي: عَجِزَ يَعْجَزُ (بكسر الجيم في الماضي، وفتحها في المضارع) فيكون من العَجيزَة، وهي: مُؤخَّرُ المرأة، يقال: عَجِزَت المرأةُ تَعْجَزُ: إذا عَظُمَت عَجيزَتها.

٩- قوله ﷺ: «مَنْ بَنى للهِ مَسْجِدًا، ولو كمَفْحَص قَطاةٍ لِبَيْضِها، بَنى اللهُ له بيتًا في الجنَّة»[٢].

يُقال: فَحَصَت القَطاةُ فَحْصًا: حفَرَت في الأرض مَوضِعًا تَبيضُ فيه، واسمُ ذلك الموضِع: (مَفْحَص) بفتح الميم والحاء، وجَمعُه: مَفاحِص.

ويخطئُ بعضُ الكتَّاب والخُطَباء فيَضبطونها: (مِفْحَص) بكسر الميم، بوزن (مِفْعَل)، والصَّواب أنها كما تقدم: بفتح الميم (مَفْحَص)، بوزن (مَفْعَل)؛ لأنها

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) صحيح لغيره: أخرجه أحمد (٢١٥٧)، وأبو داود الطيالسي (٢٧٣٩) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وفي "صحيح الترغيب والترهيب" (١/٢٢٨)(٢٧٢).

اسمُ مكانٍ من الفعل الثلاثيِّ: فَحَصَ، ومضارعُه: يَفحَصُ (مفتوح العين)، وما كان كذلكَ فإن اسم المكان منه يُصاغُ على وزن مَفْعَل.

١٠- قوله ﷺ:«لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ التُّرْكَ، قَوْمًا وُجُوهُهُمْ كَالْمَجَانِّ الْمُطْرَقَةِ،يَلْبَسُونَ الشَّعَرَ، وَيَمْشُونَ فِي الشَّعَرِ»[1].

فيَضْبطونَ قوله (يلبسون): بكسر الباء، وهو خطأٌ يَجْنَحُ بالمعنى عن وَجهه. والصَّواب: أن هذا الفعلَ - في هذا السِّياق - من باب (تَعِبَ)، نقول: لَبِسَ الرجلُ الثَّوبَ يَلْبَسُه (بكسر الباء في الماضي، وفتحها في المضارع): إذا استَتَر به وأفرَغَه على جِسْمِه.

وقد وردَ الفعلُ بهذا المعنى في مواضِعَ من كتاب الله تعالى، منها قولُه سبحانَه في وَصْف أهل الجنَّة من المؤمنينَ المحسنين: ﴿ يَلْبَسُونَ من سُنْدُسٍ وإسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾ [الدخان: ٥٣]، ومنها قولُه: ﴿ وهُوَ الَّذي سَخَّرَ البَحْرَ لِتَأكُلُوا مِنهُ لحَمًا طَرِيًّا وتَسْتَخرِجُوا مِنهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها﴾ [النحل: ١٤].

ويأتي هذا الفعلُ من باب (ضَرَبَ) ولكن بمعنى: الخَلْط، يقال: لَبَسَ عليه الأمرَ يَلْبِسُه أي: خَلَطَه عليه وجَعَلَه مُشْكِلا حتى لا يَعرفَ حقيقَتَه. ومنه قولُه تعالى: ﴿ ولا تَلْبِسُوا الحَقَّ بالباطِلِ وتَكْتُمُوا الحَقَّ وأنتُم تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٤٢]، وقولُه: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢)﴾.[الأنعام: ٨٢]

١١- منَ الأفعال التي قلَّما يُصيبُ الكتَّابُ والخُطَباءُ في ضَبطها: الفعلُ (يكبر)

---

(١)رواه مسلم (٢٩١٢) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

في قول النبيِّ ﷺ: «رُفِعَ القَلَمُ عَن ثَلاثَةٍ: عَن النَّائمِ حَتَّى يَسْتَيقِظَ، وعَن المُبْتَلى حَتَّى يَبْرَأَ، وعَن الصَّبِيِّ حَتَّى يَكْبَرَ». أخرجه أبو داود(٤٣٩٨) وابن ماجه(٢٠٤١)، والنسائي في "الكبرى"(٥٥٩٦)، وأحمد (٢٤٦٩٤)، وابن حبان (١٤٢). من حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

فإنَّهُم يَضْبطونَه (يَكْبُر) بضَمِّ الباء، والصَّوابُ فَتحُها: (يَكْبَر)، فهذا الفعلُ يكونُ من باب (فَعِلَ يَفْعَلُ) إذا أُريدَ به التقَدُّمُ في السِّنِّ؛ نقول: كَبِرَ الرجُلُ -أو الحَيَوانُ- يَكْبَرُ: إذا تقَدَّمَ في السِّنِّ. ومنه قَولُه تعالى: ﴿وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ﴾ [النساء: ٦]. والمُراد: لاتأكُلوا أموالَ اليَتامى مُسرِفينَ ومُبادِرِينَ كِبَرَهُم، أي: مُسارِعينَ في إنفاقِها؛ مَخافَةَ أن يَكْبَروا فيأخُذوها منكُم. ويكونُ هذا الفعلُ من باب (فَعُلَ يَفْعُلُ) إذا قُصِدَ به العِظَمُ، نقول: كَبُرَ الهَمُّ يَكْبُرُ: إذا عَظُمَ. ومن ذلك قَولُه تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥]. يقال: كَبُرَ الرجُلُ في قَدْرِهِ، وكَبِرَ في سِنِّهِ.

١٢- ومن الأفعال التي يكثُرُ الخطأُ في ضَبْطِها أيضًا: الفعل (يعمد)، ففي الحديث عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن رسولَ الله ﷺ رأى خاتَمًا من ذَهَبٍ في يد رجُل، فنَــزَعَهُ فطَرَحَهُ، وقال: «يَعْمِدُ أحَدُكُم إلى جَمْرَةٍ من نارٍ فيَجْعَلُها في يَدِهِ؟!»، فقيلَ للرجُل بعدَما ذهبَ رسولُ الله ﷺ: خُذ خاتَمَكَ انتَفِعْ به، قال:

لا واللهِ، لا آخُذُه أبدًا وقد طَرَحَهُ رسولُ الله ﷺ.[١]

فالفعلُ (يَعْمِدُ) مضارِع (عَمَدَ)، بمعنى: قَصَدَ، يتصَرَّفُ من الباب الثاني (باب: ضرب)، يُقال: عَمَدَ المظلومُ إلى القَضاء يَعْمِدُ. ويُخْطِئُ من يَجعَلُ هذا الفعلَ من الباب الثالث فيقول: عَمَدَ يَعْمَدُ. ولكنَّه يأتي منَ الباب الرابع، أي: عَمِدَ يَعْمَدُ، ولكن بمعانٍ أُخْرى مُجانِفَةٍ لمعنى (القَصْد) المرادِ في الحديثِ المذكور.

١٣- في قوله ﷺ: «إذا نَعَسَ أحَدُكُمْ وهُوَ يُصَلِّي فَلْيَرْقُد حتَّى يَذْهَبَ عنهُ النَّومُ؛ فإنَّ أحَدَكُم إذا صَلَّى وهُوَ ناعِسٌ، لعَلَّهُ يَذْهَبُ يَسْتَغْفِرُ فيَسُبُّ نَفْسَه»[٢].

فالفعلُ (نعس)، قلَّما يُصَرَّفُ من بابه الصَّحيح، وغالبًا ما يُضْبَط خَطأً: نَعِسَ، يقولون مثلا: نَعِسَ الطِّفلُ يَنْعَسُ، متوهِّمينَ أن هذا الفعلَ من الباب الرابع (باب: فرح)! والصَّواب: أنه من الباب الأول (باب: نصر)، نقول: نَعَسَ الطِّفلُ يَنْعُسُ، ويأتي في لغةٍ أُخرى من الباب الثالث (باب: فتح)، نقول: نَعَسَ الطِّفلُ يَنْعَسُ، وبهذا نلاحظُ أن الفعلَ (نعس) لا يكون في الماضي إلا مفتوحَ العين، في حينِ يجوزُ في مُضارعه الضَّمُّ والفَتحُ.

١٤- قولُ النبيِّ ﷺ: «الصِّيامُ جُنَّة».[٣]

---

(١) أخرجه مسلم(٢٠٩٠)

(٢) متفق عليه:[خ(٢١٢) م(٧٨٦)] من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) متفق عليه: [خ(١٨٩٤) م (١١٥١)] من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

و الخطأ هنا في ضَبطه فتح الجيم: (جَنَّة)،وصوابه بضم الجيم: (جُنَّة) أي: أنه وِقايَةٌ وسَتْر.

طالب العلم والعام الجديد

مع نهاية عامٍ قد تساقطت أوراق خريفه، وبداية عامٍ جديدٍ قد أقبلت تباشيرُ صبحه... أنصح كل طالب علم وأقول له: ياثمرة الفؤاد ومُهجة القلب وعنوان المجد إليك نصائح أُهديها لك من قلبي أسأل الله أن تصل إلى عروق قلبك:

- نظِّم طلبك للعلم ولن يكون طلبك للعلم منظم إلا بمنهجية علمية، عملية واضحة تكون تحت إشراف معلمك الذي تتعلم منه، ومن جرب عرف .

- إياك والفوضى الحاصلة عند كثير من الراغبين في العلم، والعجلة في تحصيل العلم . فإن ابن اللبون لايكون فحلًا إلا بعد العام الثامن .

- إلزم شيخك لزوم الظل للشجر حتى يظن الناس أنك ابنه أو أخوه، وقم على خدمته فإن عقوق المعلم صِنوَ عقوق الوالد .

- لاتشتت نفسك في طلب العلم، وركز مع معلمك، واجعل تحصيلك للعلم كحنجرة العصفور لايدخل معها إلا نصف حبة الشعير.

- حاول أن تكون قراءتك المنزلية منصبه على دروسك التي تأخذها عند شيخك وفي العلم الذي أنت فيه حتى تتضلع منه .

- ركز قدر المستطاع في طلب العلم ولاتنشغل بغيره لأن مرحلة التأسيس

مرحلة حساسة لا تحتمل الخلط ثم بعد التأسيس افعل ماتشاء .

- طلب العلم المبني على دراسةِ كل علم على حده أفضل من الجمع بلا ضبط .

ولا يزال الشيوخ ينشدون هذا البيت ويعملون بمقتضاه:

وفي ترادُفِ العلوم المنعُ جا إن تَوأمانِ استبقا لم يَخرُجا

- ابتعد كل الابتعاد عن الأمور السياسية والأخبار والصراعات الفكرية وإلا سوف تبكي دما على ضياع عمرك، وكم خسر طلاب العلم من أوقات وأعمار عندما خاضوا في غمار هذه المعامع.

- إياك أن تخوض في الفتن والمهاترات التي تحصل في مجالس العامة من الأمور الخاصة أو العامة .

-كن في الفتن كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه:

كابن اللبون لاظهر فيركب ولاضرع فيحلب .

- لاتتدخل فيما لايعنيك وكن جادا حريصا على وقتك.

- كن كثير الصمت والتأمل، فإن الصامت يلقن الحكمة، والمهذار يلقن الحماقة .

- احرص على أن تكون مؤدبا وصاحب خلق رفيع، حسن العشرة أليف.

- أمسك لسانك عن غيبة العلماء فإن نهاية من يقع في أعراضهم مرعبة، وإن من اللؤم أن تتعلم منهم ثم تهجهم .

- أكثر من ذكر الله في كل حالاتك .

- كن صاحب ورد قرآني في يومك وليلتك، فإن هاجر القرآن قد هجرته

أنواع الخيرات والبركات .

- احرص على كل مايقربك من الله من أقوال وأفعال .

- لاتكثر الخُلطة مع العوام فخلطتهم الدائمة بلوى عارمة، ويكفي في هذا الباب ماصح عن النبي ﷺ: «ودع أمر العامة»[1].

- لايليق بطالب العلم وخصوصا المبتدئ أن يكثر من حضور العزائم، والمناسبات وخاصة التي فيها أغاني ومنكرات، وشيلات .

- اجتنب مخالطة من يحرص على أن يتكلم قبل أن يفهم وهذا داء مستفحل ومستشري في هذا الزمان ، فإن الخبز قبل النضج عجين لا يصلح للأكل .

- كن جادا في أخذك للأمور الشرعية ولاتكن هازلا أو عابثا أو كسولا .

- لاتكن رقيق الدين إِمَّعَةْ" تتقلب مابين الأفكار والآراء والفتاوي فإن ذلك دليل على سوء النية وقلة العقل .

- لاتترك الصلابة في الدين و القوة في الحق بدعوى الخوف من تسمية الناس لك بأنك متشدد.

- هناك بعض الإخوة -هداهم الله- من طلبة العلم قد وقعوا في الرخص من أوسع أبوابها مثل: حلق اللحى أو تخفيفها، وسماع الشيلات، ولبس البنطلونات، وكثرة التصوير، والتوسع في مشاهدة بعض الأخبار، ومتابعة الموضات والماركات العالمية إلى أن يصل إلى درجة الإسراف، والإنغماس في

---

(١)جزء من حديث أخرجه أبو داود (٤٣٤٣)، والنسائي في "عمل اليوم والليلة" (٢٠٥)، وابن أبي شيبة في "المصنف" (١٨٩٦٢)، وأحمد (٢/٢١٢) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

زهرة الحياة الدنيا، وتتبع أحوال الطقس وجديد الأمطار والسحاب والغبار والأتربة بطريقة فيها محاذير شرعية كبيرة، التكاثر في الأموال والأولاد، والمفاخرة بذلك، خلطة العوام بدعوى أنه سوف يدعوهم إلى الله وماهي إلا أيام قلائل فيدعونه إلى ماهم عليه ونراه صريعا في حبائلهم، و ترك أذكار الصباح والمساء، وأذكار أدبار الصلوات، والوتر، والسنن الرواتب، والصيام، والقيام.

هل يعقل أن هذا طالب علم ؟

أقول وبكل حزن وأسى على الواقع الذي أراه وأشاهده:

◄اتق الله ياطالب العلم ولاتشتري بآيات الله ثمنا قليلا.

◄اتق الله ياطالب العلم وصن طلبك للعلم أن يخدشه أي شيء.

◄اتق الله ياطالب العلم ولاتُهون في نفوس الناس مكانة أهل العلم.

◄اتق الله ياطالب العلم وخذ السيف بحقه.

◄اتق الله ياطالب العلم وكن صاحب ورع.

◄اتق الله ياطالب العلم وكن من فرسان الليل ومن أهل الدمعات.

◄اتق الله ياطالب العلم وكن صاحب خشية واخبات.

◄اتق الله ياطالب العلم وكن صادق الحديث.

◄اتق الله ياطالب العلم ولاتأكل إلا الحلال.

◄اتق الله ياطالب العلم وتذكر أن متاع الدنيا قليل.

◄اتق الله ياطالب العلم وكن زاهدا في الدنيا على الحقيقة.

◄اتق الله ياطالب العلم وكن في الدنيا غريب أوعابر سبيل.

◄اتق الله ياطالب العلم وكن صاحب خلوة بالله.

◄اتق الله ياطالب العلم وكن صاحب تزكية لنفسك مطهرا لها من الحقد والحسد وسائر الأمراض.

◄اتق الله وبر بوالديك، وصل رحمك.

◄ياطالب العلم القلوب متفتحه لكلامك

◄ياطالب العلم الأفئدة متعطشة لخطابك ..

قد أردناك لمشروعٍ عظيم فلاتبخل بالباقي للباقي.

نفعني الله وإياكم بهذه الكلمات و أسأله جل وعلا أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم .

وصايا لطالب العلم

الوصية الأولى: الإخلاص لله تعالى في الطلب والتحصيل.

الوصية الثانية: قراءة الكتب المتعلقة بالعلم، وبطلب العلم، وبآداب طلبة العلم.

الوصية الثالثة: تقديم الأولويات في طلب العلم.

الوصية الرابعة: الحذر من التعالم.

الوصية الخامسة: الثناء على الله عند ذكره.

الوصية السادسة: الصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم عند ذكره.

الوصية السابعة: الترضي عن الصحابة عند ذكرهم.

الوصية الثامنة: الترحم على العلماء عند ذكرهم.

الوصية التاسعة: التثبت في النقل، ومن ذلك عدم العزو إلى مرجع، إلا إذا قرأ الخبر فيه.

الوصية العاشرة: عدم احتقار الفائدة، وإن قلّت.

الوصية الحادية عشرة: الحذر من كتم الفوائد، بغرض عدم انتفاع أحد بها؛ ليستأثر صاحبها بها.

الوصية الثانية عشرة: الحذر من التقليد الأعمى، والحرص على الدليل.

الوصية الثالثة عشرة: السؤال عن المسائل التي تعترض طالب العلم، وعدم إهمالها، ثم تقييدها وكتابتها. ويعين ذلك بحمل مذكرة صغيرة يحملها معه.

الوصية الرابعة عشرة: البحث عند كل مناسبة تحصل، أو نازلة تنزل.

تنبيهات لمعلمي القرآن الكريم والمعلمات

قال الشيخ العلامة محمد بن محمد سالم المجلسي الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

- اعلم أن المعلم يلي تعليم الصبيان بنفسه ولا يحيل بعضهم على بعض التعليم؛ لأن ذلك ينصرف إلى الفساد.

- ولا يفضل بعضهم على بعض في التعليم والمجلس، فإذا لم يسو بينهم كان جرحة في شهادته.

- ويطلقهم في النهار في ثلاثة أوقات، بعد المحو للإفطار، وقبل الظهر للغداء وبعض الراحة، ومع عشية النهار.

- ولا حد في الأدب، وذلك راجع إلى اجتهاد المؤدب، وقيل: ثلاثة أسواط.
- ولا يكون الأدب إلا من أسفل القدم، وأما غير ذلك من الظهر والبطن فلا.
- ولا يجوز للمعلم أن يقبل هديتهم فإن فعل كان ذلك جرحة في شهادته وأمانته؛ لأن الصبي لا يجوز للمعلم قبول هديته إلا أن يفضل لهم فضلة يخاف عليها الضياع فيجوز أن يأكلها أو يتصدق بها.
- ولا يجوز له أن يستخدمهم مثل أن يأتوا له بالماء إلا أن يشترط ذلك عليهم أو يكون لهم عادة فيجوز.اهـ[(١)]

الكُمَّلَ المكملون

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والغرض أنه، عليه الصلاة والسلام، قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»، وهذه من صفات المؤمنين المتبعين للرسل، وهم الكُمَّل في أنفسهم، المكملون لغيرهم، وذلك جمع بين النفع القاصر والمتعدي، وهذا بخلاف صفة الكفار الجبارين الذين لا ينفعون، ولا يتركون أحدا ممن أمكنهم أن ينتفع، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨]، وكما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٦]، في أصح قولي المفسرين في هذا، وهو أنهم ينهون الناس عن اتباع القرآن مع نأيهم وبعدهم عنه، فجمعوا بين التكذيب والصد، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ [الأنعام: ١٥٧]، فهذا شأن الكفار، كما أن شأن خيار

---

(١) "لوامع الدرر في هتك أستار المختصر" (٨٤/١١)

الأبرار أن يكمل في نفسه وأن يسعى في تكميل غيره كما قال عليه السلام: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»، وكما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]، فجمع بين الدعوة إلى الله سواء كان بالأذان أو بغيره من أنواع الدعوة من تعليم القرآن والحديث والفقه وغير ذلك، مما يبتغى به وجه الله، وعمل هو في نفسه صالحا، وقال قولا صالحا، فلا أحد أحسن حالا من هذا. وقد كان أبو عبد الرحمن السلمي الكوفي -أحد أئمة الإسلام ومشايخهم-من رغب في هذا المقام، فقعد يعلم الناس في إمارة عثمان إلى أيام الحجاج قالوا: وكان مقدار ذلك الذي مكث فيه يعلم القرآن سبعين سنة، رحمه الله، وآتاه الله ما طلبه ودامه. آمين.اهـ (١)

الأمور المساعدة على حفظ العلم

١- إخلاص النية.

٢-تقوى الله عز وجل، بفعل الطاعات واجتناب المحرمات.

٣- تكرار المحفوظ وإعادته على النفس مرارا.

٤- مذاكرة المحفوظات مع الآخرين.

٥- المداومة على الحفظ والمراجعة ولو على القليل وعدم الانقطاع.

٦- عدم إرهاق النفس وتحميلها فوق طاقتها.

٧- التدرج ابتداءا من الأسهل والأيسر على النفس.

---

(١) "تفسير ابن كثير"(١/٦٧)

٨-رفع الصوت وتركيز النظر، واستعمال جميع حواس تحصيل العلم.

٩- الحرص على أوقات الحفظ المناسبة.

١٠- حسن اختيار المكان.

١١- التقلل من الدنيا، وعدم الإفراط في شهواتها من طعام ونوم وجماع ونحوه.

١٢- الاهتمام بالغذاء المناسب.

١٣- القراءة المتأنية بتمهل، وحضور قلب.

١٤- حسن الاستماع والإنصات لما يراد حفظه.

١٥- الدعاء والأذكار.

١٦- الصبر والمجاهدة وعدم اليأس.

١٧-الحجامة.

١٨- تمرين الذاكرة على التذكر، وعدم الرجوع إلى الكتاب ونحوه، إلا عند العجز عن استرجاع المعلومات.

١٩- علو الهمة، ومنافسة أهل الحفظ والإتقان.

٢٠- القراءة في سير السلف، والأئمة الحفاظ.

٢١- تعليم العلم ونشره.

٢٢- العناية بالأولويات، وهي باختصار: حفظ كتاب الله عز وجل، وفقه معانيه، ثم الصحاح من الأحاديث وأمهات السنن، ثم العناية بالموقوفات على الصحابة، من أقوال، وأفعال، وآثار، وكذلك الموقوفات على التابعين.

ومن المصنفات العظيمة في ذلك: مصنف الإمام عبدالرزاق الصنعاني،

ومصنف الإمام ابن أبي شيبة، وتجد كثير منها في سنن الدارمي، وقبله موطأ الإمام مالك، وهكذا...

ثم العناية باللغة العربية، وإتقانها، وبعدها الأخذ بالمتون من سائر الفنون، في الفقه، والتوحيد، والأصول، والمصطلح. يبدأ بالأول فالأول.

المرأة والتلقي ثم الرواية وطلب علو الإسناد

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد: فمن المعروف أن لطرق نقل الحديث وتحمّله أقساما عدة منها: الإجازة بأنواعها. ومنها: المناولة، ومنها: المكاتبة، ومنها السماع والتلقي، سواء من الشيخ أو القراءة عليه وهما أعلاها.

كل هذه الطرق كانت بالإسناد، والإسناد خصيصة لهذه الأمة، وسنة بالغة من السنن المؤكدة، وطلب العلو فيه سنة أيضا، ولذلك استحبت الرحلة.

قال الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: طلب الإسناد العالي سنة عمّن سلف.

ولهذا سعى العلماء طلبا لعلو السند، ورحلوا الرحلات الواسعة والبعيدة لتحصيل ذلك.

ولم يقتصر الأمر في ذلك على الرجال فقط، بل إن النساء شاركن في ذلك منذ عصر الصحابة كأم المؤمنين عائشة التي روت عن رسول الله ﷺ كثيرا من أحاديثه، ونقلت إلينا علما جما، وغيرها كثير.

فأدعو من يتعجل في التقليل من شأن حرص المرأة على التلقي ثم الرواية عن الشيوخ بالإسناد العالي سواء أخذته عن طريق الرجال أم النساء بضوابطه

الشرعية وأقول له :

فتش عن المرأة في دووااين الحديث وكتب التراجم كما فتش من سبقك فوجد لها حضورا بارزا ودورا عظيما في تلقي سنة رسول الله ﷺ وروايتها بل لقد نافست الرجال منذ العهد النبوي وطلبن من رسول الله ﷺ أن يخصهن بمجلس، سجل ذلك الإمام البخاري في "صحيحه" حين وضع هذا العنوان «هل يجعل للنساء يوما على حده؟»

أورد فيه حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ: «قَالَتِ النِّسَاءُ لِلنَّبِيِّ ﷺ غَلَبَنَا عَلَيْكَ الرِّجَالُ فَاجْعَلْ لَنَا يَوْمًا مِنْ نَفْسِكَ فَوَعَدَهُنَّ يَوْمًا لَقِيَهُنَّ فِيهِ فَوَعَظَهُنَّ وَأَمَرَهُنَّ». ولم يكن تلقيهن من رسول الله ﷺ تلقي من يسمع ولا يعي فقد وضع الإمام البخاري عنوانا: «من سمع شيئا فراجع حتى يعرف» أورد فيه حديثا عن ابن أبي مليكة أن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ كَانَتْ لاَ تَسْمَعُ شَيْئًا لاَ تَعْرِفُهُ إِلاَّ رَاجَعَتْ فِيهِ حَتَّى تَعْرِفَهُ.

سابقت المرأة الرجال في طلب العلم وربما سبقتهن وانفردت دونهن فمن الأحاديث التي لا يعرف أنه قد رواها إلا النساء حديث فاطمة بنت قيس عن النبي ﷺ في نفقة وسكنى المبتوتة فكانت قصتها حديثا يروى وسنة متبعة وحكما يقضي به وقد أخذ كبار التابعين هذا الحديث من فم فاطمة وتناقلوه عنها وارتبط باسمها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وكما اعتُمد عليها في الرواية عن رسول الله ﷺ اعُتمد عليها أيضا في رواية الكتب؛ ومن ذلك كتاب "الأموال لأبي عُبيد"؛ ففي أوله: قرئ على الشيخة

الصالحة الكاتبة فخر النساء شُهدة بنت أبي نصر بمنزلها ببغداد كما روت كتبا عديدة لابن أبي الدنيا.

ونورد فيما يلي بعضا من الراويات للحديث الشريف اللاتي كان لهن الفضل في التحديث والسند العالي، ولذلك قُصدتْ الرحلة إليهن، وطُلبَ بعضهن لرواية الحديث بالسند العالي، ومن هؤلاء النسوة الشيخات اللاتي تميزن برواية الحديث الشريف بالسند العالي والتفرد:

• فاطمة بنت سعد الخير الأنصارية البلنسية: شيخة صالحة مسندة بأسانيد عالية، اعتنى بها والدها فسمعت حضورا ولها سنتان وشيء من فاطمة الجوزدانية، وقدم بها أبوها بغداد في سنة ٥٢٥هـ فسمَّعها حضورا من أبي القاسم ابن الحصين وزاهر الشحامي... بالغ والدها في إفادتها حتى أسمعها الخبر الواحد من الشيخ الواحد ثلاث مرات. بكّر بها وهي صغيرة - كما قلنا - ثم علَّت سنها والشيخ حيٌّ فأعاد لها سماعه، وبلّغه الله تعالى فيها ما قصده، ونشرت علما كثيرا، وحدّثت بدمشق والقاهرة.[١]

• ست الكتبة نعمة بنت علي بن الطراح: من بيت العلم والحديث، حدّثت هي وأبوها وجدّها وجدّ أبيها وأخوها محمد وأختها عزيزة، وأختها جوهرة، سمعت من جدها يحيى عددا من تصانيف الحافظ البغدادي. ومن عمر البسطامي. حدّث عنها الحافظ الضياء وابن خليل الدمشقي، وعبدالعظيم المنذري وجماعة آخرهم عبد الرحمن بن أبي عمر المقدسي والفخر علي بن البخاري. وسمع

---

(١) "تاريخ دمشق" لابن عساكر (٧٠/ ٢٥)

عليها جماعة، وحدّثت بدمشق والحجاز وبغداد وغيرها.[١]

•عَجِيبَة بِنْت الحافظ أَبِي بَكْر مُحَمَّد بْن أَبِي غالب بْن أَحْمَد بْن مرزوق الباقداريّ البغداديّ. وتدعى ضوْءُ الصّباح. شيخة مُسْنِدة مشهورة. تفرّدت فِي الدّنيا بالإجازة عن جماعة. وسمعت من: عَبْد اللَّه بْن منصور المَوْصِليّ، وَعَبْدالحقّ اليُوسُفيّ، وجماعة. وأجاز لَهَا مَسْعُود الثّقفيّ، وَأَبُو عَبْد اللَّه الرُّستُميّ، وَأَبُو خير الباغبَان، وابن عمّه رشيد الباغبَان، وهبة اللَّه بْن أَحْمَد الشِّبْليّ البغداديّ، ورجاء بْن حامد المعدانيّ، وغيرهم. وخرّجوا لَهَا «مشيخة» فِي عشرة أجزاء. وُلِدَت فِي صفر سنة أربع وخمسين وخمسمائة، وكانت امْرَأَة صالحة.[٢]

• لؤلؤة بنت عبد الله مولاة أزهار بنت عبد الله الحرة، وهي عتيقة الإمام الصائن هبة الله بن عساكر، سمعت من الحافظ ابن عساكر وروت عنه.[٣]

•كريمة بنت أحمد بن محمد بن حاتم المروزية أم الكرام، المجاورة بمكة، كانت كاتبة فاضلة عالمة، سمعت من: محمد بن مكي الكشميهني، وزاهر بن أحمد السرخسي، وعبد الله بن يوسف بن بامويه، وكانت تضبط كتابها ، وإذا حدثت قابلت بنسختها. ولها فهم ومعرفة، حدثت «بالصحيح»، وكانت بكرا لم تتزوج، وطال عمرها، وأقامت بمكة دهرا، وحمل عنها خلق من المغاربة والمجاورين، وعلا إسنادها، روى عنها: أبو بكر الخطيب، وأبو الغنائم أبي

(١) "سير أعلام النبلاء" (٤٣٤/٢١)، "تاريخ الإسلام" (٤٣/ ١٤٥)

(٢) "تاريخ الإسلام" (٤٧/ ٣٦٤)

(٣) "التكملة لوفيات النقلة" (٩٢/٣).

النرسي، وأبو طالب الحسين بن محمد الزينبي، ومحمد بن بركات السعيدي، وعلي بن الحسين الفراء، وعبد الله بن محمد بن صدقة بن الغزال، وأبو القاسم علي بن إبراهيم النسيب، وأبو المظفر السمعاني. ويقول عنها ابن الأثير: انتهى إليها علو الاسناد للصحيح.(١)

•فاطمة بنت علم الدين القاسم البرزالي: حفظت القرآن، وسمعت الحديث من جماعة، وحدثت، وكتبت البخاري في ثلاثة عشر مجلدا فقابله لها أبوها، وكان يقرأ فيه على الحافظ المزي تحت القبة، حتى صارت نسختها أصلا معتمدا يكتب منها الناس، قال الصلاح الصفدي: ونسختها هذه من صحيح البخاري التي نسختها بيديها بدمشق من النسخ التي يعتمد عليها وينقل منها.. قال عنها أبوها: وكانت امرأة مباركة محافظة على الفرائض والنوافل، لها اجتهاد وحرص على فعل الخير، تجتهد يوم دخول الحمام أن لا تؤخر الفريضة عن وقتها، لا تدخل حتى تصلي الظهر، وتجتهد في الخروج، لإدراك العصر، وكذلك تسارع في قضاء أيام الحيض من شهر رمضان تصومها وتعجلها وتحتاط فيها، وكانت فيها مودة، وخير وعقل ومعرفة وخير لم يفارقها قط. وتزوجت نحو خمس سنين، ولم تخرج من البيت، وما رأيت منها إلا ما يسرني، وكنت إذا رأيتها تصلي أفرح وأقول: أرجو الله أن ينفعني بها، فإنها كانت تصلي صلاة مكملة، وتجتهد في الدعاء، ولم تسألني قط شيئا من الدنيا، ولا شراء حاجة. وانتفعت بها في الدنيا وأرجو أن ينفعني الله بها في الآخرة. واعتبرت

---

(١) "المنتظم" (١٦/ ١٣٥)، "الكامل في التاريخ" (٨/ ٢٢٧)، "تاريخ الإسلام" (٣١/ ١٧٩)

الشيوخ الذين سمعت منهم فوجدتهم مئة وخمس وثمانين نفسا.[١]

•زينب بنت يحي بن العز بن عبدالسلام السلمية: ازدحم عليها الطلبة وسمع عليها من مشاهير أهل العلم: الحافظ الذهبي، والصفدي، والواني والبرزالي، وقد كانت تؤدي هذه المهمة الجليلة بحب وبلغ من علو سندها أن نزل الناس بموتها درجة في جميع الآفاق. وهي آخر من حدث بـصحيح البخاري عاليا سماعا توافد عليها أهل الرحلة في طلب الحديث وكانت سهلة في الإسماع، لينة الجانب.[٢]

• أم الفتح الأصبهانية عائشة بنت حسن بن إبراهيم وصفت بالواعظة، العالمة، المسندة، ولم يمنعها كونها امرأة من الكتابة عن الشيوخ فكتبت بخطها أمالي "ابن منده" عنه، وكانت تعظ النساء فجمعت بين ما يحتاج إليه أهل التخصص العلمي وما يحتاجه عوام الناس.

قال الذهبي: الواعظة العالمة المسندة أم الفتح الأصبهانية الوركانية. كتبت الإملاء عن أبي عبد الله بن منده بخطها... قال ابن السمعاني: سألت الحافظ إسماعيل عنها فقال: امرأة صالحة عالمة تعظ النساء وكتبت أمالي ابن منده عنه. وهي أول من سمعت منها الحديث بعثني أبي إليها وكانت زاهدة.[٣]

---

(١) "تاريخ ابن الوردي" (٢/ ٢٨٥)، "البداية والنهاية"(١٤/ ٢١٧)، "شذرات الذهب" (٨/ ١٦٩)، "أعيان العصر وأعوان النصر" (٤/ ٣١)

(٢) "شذرات الذهب"(٨/ ١٩٢)، "معجم الشيوخ الكبير" للذهبي (١/ ٢٥٧).

(٣) "سير أعلام النبلاء" (١٣/ ٤٣٣)، "معجم البلدان" (٣٧٣/٥)، "شذرات الذهب" (٣٠٨/٣)

•كريمة بنت أبي محمد عبد الوهاب بن علي بن الخضر، وتعرف ببنت الحبقبق. وكانت امرأة صالحة جليلة، طويلة الروح على الطلبة، لا تمل من الرواية وقد جمعت بين الفقه والحديث وبارك الله في عمرها فحدثت نيفا وستين عاما.

قال الذهبي: الشيخة المعمرة، مسندة الشام، أم الفضل القرشية الزبيرية الدمشقية، بنت الحبقبق، ولدت سنة خمس أو ست وأربعين وخمسمائة. وسمعت أجزاء يسيرة من أبي يعلى حمزة بن الحبوبي، وعبد الرحمن بن أبي الحسن الداراني، وحسان بن تميم الزيات، وعلي بن مهدي الهلالي، وعلي بن أحمد الحرستاني على مقال فيه. وتفردت في الدنيا بالرواية عنهم.

روت بالإجازة "صحيح البخاري" عن أبي الوقت، وهي آخر من روى عنه بالإجازة.(١)

• فاطمة بنت البغدادي مسندة أصبهان قيل في ترجمتها: الشيخة العالمة الواعظة الصالحة المعمرة آخر من روى في الدنيا عن ابن ريذة(٢).

• شهدة بنت المحدث أبي نصر أحمد بن الفرج الدينوري، ثم البغدادي الإبري الجهة، المعمرة، الكاتبة، مسندة العراق، فخر النساء. ولدت بعد الثمانين وأربع مائة. قال الشيخ الموفق: انتهى إليها إسناد بغداد، وعمرت حتى ألحقت الصغار

---

(١) "تاريخ الإسلام" (٤٧/ ٩٣) ، "شذرات الذهب" (٧/ ٣٦٨)، "سير أعلام النبلاء" (١٦/ ٣٣٤)

(٢) "طبقات علماء الحديث" (٤/ ٤٧)، "تذكرة الحفاظ" (٤/ ١٢٧٥ – ١٢٧٦)، "البداية والنهاية" (١٢/ ٢٣٥)

بالكبار، وكانت تكتب خطا جيدا، لكنه تغير لكبرها.

قال ابن الجوزي: قرأت عليها، وكان لها خط حسن، وتزوجت ببعض وكلاء الخليفة، وخالطت الدور والعلماء، ولها بر وخير، وعمرت حتى قاربت المائة، توفيت في رابع عشر المحرم سنة أربع وسبعين وخمس مائة، وحضرها خلق كثير وعامة العلماء.(١)

•أم المؤيد زينب بنت أبي القاسم الجرجانية الأصل، النيسابورية، الشعرية. الشيخة الجليلة مسندة خراسان، سمعت من: إسماعيل بن أبي القاسم بن أبي بكر القارئ، وفاطمة بنت زعبل، وعبد المنعم ابن القشيري، وزاهر بن طاهر، وأخيه وجيه، وأبي المعالي محمد بن إسماعيل الفارسي، وعبد الجبار بن محمد الخواري، وعبد الوهاب بن شاه، وفاطمة بنت خلف الشحامي، وعبد الله بن الفراوي، وعبد الرزاق الطبسي. وأجاز لها عبد الغافر بن إسماعيل، وأبوالقاسم الزمخشري النحوي. وسمعت "الصحيح" من الفارسي ووجيه.

حدث عنها: ابن هلالة، وابن نقطة، والبرزالي، والضياء، وابن الصلاح، والمرسي، وإبراهيم الصريفيني، ومحمد بن سعد الهاشمي، والصدر البكري، وابن النجار. وسمعت بإجازتها من جماعة، وكانت صالحة، معمرة، مكثرة.(٢)

هذه نماذج وغيرهن كثير، نسأل الله أن يعيد للأمة أمثال هؤلاء النسوة اللاتي بذلن وقدمن وسهرن الليالي الطوال في سبيل التلقي ثم الرواية.

---

(١) "سير أعلام النبلاء" (٢٠/ ٥٤٢)

(٢) "سير أعلام النبلاء" (١٦/ ١٠٣)، و"شذرات الذهب" (٥/ ٦٣)



وفق الله الجميع لما يحب ويرضى.

من يصلح للدعوة إلى الله

قال سفيان الثوري: لا يأمر بالمعروف، ولا ينهى عن المنكر إلا من كان فيه خصال ثلاث: رفيق بما يأمر، رفيق بما ينهى، عدل بما يأمر، عدل بما ينهى، عالم بما يأمر، عالم بما ينهى.اهـ[١]

البصيرة في الدعوة إلى الله عز وجل.

قال الله عز وجل: ﴿قُل هذِهِ سَبيلي أَدعو إِلَى اللَّهِ عَلى بَصيرَةٍ أَنا وَمَنِ اتَّبَعَني﴾. [يوسف: ١٠٨].

والبصيرة في الدعوة ثلاثة أقسام، لا بد من اجتماعها في الداعي إلى الله:

١- العلم بحال المدعو: ومن ذلك قول النبي ﷺ لمعاذ بن جبل، حين أرسله إلى اليمن: «إنك تأتي قومًا أهل كتاب». متفق عليه عن ابن عباس.

فعلّم النبي عليه الصلاة والسلام معاذًا حال من سيدعوهم، وسيقدم عليهم ليحسن تعامله معهم ودعوته لهم.

٢- العلم بالحكم الشرعي لما يدعو إليه: فلا يتقول على الله ما لم يقل.

---

(١) "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" للخلال (ص: ٢٤)

قال الله عز وجل: ﴿وَلا تَقولوا لِما تَصِفُ أَلسِنَتُكُمُ الكَذِبَ هذا حَلالٌ وَهذا حَرامٌ لِتَفتَروا عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ إِنَّ الَّذينَ يَفتَرونَ عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ لا يُفلِحونَ﴾. [النحل: ١١٦].

٣- العلم بطريقة الدعوة: قال الله عز وجل: ﴿ادعُ إِلى سَبيلِ رَبِّكَ بِالحِكمَةِ وَالمَوعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجادِلهُم بِالَّتي هِيَ أَحسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبيلِهِ وَهُوَ أَعلَمُ بِالمُهتَدينَ﴾. [النحل: ١٢٥].

أصل كل فساد في الحياة هو الجهل، والبعد عن العلم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والجهل والظلم: هما أصل كل شر، كما قال سبحانه: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].اهـ[١]

وقد اجتمع الجهل بأصول الشر، كما دل على ذلك الأدلة الكثيرة من القرآن والسنة، ومن ذلك:

١- اجتماع الجهل والكفر. قال الله عز وجل: ﴿ قُل أَفَغَيرَ اللَّهِ تَأمُرونّي أَعبُدُ أَيُّهَا الجاهِلونَ ﴾. [الزمر: ٦٤].

٢- اجتماع الجهل وعدم الانتفاع بآيات الله عز وجل مهما عظمت.

قال الله عز وجل: ﴿ وَلَو أَنَّنا نَزَّلنا إِلَيهِمُ المَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ المَوتى وَحَشَرنا عَلَيهِم كُلَّ شَيءٍ قُبُلًا ما كانوا لِيُؤمِنوا إِلّا أَن يَشاءَ اللَّهُ وَلكِنَّ أَكثَرَهُم يَجهَلونَ﴾. [الأنعام: ١١١].

---

(١) "اقتضاء الصراط المستقيم" (١٤٨/١)

٣- اجتماع الجهل وقتل النفس التي حرم الله عز وجل.

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: إذا سرَّك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومئة في سورة الأنعام: ﴿قَد خَسِرَ الَّذينَ قَتَلوا أَولادَهُم سَفَهًا بِغَيرِ عِلمٍ وَحَرَّموا ما رَزَقَهُمُ اللَّهُ افتِراءً عَلَى اللَّهِ قَد ضَلّوا وَما كانوا مُهتَدينَ﴾. [الأنعام: ١٤٠]. رواه البخاري.

٤- اجتماع الجهل وكثرة الفتن. عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُقال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « يقبض العلم، ويظهر الجهل والفتن، ويكثر الهرج ».متفق عليه.

وعن عمرو بن تغلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:«إن من أشراط الساعة أن يفيض المال، ويكثر الجهل، وتظهر الفتن، وتفشوا التجارة، ويظهر العلم». رواه الحاكم. وصححه الألباني في "الصحيحة" رقم(٢٧٦٧).

٥- اجتماع الجهل وظهور الفواحش والمعاصي. قال الله تعالى، مخبرًا عن لوط عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿ أَئِنَّكُم لَتَأتونَ الرِّجالَ شَهوَةً مِن دونِ النِّساءِ بَل أَنتُم قَومٌ تَجهَلونَ ﴾. [النمل: ٥٥].

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم، ويثبت الجهل، ويُشرب الخمر، ويظهر الزنا ». متفق عليه.

٦- اجتماع الجهل والضلال والإضلال.

عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلميقول: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبقِ عالمًا اتخذ الناس رؤوسًا جهالا، فسُئلوا، فأفتوا بغير علم،

فضلوا وأضلوا». متفق عليه.

٧- اجتماع الجهل والقول على الله بغير علم، فيؤدي إلى أضرار عظيمة، وأخطاء جسيمة، ربما قتل الجهل صاحبه أو غيره.

ويدل على ذلك أدلة، منها:

حديث عبدالله بن عمرو السابق.

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أن نبي الله ﷺ قال: كان فيمن كان قبلكم رجلٌ قتل تسعة وتسعين نفسًا، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فدُل على راهب، فأتاه فقال إنه قتل تسعة وتسعين نفسًا، فهل له من توبة؟ فقال: لا. فقتله فكمّل به مائة». متفق عليه.

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: خرجنا في سفر، فأصاب رجل منا حجر فشجه في رأسه، ثم احتلم، فسأل أصحابه فقال: هل تجدون لي رخصة في التيمم؟ فقالوا: ما نجد لك رخصة؛ وأنت تقدر على الماء. فاغتسل فمات. فلما قدمنا على النبي ﷺ أُخبر بذلك. فقال: « قتلوه قتلهم الله! ألا يسألوا إذ لم يعلموا، فإنما شفاء العي السؤال». رواه أبو داود، وصححه الألباني في "صحيح أبي داود" رقم (٣٣٦).

٨- اجتماع الجهل وسوء المعاملة للآخرين.

عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أن رجلا قال: يا رسول الله، إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إلي، وأحلم عنهم ويجهلون علي. فقال: «لئن كنت كما قلت فكأنما تسفهم المل، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما

دمت على ذلك». رواه مسلم.

أربعة دواوين لمن أراد التمكن من الفقه في الدين

قال الإمام الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام – وكان أحد المجتهدين -: ما رأيت في كتب الإسلام في العلم مثل "المحلى" لابن حزم، وكتاب "المغني" للشيخ موفق الدين.

قلت –الذهبي-: لقد صدق الشيخ عز الدين، وثالثهما: "السنن الكبرى" للبيهقي، ورابعها: "التمهيد" لابن عبد البر . فمن حصل هذه الدواوين، وكان من أذكياء المفتين، وأدمن المطالعة فيها، فهو العالم حقا.اهـ(١)

من درر نصح العلماء للعلماء

ذكر الإمام النووي – في باب آداب المعلم- ما يجب الحذر منه من الأدواء وطريقة علاجها، فقال: ومنها: الحذر من الحسد والرياء والإعجاب واحتقار الناس وإن كانوا دونه بدرجات، وهذه أدواء وأمراض يبتلى بها كثيرون من أصحاب الأنفس الخسيسات.

وطريقه في نفي الحسد: أن يعلم أن حكمة الله تعالى اقتضت جعل هذا الفضل في هذا الإنسان فلا يعترض ولا يكره ما اقتضته الحكمة ولم يذم الله

---

(١) "سير أعلام النبلاء" (٨ /١٩٣)

احترازًا من المعاصي.

وطريقه في نفي الرياء: أن يعلم أن الخلق لا ينفعونه ولا يضرونه حقيقة فلا يتشاغل بمراعاتهم فيتعب نفسه ويضر دينه ويحبط عمله ويرتكب سخط الله تعالى ويفوت رضاه.

وطريقه في نفي الإعجاب: أن يعلم أن العلم فضل من الله تعالى ومعه عارية فإن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شئ عنده بأجل مسمى، فينبغي أن لا يعجب بشيء لم يخترعه وليس مالكًا له ولا على يقين من دوامه.

وطريقه في نفي الاحتقار: التأدب بما أدبنا الله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فربما كان هذا الذي يراه دونه أتقى لله تعالى وأطهر قلبا وأخلص نية وأزكى عملا، ثم إنه لا يعلم ماذا يختم له به ففي الصحيح: «إن أحدكم يعمل بعمل أهل الجنة». الحديث، نسأل الله العافية من كل داء.اه[1]

(١) "المجموع" (٢٨/١)

إيمانيات

الشغل العظيم ومقام أولياء الله المقربين

قال الإمام الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فوالله إن ترتيل سبع القرآن في تهجد قيام الليل مع المحافظة على النوافل الراتبة، والضحى، وتحية المسجد، مع الأذكار المأثورة الثابتة، والقول عند النوم واليقظة، ودبر المكتوبة والسحر، مع النظر في العلم النافع والاشتغال به مخلصا لله، مع الأمر بالمعروف، وإرشاد الجاهل وتفهيمه، وزجر الفاسق، ونحو ذلك، مع أداء الفرائض في جماعة بخشوع وطمأنينة وانكسار وإيمان، مع أداء الواجب، واجتناب الكبائر، وكثرة الدعاء والاستغفار، والصدقة، وصلة الرحم، والتواضع، والإخلاص في جميع ذلك، لشغل عظيم جسيم، ولمقام أصحاب اليمين وأولياء الله المتقين.اهـ[١]

الخير كله أن تُزوى عنك الدنيا

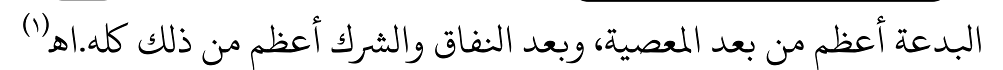
قال الإمام واعظ الشام أحمد بن عاصم الأنطاكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الخير كله أن تُزوى عنك الدنيا، ويُمنّ عليك بالقنوع، وتُصرف عنك وجوه الناس.[٢]

منزلة البدعة من مراتب البعد عن الله عز وجل

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والبعد من الله مراتب، بعضها أشد من بعض، فالغفلة تبعد القلب عن الله، وبعد المعصية أعظم من بعد الغفلة، وبعد

(١) "سير أعلام النبلاء" (٣/٨٤)

(٢) "سير أعلام النبلاء" (١١/٤١٠)



البدعة أعظم من بعد المعصية، وبعد النفاق والشرك أعظم من ذلك كله.اهـ[١]

مسألة: أيهما أفضل الغني الشاكر أم الفقير الصابر؟

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وفي هذا الحديث دليل لمن فضل الغني الشاكر على الفقير الصابر، وفي المسألة خلاف مشهور بين السلف والخلف من الطوائف والله أعلم.اهـ[٢]

وهذه المسألة الخلاف فيها طويل.

قال الإمام ابن الأمير الصنعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وللناس في مسألة التفضيل بين الغني الشاكر والفقير الصابر نزاع طويل وخوض كبير واحتجاج من الطرفين.[٣]

وقال العلامة الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هي مسالة طويلة الذيل قد ألفت فيها الرسائل.اهـ[٤]

وقال العلامة البسام: وهذه مسألة طويلة الخلاف بين العلماء.اهـ[٥]

وحاصل الأقوال فيها خمسة:

الأول: تفضيل الغني الشاكر.

---

(١) "الجواب الكافي" (ص٧٩).

(٢) "شرح مسلم" (٥/٩٢).

(٣) "التنوير" (٣/٣٣).

(٤) "روح المعاني" (٢/٢١٤)

(٥) "تيسير العلام" (ص٢٢٦)

الثاني: تفضيل الفقير الصابر.

الثالث: تفضيل الكفاف.

الرابع: التفضيل باعتبار التقوى لا بالغنى والفقر.

الخامس: التوقف في المسألة[١].

صورة الاختلاف في المسألة:

قال ابن الجوزي: صورة الاختلاف في فقير ليس بحريص وغني ليس بممسك، إذ لا يخفى أن الفقير القانع أفضل من الغني البخيل وأن الغني المنفق أفضل من الفقير الحريص، وكل ما يراد لغيره ولا يراد لعينه ينبغي أن يضاف إلى مقصوده فبه يظهر فضله، فالمال ليس محذورا لعينه بل لكونه قد يعوق عن الله وكذا العكس، فكم من غني لم يشغله غناه عن الله وكم من فقير شغله فقره عن الله، وإن أخذت بالأكثر فالفقير عن الخطر أبعد؛ لأن فتنة الغنى أشد من فتنة الفقر ومن العصمة أن لا تجد.اهـ[٢]

ومذهب جمهور العلماء أن الغني الشاكر أفضل؛ لتعدي نفعه للغير.

ولعل أقرب الأقوال القول الرابع أن التفضيل على حسب التقوى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقد تنازع الناس أيما أفضل الفقير الصابر أم الغني الشاكر؟ والصحيح: أن أفضلهما أتقاهما فإن استويا في التقوى

---

(١)انظر: "العدة" لابن العطار (٦٥٨/٢).

(٢)انظر: "فتح الباري" لابن حجر (٢٧٥/١١).

استويا في الدرجة.اهـ[١]

وقال أيضًا: والنصوص الواردة في الكتاب والسنة حاكمة بالقسط فإن الله في القرآن لم يفضل أحدا بفقر ولا غنى كما لم يفضل أحدا بصحة ولا مرض ولا إقامة ولا سفر ولا إمارة ولا ائتمار ولا إمامة ولا ائتمام، بل قال: ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ وفضلهم بالأعمال الصالحة.اهـ[٢]

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والتحقيق أن يقال: أن أفضلها أتقاهما عند الله تعالى، فإن فُرض استواؤهما في التقوى استويا في الفضل فإن الله لم يفضل بالفقر والغنى كما لم يفضل بالعافية والبلاء وإنما فضل بالتقوى،كما قال تعالى: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ ... والتقوى مبنية على أصلين: الصبر والشكر وكل من الغني والفقير لا بدّ له منهما، فمن كان صبره وشكره أتم كان أفضل.اهـ[٣]

ثلاثون قاعدة من قواعد السعادة

١- الإيمان يذهب الهموم، ويزيل الغموم، وهو قرة عين الموحدين، وسلوة العابدين، ما مضى فات، وما ذهب مات، فلا تفكر فيما مضى فقد ذهب وانقضى، ارض بالقضاء المحتوم، والرزق المقسوم، فكل شيءٍ بقدر، فدع

---

(١) "مجموع الفتاوى"(٢١/١١).

(٢) "مجموع الفتاوى"(١٢٥/١١).

(٣) "عدة الصابرين" (ص ١٥٢).

الضجر، فالسعادة شجرةٌ ماؤها وغذاؤها وهواؤها وضياؤها الإيمان بالله والدار الآخرة.

٢- أخلص توحيدك لربك لينشرح صدرك، فبقدر صفاء توحيدك، ونقاء إخلاصك تكون سعادتك وبه تحط الذنوب، ويرضى علام الغيوب، وتفرج الكروب، واجعل قدوتك إمامك محمدا ﷺ، فإنه القائد إلى السعادة، والدال على النجاح، والمرشد إلى النجاة والفلاح، ومن رضي بالله ربًّا وبالإسلام دينًا، وبمحمدٍ ﷺ رسولا، كان حقًّا على الله أن يرضيه، وهذه أركان الرضا.

٣- إذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وعش في حدود اليوم، واجمع همك لإصلاح يومك، واترك المستقبل حتى يأتي، ولا تهتم بالغد؛ لأنك إذا أصلحت يومك صلح غدك.

٤- لا تنتظر شكرًا من أحد، ويكفي ثواب الصمد، وما عليك ممن جحد وحقد وحسد، فطهر قلبك من الحسد، ونقه من الحقد، وأخرج منه البغضاء، وأزل منه الشحناء.

٥- اعتزل الناس إلا من خير، وكن جليس بيتك، وأقبل على شأنك، وقلل من المخالطة، والكتاب أحسن الأصحاب، فسامر الكتب، وصاحب العلم، ورافق المعرفة، فالعلم يشرح الصدر، ويوسع مدارك النظر، ويفتح الآفاق أمام النفس فتخرج من همها وغمها وحزنها.

٦- تذكر أن ربك واسع المغفرة يقبل التوبة، ويعفو عن عباده، ويبدل السيئات حسنات.

٧- أنت تحمل في نفسك قناطير النعم، وكنوز الخيرات التي وهبك الله إياها، فاشكر ربك على نعمة الدين، والعقل، والعافية، والستر، والسمع، والبصر، والرزق، والذرية وغيرها، واقنع بصورتك وموهبتك، ودخلك وأهلك وبيتك تجد الراحة والسعادة، وانظر فيمن حولك فكم في الناس ممن فقد عقله، أو صحته، أو هو محبوسٌ أو مشلولٌ أو مبتلى، ومن عنده زوجة وبيتٌ وصحةٌ وكفاية مال، فقد حاز صفو العيش، فليحمد الله وليقنع، فما فوق ذلك إلا الهم، ومن أصبح آمنًا في سربه، ومعافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها.

٨- عش مع القرآن حفظًا وتلاوةً وسماعًا وتدبرًا، فإنه من أعظم العلاج لطرد الحزن والهم.

٩- توكل على الله وفوض الأمر إليه، وارض بحكمه، والجأ إليه، واعتمد عليه فهو حسبك وكافيك.

١٠- اعف عمن ظلمك، وصل من قطعك، وأعط من حرمك، واحلم عمن أساء إليك؛ تجد السرور والأمن.

١١-كرر لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنها تشرح البال، وتصلح الحال، وتحمل بها الأثقال، وترضي ذا الجلال، وأكثر من الاستغفار، فمعه الرزق، والفرج، والذرية، والعلم النافع، والتيسير، وحط الخطايا.

١٢- اعلم أن مع العسر يسرًا، وأن الفرج مع الكرب، وأنه لا يدوم الحال، وأن الأيام دول وتفاءل ولا تقنط ولا تيأس، وأحسن ظنك بربك، وانتظر منه كل

خيرٍ وجميل.

١٣- لا تجزع من الشدة، فإنها تقوي قلبك، وتذيقك طعم الراحة، وتشد من أزرك، وترفع شأنك، وتظهر صبرك، واعلم أنك لست الوحيد في البلاء، فما سلم من الهم أحد، وما نجا من الشدة بشر، وتيقن أن الدنيا دار محنٍ وبلاء، ومنغصاتٍ وكدرٍ فاقبلها على حالها واستعن بالله، وتفكر فيمن سبقوك في مسيرة الحياة، ممن عزل، وحبس وقتل، وامتحن وابتلي، ونكب وصودر، وكل ما أصابك من الهم، والغم، والحزن، والجوع، والفقر، والمرض، والدين، والمصائب فأجره على الله، واعلم أن الشدائد تفتح الأسماع والأبصار، وتحيي القلوب، وتردع النفس، وتُذَكِّر العبد، وتزيد الثواب، فافرح باختيار الله لك، فإنك لا تعلم أين مصلحتك، فقد تكون الشدة لك خيرًا من الرخاء، والبلاء يُقرب بينك وبين الله، ويعلمك الدعاء، ويذهب عنك الكبر والعجب والفخر.

١٤- انظر إلى الجانب المشرق من المصيبة، وتلمح أجرها، واعلم أنها أسهل من غيرها، وتأسى بالمنكوبين، واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، وجف القلم بما أنت لاقٍ، ولا حيلة لك في القضاء.

١٥- إذا اشتد الحبل انقطع، وإذا أظلم الليل انقشع، وإذا ضاق الأمر اتسع، بعد الجوع شبع، وعقب الظمأ ريٌّ، ويلي المرض عافية، وبعد الفقر غنى، والهم يتلوه السرور، وهذه سنة الحياة، ولن يغلب عسر يسرين، فانظر في رحمة أرحم الراحمين، غفر لبغيٍ سقت كلبًا، وتاب عمن قتل مائة نفس، وبسط يده

للتائبين، ودعا عباده للإنابة.
١٦- أحسن إلى الناس، وقدم الخير للبشر؛ لتلقى السعادة من عيادة مريض، وإعطاء فقيرٍ، والرحمة بيتيم، واجتنب سوء الظن، واطرح الأوهام والخيالات الفاسدة، والأفكار المريضة.
١٧- التفكر في الماضي حمق وجنون، وهو مثل من يطحن الطحين، وينشر النشارة، ويخرج الأموات من قبورهم، ولا تتوقع الحوادث، ولا تنتظر السوء، ولا تصدق الشائعات، ولا تستسلم للأراجيف، فأكثر ما يُخاف لا يكون، وغالب ما يُسمع من مكروهٍ لا يقع، وفي الله كفاية، وعنده رعاية، ومنه العون.
١٨- لا تجالس البغضاء، والثقلاء، والحسدة؛ فإنهم حُمَّى الروح، وهم رُسُل الكَدَر، وحملة الأحزان.
١٩- لا تحطمك التوافه، ولا تعط المسألة أكبر من حجمها، واحذر من تهويل الأمور والمبالغة في الأحداث، وكن واسع الأفق.
٢٠- التمس الأعذار لمن أساء إليك، لتعيش في سكينة وهدوء، وإياك ومحاولة الانتقام، ولا تفرح أعداءك بغضبك وحزنك، فإن هذا ما يريدون، فلا تحقق أمنيتهم الغالية في تعكير حياتك، ولا توقد فرنا في صدرك من العداوات والأحقاد، وبغض الناس وكره الآخرين، فإن هذا عذابٌ دائم، ولا تتأثر من القول القبيح، والكلام السيئ الذي يقال فيك، فإنه يؤذي قائله ولا يؤذيك.
واعلم أن سب أعدائك لك، وشتم حسادك يساوي قيمتك؛ لأنك أصبحت شيئا مذكورا، ورجلا مهمًّا.

٢١- الصلاة خير معينٍ على المصائب، وهي تسمو بالنفس في آفاقٍ علوية، وتهاجر بالروح إلى فضاء النور والفلاح، فحافظ على تكبيرة الإحرام جماعة، وأكثر المكث في المسجد، وعود نفسك المبادرة للصلاة لتجد السرور.

٢٢- إياك والذنوب فإنها مصدرُ الهموم والأحزان وهي سبب النكبات، وباب المصائب والأزمات، وداوم على: «لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين»، فلها سرٌ عجيب في كشف الكرب، ونبأٌ عظيم في رفع المحن.

٢٣- عليك بالجود فإن صدر الجواد منشرح، وباله واسع، والبخيل ضيق الصدر، مظلم القلب، مكدر الخاطر.

٢٤- لا تكن كالذباب لا يقع إلا على الجرح، فإياك والوقوع في أعراض الناس، وذكر مثالبهم، والفرح بعثراتهم، وطلب زلاتهم.

٢٥- ابسط وجهك للناس تكسب ودهم، وألن لهم الكلام يحبوك، وتواضع لهم يجلوك، ادفع بالتي هي أحسن، وترفق بالناس، وأطفئ العداوات، وسالم أعداءك، وكثر أصدقاءك، واقبل الناس على ما هم عليه، وسامح ما يبدر منهم، واعلم أن هذه هي سنة الله في الناس والحياة، وإذا أردت أن تسعد مع الناس فعاملهم بما تحب أن يعاملوك به، ولا تبخسهم أشياءهم، ولا تضع من أقدارهم.

٢٦- من أعظم أبواب السعادة دعاء الوالدين، فاغتنمه ببرهما؛ ليكون لك دعاؤهما حصنًا حصينًا من كل مكروه.

٢٧- حافظ على أذكار المناسبات فإنها حفظ لك وصيانة، وفيها من السداد

والإرشاد ما يصلح به يومك.

٢٨- عش حياة البساطة، وإياك والرفاهية، والإسراف والبذخ، فكلما ترفه الجسم تعقدت الروح، وانظر إلى من هو دونك في الجسم والصورة، والمال والبيت، والوظيفة والذرية، لتعلم أنك فوق ألوف الناس

٢٩- لن تسعد بالنوم ولا بالأكل، ولا بالشراب ولا بالنكاح، وإنما تسعد بالعمل، وهو الذي أوجد للعظماء مكانًا تحت الشمس، و احذر كلمة سوف، وتأخير الأعمال، والتسويف بأداء الواجب، فإن هذا أول الفشل والإخفاق، واترك التردد في اتخاذ القرار، وإياك والتذبذب في المواقف بل اجزم واعزم وتقدم ولا تضيع عمرك في التنقل بين التخصصات، والوظائف والمهن، فإن معنى هذا أنك لن تنجح في شيء،الزم الموهبة التي أُعطيتها، والعلم الذي ترتاح له، والرزق الذي فتح لك، والعمل الذي يناسبك، اكسب الرزق الحلال، وإياك والحرام، واجتنب سؤال الناس، والتجارة خيرٌ من الوظيفة، وضارب بمالك واقتصد في المعيشة.

٣٠- لا تغضب فإن الغضب يفسد المزاج، ويغير الخلق، ويسيء العشرة، ويفسد المودة، ويقطع الصلة، إذا غضب أحد الزوجين؛ فليصمت الآخر، وليقبل كلٌّ منهما الآخر على ما فيه، فإنه لا يخلو أحدٌ من عيب.

العشرون تكملة الخمسين من قواعد السعادة

١- ستٌّ شافية كافية: أولها: دينٌ. وثانيها: علمٌ. وثالثها: غنى. ورابعها: مروءة. وخامسها: عفو. وسادسها: عافية.

٢- اجتنب سوء الظن، واطرح الأوهام والخيالات الفاسدة، والأفكار المريضة.
٣- اعلم أن من اغتابك فقد أهدى لك حسناته، وحط من سيئاتك، وجعلك مشهورًا وهذه نعمة، وكن شجاعًا قوي القلب، ثابت النفس، لديك همة وعزيمة، ولا تغرك الزوابع والأراجيف.
٤- تيقن أن كل من تعامله من أخٍ وابنٍ وزوجةٍ وقريبٍ وصديق لا يخلو من عيب، فوطن نفسك على تقبل الجميع، ولا تعش في المثاليات بل عش واقعك، ولا ترد من الناس ما لا تستطيعه أنت؛ فكن عادلا.
٥- وزع الأعمال، ولا تجمعها في وقتٍ واحد، بل اجعلها في فترات وبينها أوقاتٍ للراحة، ليكون عطاؤك جيدًا، وانفرد بنفسك ساعةً تدبر فيها أمورك، وتراجع فيها نفسك، وتتفكر في آخرتك، وتصلح بها دنياك.
٦- ثق بنفسك ولا تعتمد على الناس، واعتبر أنهم عليك لا لك، وليس معك إلا الله، ولا تغتر بإخوان الرخاء.
٧- زر المستشفى؛ لتعرف نعمة العافية، والسجن؛ لتعرف نعمة الحرية والمصحات؛ لتعرف نعمة العقل؛ لأنك في نعمٍ لا تدري بها.
٨- كن مهذبًا في مجلسك، صموتًا إلا من خير، طلق الوجه، محترماً لجلاسك، منصتًا لحديثهم، ولا تقاطع أثناء الكلام.
٩- إطلاق النظر إلى الحرام يورث همّـا وغمًّا وجراحًا في القلب، والسعيد من غض بصره وخاف ربه، واهجر العشق والغرام والحب المحرم فإنه عذابٌ للروح، ومرضٌ للقلب، وافزع إلى ذكر الله عز وجل، ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ

الْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨]

١٠- لا تشدد على نفسك بالعبادة، والزم السنة، وسارع في الطاعة، واسلك الوسط، وإياك والغلو.

١١- حول خسائرك إلى أرباح، واصنع من الليمون شرابًا حلوًا، وأضف إلى ماء المصائب حفنة سكر، وتكيف مع ظرفك، لا تيئس من روح الله، ولا تقنط من رحمة الله، ولا تنس عون الله، فإن المعونة تنزل على قدر المئونة.

الخيرة فيما تكره أكثر منها فيما تحب، وأنت لا تدري بالعواقب، وكم من نعمةٍ في طي نقمة، ومن خيرٍ في جلباب شر.

١٢- الذي كفاك هم أمس يكفيك هم اليوم وهم غد، فتوكل على الله، فإذا كان معك فمن تخاف، وإذا كان عليك فمن ترجو.

١٣- إذا أصابتك مصيبة فتصورها أكبر تهن عليك، وتفكر بسرعة زوالها، فلولا كرب الشدة ما رجيت فرحة الراحة، وإذا وقعت في أزمة فتذكر كم من أزمةٍ مرت بك ونجاك الله منها، حينها تعلم أن من عافاك في الأولى سيعافيك في الأخرى.

١٤- اترك التردد في اتخاذ القرار، وإياك والتذبذب في المواقف بل اجزم واعزم وتقدم، ولا تتخذ قرارًا حتى تدرسه من كافة جوانبه، ثم استخر الله، وشاور أهل الثقة، فإن نجحت فهذا المراد، وإلا فلا تندم.

١٥- لُم نفسك على التقصير، ولا تلم أحدًا؛ فإن عندك من العيوب ما يملأ الوقت إصلاحه فاترك غيرك.

١٦- لا تجعل الصحة ثمنًا للمال، أو الشهوة، أو المنصب فتخسر الجميع؛ لأن من فاتته الصحة لا ينعم بمتعة، واسأل الله العفو والعافية، فإن أعطيتها فقد حزت كل خير، ونجوت من كل شر، وفزت بكل سعادة.

١٧- من لم يسعد في بيته فلن يسعد في مكانٍ آخر، ومن لم يحبه أهله فلن يحبه أحد، ومن ضيع يومه ضيع غده.

١٨- أربعة يجلبون السعادة: الأول: كتابٌ نافع. الثاني: ابن بار. الثالث: زوجةٌ محبوبة. الرابع: جليسُ صالح، وفي الله عوضٌ عن الجميع.

١٩- إن سبك بشر فقد سبوا ربهم تبارك وتعالى، أوجدهم من العدم؛ فشكوا في وجوده، أطعمهم من الجوع؛ فشكروا غيره، آمنهم من الخوف؛ فحاربوه. فلا تحمل الكرة الأرضية على رأسك، ولا تظن أن الناس يهمهم أمرنا، إنَّ زكامًا يصيب أحدهم ينسيهم موتي وموتك، وقبل أن تنام سامح الأنام، واغسل قلبك بالعفو، والغفران تجد حلاوة الإيمان.

٢٠- ابعث رسائل وقت السحر، مدادها الدمع، وقراطيسها الخدود، وبريدها القبول، ووجهتها العرش، وانتظر الجواب، وإذا سجدت فأخبره سبحانه بأمورك سرا، فإنه يعلم السر وأخفى، فمن الذي يجيب المضطر إذا دعاه؟ من الذي ينقذ الغريق إذا ناداه؟ من الذي يكشف الكرب؟ إنه الله، لا إله إلا هو، فسبحانه جعل الذل له عزة، ومسألته شرفًا، والخضوع له رفعة، والتوكل عليه كفاية.

٢١- ابتعد عن الجدل العقيم، والمجلس اللاغي، والصاحب السفيه، فإن الصاحب ساحب، والطبع لص، والعين سارقة.

٢٢- لا تنس: «حسبنا الله ونعم الوكيل»؛ فإنها تطفئ الحريق، وينجو بها الغريق، ويُعرف بها الطريق، وفيها العهد الوثيق.

واحة الدعوات والأذكار

تذكير بسنة مهجورة ودعوات مباركة

عن عبدالله بن عُمَرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قلما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه: «اللَّهُمَّ اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصيبات الدنيا، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا».(١)

قال الشيخ عبدالرزاق البدر: وهي دعوة جامعة لأبواب الخير والسعادة في الدنيا والآخرة.اهـ(٢)

فلا تغفلوا عنها رعاكم الله.

---

(١)رواه الترمذي(٣٥٠٢)، والنسائي في "عمل اليوم والليلة"(٤٠١)، وابن المبارك في "الزهد"(٤٣١)، وحسنه الألباني في "صحيح الجامع" (رقم: ١٢٦٨).

(٢) "فقه الأذكار"(٣٠٧/٣)

السنن الواردة عند سماع الأذان

الأولى: الاستماع وأن يقول مثل ما يقول المؤذن.

عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سمعتم النداء، فقولوا مثل ما يقول المؤذن»[1].

وعن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قال المؤذن: الله أكبر الله أكبر، فقال أحدكم: الله أكبر الله أكبر، ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله، قال: أشهد أن لا إله إلا الله، ثم قال: أشهد أن محمدا رسول الله قال: أشهد أن محمدا رسول الله، ثم قال: حي على الصلاة، قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: حي على الفلاح، قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: الله أكبر الله أكبر، قال: الله أكبر الله أكبر، ثم قال: لا إله إلا الله، قال: لا إله إلا الله من قلبه دخل الجنة». رواه مسلم (٣٨٥)

الثانية: أن يقول بعد الشهادتين: رضيت بالله ربا وبمحمد رسولا وبالإسلام دينا.

عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قال حين يسمع المؤذن أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، رضيت بالله ربا وبمحمد رسولا، وبالإسلام دينا، غفر له ذنبه»[2].

---

(١)رواه مسلم(٣٨٣)

(٢)رواه مسلم(٣٨٦)، وموضع هذه الكلمات من الأذان بعد الشهادتين، ففي "صحيح ابن خزيمة"(١/٢٥٠) (٤٢٢) بسند جيد عن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «من سمع المؤذن

الثالثة: يقول: «وأنا وأنا» عند تشهد المؤذن.

عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا أن رسول الله ﷺ كان إذا سمع المؤذن يتشهد قال: «وأنا وأنا».(١)

الرابعة: الصلاة على النبي ﷺ وسؤال الله له الوسيلة والمقام المحمود.

عن جابر أن النبي ﷺ قال: من قال حين يسمع النداء: «اللَّهُمَّ رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة»(٢).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص، أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن، فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علي، فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشرا، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة، لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت له

يتشهد فالتفت في وجهه، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا رسول الله، رضيت بالله ربا، وبالإسلام دينا، غفر له ما تقدم من ذنبه».

وفي "مستخرج أبي عوانة" (٢٨٣/١)(٩٩٥) بلفظ: «من سمع المؤذن قال: أشهد أن لا إله إلا الله، قال: أشهد أن لا إله إلا الله، رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر».

(١)أخرجه أبو داود(٥٢٦)، وابن حبان (١٦٨٣)، والحاكم(٢٠٤/١)، وهو في "صحيح أبي داود" رقم (٥٣٨).

(٢)رواه البخاري(٤٧١٩)

الشفاعة».[١]

الخامسة: الدعاء بما تشاء بعد ترديد الأذان.

عن عبد الله بن عمرو، أن رجلا قال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، إن المؤذنين يفضلونا بأذانهم، فقال له رسول الله ﷺ: «قل كما يقولون، فإذا انتهيت، فسل تعط».[٢]

غنيمة باردة وسنة مهجورة.

قول دبر كل صلاة مكتوبة وعند النوم:

الله أكبر كبيرا عدد الشفع والوتر وكلمات الله التامات الطيبات المباركات (ثلاثا)

لا إله إلا الله عدد الشفع والوتر وكلمات الله التامات الطيبات المباركات(ثَلَاثًا)

دليله: قال الإمام ابن أبي شيبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "مصنفه" (٢٩٢٥٦):

حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ، أَخْبَرَنَا مِسْعَرٌ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ طَيْسَلَةَ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: «مَنْ قَالَ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ، وَإِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ: اللَّهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا عَدَدَ الشَّفْعِ، وَالْوِتْرِ، وَكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ الطَّيِّبَاتِ الْمُبَارَكَاتِ، ثَلَاثًا، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مِثْلُ ذَلِكَ، كُنَّ لَهُ فِي قَبْرِهِ نُورًا، وَعَلَى الْجِسْرِ نُورًا، وَعَلَى الصِّرَاطِ نُورًا حَتَّى يُدْخِلْنَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ».

---

(١)رواه مسلم (٣٨٤)

(٢)رواه أحمد (٦٦٠١)، وأبو داود(٥٢٤)، وصححه الألباني في "صحيح سنن أبي داود" (٥٣٧).

قال المتقي الهندي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "كنز العمال" (٦٤١/٢): سنده حسن.

قلت: بل سنده صحيح رجاله ثقات، وهو موقوف وله حكم الرفع.

معنى الشفع والوتر:

الشَّفْعِ وَالْوَتْرِ يعني الخلق والخالق. فالشفع بمعنى جميع الخلق، للازدواج فيه كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]، قال مجاهد: كل خلق الله شفع. السماء والأرض. والبر والبحر. والجن والإنس والشمس والقمر والكفر والإيمان، والسعادة والشقاوة. والهدى والضلالة. والليل والنهار.

وَالْوَتْرِ هو الله تعالى لأنه من أسمائه. وهو بمعنى الواحد الأحد. فأقسم الله بذاته وخلقه.

وقيل: المعنى بالشفع والوتر، جميع الموجودات من الذوات والمعاني؛ لأنها لا تخلو من شفع ووتر. انتهى[١]

والمقصود بالجسر هنا: القنطرة التي تكون بين الجنة والنار، حيث يتقاص المؤمنون مظالم كانت بينهم في الدنيا، كما روى البخاري (٢٤٤٠) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«إِذَا خَلَصَ المُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ حُبِسُوا بِقَنْطَرَةٍ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيَتَقَاصُّونَ مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا نُقُّوا وَهُذِّبُوا، أُذِنَ لَهُمْ بِدُخُولِ الجَنَّةِ».

والله أعلم.

---

(١)من "محاسن التأويل" للقاسمي(٤٦٥/٩)

هل تريد أن يغفر الله لك إذا أويت إلى فراشك وإن كثرت ذنوبك؟

قل عند النوم: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ. سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ».

دليله: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَالَ حِينَ يَأْوِي إِلَى فِرَاشِهِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ، غَفَرَ اللَّهُ ذُنُوبَهُ أَوْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ»(١).

---

(١)أخرجه ابن حبان في "صحيحه" (٥٥٢٨) ورجاله ثقات، وحبيب بن أبي ثابت مدلس ولكنه قد صرح بالتحديث كما في "مسند ابن الجعد" (٥٥٢) قَالَ حَبِيبٌ: فَقُلْتُ لِعَبْدِ اللَّهِ: أَنْتَ سَمِعْتَ هَذَا مِنْ أَبِي هُرَيْرَةَ؟ قَالَ: نَعَمْ. وأخرجه ابن السني في "عمل اليوم والليلة" (٧٢٢)، وأبو نعيم في "أخبار أصبهان "(٣١٩/١)، وابن أبي شيبة في "مصنفه" (٢٩٣٠٧)، والنسائي في "السنن الكبرى"(١٠٥٧٨) وفي "عمل اليوم والليلة"رقم(٨١٠، ٨١١) موقوفا، ولا يضر الاختلاف في رفعه ووقفه فمثله لا يقال من قبيل الرأي، وقد صححه مرفوعا الإمام الألباني كما في "السلسلة الصحيحة"رقم(٣٤١٤).

من روائع مواقف وأقوال السلف

تأديب المغتاب والرد على غيبته

عن سفيان بن حسين، قال: كنت عند إياس بن معاوية وعنده رجل تخوفت إن قمت من عنده أن يقع فيَّ، قال: فجلست حتى قام، فلما ذكرته لإياس، قال: فجعل ينظر في وجهي فلا يقول لي شيئا حتى فرغت، فقال لي: أغزوت الديلم؟ قلت: لا. قال: فغزوت السند؟ قلت: لا. قال: فغزوت الهند؟ قلت: لا. قال: فغزوت الروم؟ قلت: لا. قال: فسلم منك الديلم، والسند، والهند، والروم وليس يسلم منك أخوك هذا. فلم يعد سفيان إلى ذلك.[١]

قلت: ما أجمل هذا الأسلوب التربوي اللطيف العميق، فلو قام به الناس اليوم تجاه من جعل أعراض الناس فاكهةً له؛ هل تراه سيعود؟

لَكِنَّا اليوم- إلا من رحم الله- نتفكه بأعراض الناس مع المتفكهين ونأكل مع الآكلين بلا خوف من الله رب العالمين، وهذا من علامة الخذلان - عياذا بالله من ذلك-.

و ما أحسن ما قاله الإمام العالم العابد بكر بن عبدالله المزني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذا رأيت الرجل مُوكَّلًا بعيوب الناس ناسيا لعيبه، فاعلم أنه قد مُكِرَ به[٢].

وعن أبي الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: وَيْلٌ لِكل جَمَّاعٍ فَاغِرٍ فَاهُ كأنه مجنون، يَرى مَا

---

(١)أخرجه الفسوي في "المعرفة والتاريخ "(٩٥/٢)، ومن طريقه البيهقي في"شعب الإيمان" (٦٣٥١)، وابن عساكر في "تاريخ دمشق"(١٨/١٠)

(٢) "البداية والنهاية" (٢٨٤/٩)

عِنْدَ النَّاسِ، وَلَا يَرَى ما عنده، لَوْ يستطيع أَنْ يَصِلَ اللَّيل بالنهارِ وَصَلَ، وَيْلٌ لَهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ أَوْ قَالَ: عَذَابٍ شَدِيدٍ.[١]

هضم النفس والإزراء بها

قال الإمام أبو نعيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حدثنا سليمان بن أحمد ، ثنا محمد بن موسى ، ثنا محمد بن بكار ، قال: بعث هارون الرشيد إلى ابن السماك فدخل وعنده يحي ابن خالد البرمكي فقال يحي: إن أمير المؤمنين أرسل إليك لما بلغه من صلاح حالك في نفسك وكثرة ذكرك لربك عز وجل ودعائك للعامة فقال ابن السماك: «أما ما بلغ أمير المؤمنين من صلاحنا في أنفسنا فذلك بستر الله علينا فلو اطلع الناس على ذنب من ذنوبنا لما أقدم قلب لنا على مودة. ولا جرى لسان لنا بمدحة، وإني لأخاف أن أكون بالستر مغرورا وبمدح الناس مفتونا وإنى لأخاف أن أهلك بهما وبقلة الشكر عليهما فدعا بدواة وقرطاس فكتبه إلى الرشيد».[٢]

قلت: وفي هذا الأثر من الفقه العظيم والأدب الكريم: هضم النفس وتأديبها وتجنب العجب والاغترار بها، وهذا واجب على المسلمين كافة وطلاب العلم خاصة، وليت شعري كيف بنا لو أدرك الخطيب البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ زماننا، حين قال -يشكو طلاب العلم في زمانه-: وقد رأيت خلقا من أهل هذا الزمان

---

(١)أخرجه أحمد في "الزهد"(١٧٧)، وأبو داود في "الزهد"(٢٥١)، وأبو نعيم في "الحلية" (٢١٧/١) ورجاله ثقات.

(٢) "حلية الأولياء وطبقات الأصفياء" (٢٠٩/٨)

ينتسبون إلى الحديث، ويعدون أنفسهم من أهله المتخصصين بسماعه ونقله، وهم أبعد الناس مما يدعون، وأقلهم معرفة بما إليه ينتسبون، يرى الواحد منهم إذا كتب عددا قليلا من الأجزاء، واشتغل بالسماع برهة يسيرة من الدهر، أنه صاحب حديث على الإطلاق، ولما يجهد نفسه ويتعبها في طلابه، ولا لحقته مشقة الحفظ لصنوفه وأبوابه... وهم مع قلة كتبهم له، وعدم معرفتهم به أعظم الناس كبرا، وأشد الخلق تيها وعجبا، لا يراعون لشيخ حرمة، ولا يوجبون لطالب ذمة، يخرقون بالراوين، ويعنفون على المتعلمين، خلاف ما يقتضيه العلم الذي سمعوه، وضد الواجب مما يلزمهم أن يفعلوه... والواجب أن يكون طلبة الحديث أكمل الناس أدبا، وأشد الخلق تواضعا، وأعظمهم نزاهة وتدينا، وأقلهم طيشا وغضبا، لدوام قرع أسماعهم بالأخبار المشتملة على محاسن أخلاق رسول الله ﷺ وآدابه، وسيرة السلف الأخيار من أهل بيته وأصحابه، وطرائق المحدثين، ومآثر الماضين، فيأخذوا بأجملها وأحسنها، ويصدفوا عن أرذلها وأدونها.اهـ[1]

وما أجمل ما قاله الإمام الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ محذرا من إعجاب طالب العلم بعلمه وتعظيم نفسه قال: وأشر الكبر الذي فيه من يتكبر على العباد بعلمه ويتعاظم في نفسه بفضيلته؛ فإن هذا لم ينفعه علمه، فإن من طلب العلم للآخرة كسره علمه وخشع قلبه واستكانت نفسه وكان على نفسه بالمرصاد فلا يفتر عنها بل يحاسبها كل وقت ويتفقدها فإن غفل عنها جمحت عن الطريق المستقيم

(١) "الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع" (١/٧٥-٧٨) بتصرف

وأهلكته، ومن طلب العلم للفخر والرياسة وبطر على المسلمين وتحامق عليهم وازدراهم فهذا من أكبر الكبر ولا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.اهـ[(١)]

وقَالَ الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: التواضع من أخلاق الكرام والتكبر من شيم اللئام، التواضع يورث المحبة، والقناعة تورث الراحة. وقال: أرفع الناس قدرا من لا يرى قدره، وأكثرهم فضلا من لا يرى فضله.اهـ[(٢)]

من روائع أخلاق الفقهاء

قال أبو حازم الأعرج: لقد رأيتُنا في مجلس زيد بن أسلم أربعين فقيها، أدنى خَصلة فينا التواسي بما في أيدينا، وما رأيت في مجلسه مُتَمَارِيَين ولا مُتَنَازِعَين في حديث لا ينفعنا.[(٣)]

هكذا فلتكن الهمم

هِمَّةُ امرأة صالحة

أخرج الإمام أبو حاتم في "الزهد"(٥٢) عن يَزِيد بْن إِبْرَاهِيمَ، قَالَ: سَمِعْتُ بَكْرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْمُزَنِيَّ: أَنَّ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ كَانَتْ تَقُولُ إِذَا أَصْبَحَتْ: «يَا نَفْسُ، الْيَوْمُ يَوْمُكَ، لَا يَوْمَ لَكِ غَيْرُهُ»، فَتَعْمَلُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ

---

(١) "الكبائر"(ص: ٧٨)

(٢) "سير أعلام النبلاء" (٨/٢٨٠)

(٣) "سير أعلام النبلاء" (٥/٣١٦)

تَعْمَلَ، فَإِذَا أَمْسَتْ قَالَتْ: «يَا نَفْسُ، اللَّيْلَةُ لَيْلَتُكِ، لَا لَيْلَةَ لَكِ غَيْرَهَا»، فَتَعْمَلُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَعْمَلَ حَتَّى تُصْبِحَ. فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبُهَا حَتَّى مَضَتْ.

وأخرج الإمام البيهقي في "الزهد الكبير"(ص٢٢٧) عن أَبِي عُثْمَانَ الْكَرْخِيُّ، ثنا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَمْرٍو سَمِعَهُ يَقُولُ: أَدْرَكْتُ امْرَأَةً لَا أُقَدِّمُ عَلَيْهَا رَجُلًا وَلَا امْرَأَةً مِمَّنْ أَدْرَكْتُ كَانَتْ إِذَا أَصْبَحَتْ قَالَتْ: «يَا نَفْسُ هَذَا الْيَوْمَ سَاعِدِينِي يَوْمِي هَذَا فَلَعَلَّكِ لَا تَرَيْنَ بَيَاضَ يَوْمٍ أَبَدًا»، وَإِذَا أَمْسَتْ قَالَتْ: «يَا نَفْسُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ سَاعِدِينِي لَيْلَتِي هَذِهِ فَلَعَلَّكِ لَا تَرَيْنَ سَوَادَ لَيْلَةٍ أَبَدًا»، فَمَا زَالَتْ تَخْدَعُ وَتَدْفَعُ يَوْمَهَا بِلَيْلِهَا وَلَيْلَهَا بِنَهَارِهَا حَتَّى مَاتَتْ عَلَى ذَلِكَ.

وأخرج أحمد في "الزهد"(ص: ١٧٠)، وهناد في "الزهد"(٢٩١/١) عن مُحَمَّد بْن فُضَيْلٍ، حَدَّثَنَا أَبِي قَالَ: كَانَتْ مُعَاذَةُ الْعَدَوِيَّةُ إِذَا جَاءَ النَّهَارُ قَالَتْ: «هَذَا يَوْمِي الَّذِي أَمُوتُ فِيهِ» فَمَا تَنَامُ حَتَّى تُمْسِيَ وَإِذَا جَاءَ اللَّيْلُ قَالَتْ: «هَذَا لَيَلِيَ الَّذِي أَمُوتُ فِيهِ» فَلَا تَنَامُ حَتَّى تُصْبِح، وَإِذَا جَاءَ الْبَرْدُ لَبِسَتِ الثِّيَابَ الرِّقَاقَ حَتَّى يَمْنَعَهَا الْبَرْدُ مِنَ النَّوْمِ.اهـ

خصال الرجولة

عن سفيان بن عيينة، قال: قال وهب بن منبه: لا يستكمل الرجل العقل حتى يستكمل عشر خصال: حتى يكون الخير منه مأمولا، والشر منه مأمونا، وحتى لا يتبرم بكثرة حوائج الناس من قبله، وحتى يكون الفقر أحب إليه من الغنى، والذل أعجب إليه من العز، والتواضع أحب إليه من الشرف، وحتى

يستقل كثير المعروف من نفسه، ويستكثر قليل المعروف من غيره، والعاشرة- وما العاشرة - بها شاد مجده، وعلا جده، إذا خرج من بيته لم يلق أحدا إلا رأى أنه خير منه.اهـ[١]

أثر نفيس ونصيحة ذهبية للمقبلين على الزواج

قال الزبير بن العوام: « سمعت أبا بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «من أراد أن يتزوج امرأة فلينظر إلى أبيها وأخيها، فإنها تأتيه بأحدهما»[٢].

قلت: الذي يتلخص في هذا الأثر: أن المقبل على الزواج ينبغي له بل يجب عليه أن يسأل عن نسب من يختارها لتكون أم أولاده، فإنها تأتيه بأحدهما: يعني: يكون ولده كجده أو كخاله غالبا.

وهذا واقع مرئي مشاهد، وأمر محسوس متعاهد، فإن منشأ الخير ومبدأ الفضيلة ومهبط المكارم لا ينتج منه إلا أمثاله كما قال عز وجل: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣٤]

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ في "تفسيره" (ص ١٢٨): ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣٤]، أي: حصل التناسب والتشابه بينهم في الخلق والأخلاق الجميلة، كما قال تعالى لما ذكر جملة من الأنبياء الداخلين في ضمن

---

(١) "مداراة الناس" لابن أبي الدنيا (ص: ٤٧)(٣٧)

(٢) "نسب قريش" للزبيري(ص ٢٣٩)، "المنتظم" لابن الجوزي(٣٤٥/٤)، "تاريخ دمشق" لابن عساكر(١٢٨/٢٨)، "العقد الثمين" للفاسي(٣٢٥/٤).

هذه البيوت الكبار: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[الأنعام: ٨٧].اهـ

وقال تعالى -في قصة مريم البتول لما أتت قومها بالمسيح تحمله-:﴿يَاأُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾. [مريم: ٢٨]

ساق ابن جرير الطبري بسنده عن قتادة -في قوله تعالى: ﴿يَاأُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾- قال: «كانت من أهل بيت يُعرفون بالصلاح، ولا يُعرفون بالفساد، ومن الناس من يُعرفون بالصلاح ويتوالدون به، وآخرون يُعرفون بالفساد ويتوالدون به».[١]

و قال الألوسي في "روح المعاني" (٤٠٧/٨): ﴿ما كانَ أبُوكِ امْرَأ سَوْءٍ وما كانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ تَقْرِيرٌ لِكَوْنِ ما جاءَتْ بِهِ فَرِيًّا أوْ تَنْبِيهٌ عَلى أنَّ ارْتِكابَ الفَواحِشِ مِن أوْلادِ الصّالِحِينَ أفْحَشُ، وفِيهِ دَلِيلٌ عَلى أنَّ الفُرُوعَ غالِبًا تَكُونُ زاكِيَةً إذا زَكَتِ الأُصُولُ ويُنْكَرُ عَلَيْها إذا جاءَتْ بِضِدِّ ذَلِكَ. اهـ

وكما قيل: «إذا أردت أن تبحث عن النساء فلا تبحث عن النساء، ولكن ابحث عن الرجال ففي بيوت الرجال يوجد النساء».

إحساسك بهموم الآخرين شاهد على صدق محبتك وطيبة قلبك

عن أَنَس قال: قَالَ أَبُو طَلْحَةَ لِأُمِّ سُلَيْمٍ: لَقَدْ سَمِعْتُ صَوْتَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ضَعِيفًا، أَعْرِفُ فِيهِ الْجُوعَ، فَهَلْ عِنْدَكِ مِنْ شَيْءٍ ؟ قَالَتْ: نَعَمْ... الخ.[٢]

---

(١)وانظر: "تفسير ابن كثير" (١٠٩/٣)

(٢)متفق عليه، [خ (٣٥٧٨) وم(٢٠٤٠)]



قلت: يا لله ما أجمل هذا الشعور وهذا الصدق في المحبة.

إخوتاه: إن الإحساس بالآخرين نعمة عظيمة، ومنة كريمة، ومنحة ربانية ينعم بها الله عز وجل على من شاء من عباده.

وُجِدت بالنبي ﷺ؛ فأحسّ بمن حوله، فرحمَ الصغير، وقدّر الكبير، وأغاث الملهوف، ونصر المظلوم، وزار المريض، وعزّى المصاب، بل تعدى إحساسه بني جنسه إلى الطير؛ فأمر بإطلاق سراح الحُمَّرة، وإلى الحيوان فعاتب صاحب البعير، وسأل أبا عمير عن النقير، وقال في الحديث الصحيح: «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»، وقال: «من لا يرحم لا يُرحم».

إخواني الكرام: إن من المصائب، عندما تُبتلى بصاحب مصاب بمرض «عدم الإحساس»، وبلغت منه الأنانية مبلغًا عظيمًا وتمكن منه حب الذات تمكنا عجيبًا، لا همّ له إلا نفسه، لا يراعي لك ظرفا، ولا يرحم لك ضعفا، ولا غاية له إلا مصلحته، ولا تكمل سعادته إلا في راحته، حتى ولو كان ذلك على حساب غيره، تُرهقك مطالبه، وتزعجك أوامره، نتيجة هذا الداء المستعصي علاجه، والصعب إصلاحه؛ لأنه ليس عضوا يُبتر، ولا جرحا يضمد، ولا ورما يُستأصل؛ إنما هو إحساس متبلّد، وشعور ميت!

كثيرا ما نسمع: «أحبك، أعزك، أنت لي أكثر من أخ... أنت وأنت لي كذا وكذا» وهلم جَرًّا.. و كل ذلك من باب التعاطف، والتعاطف المجرد، الذي يُفْقَد عند أول موقف.

فإنما الصدق والبرهان في المحبة- أيها الإخوة- تكمن في المشاركة في تغيير

واقع من تحب وتسد خلته وتقف عند حاجته وهذا من فوائد هذا الحديث.

قال ابن الملقن- وهو يعدد فوائد الحديث-: فيه سَدُّ الرجل خلة أخيه إذا علم منه حاجة نزلت به من حيث لا يسأله ذلك، وهذا من مكارم الأخلاق.اهـ[١]

والإحساس بالآخرين قَلْبًا وقالبًا هو وصف المؤمن المحقق للإيمان ففي الصحيحين عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ، تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»[٢].

نسأل الله العظيم أن يوفقنا لمكارم الأخلاق ويصرف عنا سفسافها.

حقيقة الجود

أفضل العطية ما كان قبل الطلب

قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ جَعْفَرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَيْسَ الْجَوَادُ الَّذِي يُعْطِي بَعْدَ الْمَسْأَلَةِ، لِأَنَّ الَّذِي يَبْذُلُ السَّائِلُ مِنْ وَجْهِهِ وَكَلَامِهِ أَفْضَلُ مِمَّا يَبْذُلُ الْمَسْئُولُ مِنْ نَائِلَتِهِ، وَإِنَّمَا الَّذِي يَبْتَدِئُ بِالْمَعْرُوفِ»[٣].

وفي لفظ: «لَيْسَ الْجَوَادُ الَّذِي يُعْطِيكَ بَعْدَ الْمَسْأَلَةِ، وَلَكِنَّ الْجَوَادَ الَّذِي يَبْتَدِئُ؛ لِأَنَّ مَا يَبْذِلُهُ إِلَيْكَ مِنْ وَجْهِهِ أَشَدُّ عَلَيْهِ مِمَّا يُعْطَى عَلَيْهِ»[٤].

---

(١) "التوضيح"(١٠٧/٢٦)

(٢)البخاري(٦٠١١)، ومسلم(٢٥٨٦) واللفظ له.

(٣)أخرجه البيهقي في "شعب الإيمان"رقم (١٠٤١٥)

(٤)وأخرجه ابن أبي الدنيا في "قضاء الحوائج"رقم(٤٢)

وقَالَ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ الْعَبَّاسِ لِابْنِ أَخِيهِ: «إِنَّ أَفْضَلَ الْعَطِيَّةِ مَا أَعْطَيْتَ الرَّجُلَ قَبْلَ الْمَسْأَلَةِ، فَإِذَا سَأَلَكَ فَإِنَّمَا تُعْطِيهِ ثَمَنَ وَجْهِهِ حِينَ بَذَلَهُ إِلَيْكَ».[١]

قلت: فأين نحن من هؤلاء؟

لا يعطي الواحد مِنَّا أخاه حتى يعطيه ليس فحسب ثمن وجهه بل وربما ثمرة فؤاده، وإذا أعطاه لا يـمَلّ ولا يَكَلّ من المَنِّ عليه، عياذا بالله من ذلك.

فرحم الله السلف ورضي الله عنهم.

لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لما نفى النبي ﷺ الإيمان عمن لم يحب لأخيه ما يحب لنفسه دل على أن ذلك من خصال الإيمان، بل من واجباته، فإن الإيمان لا يُنفى إلا بانتفاء بعض واجباته، كما قال: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن». الحديث. وإنما يحب الرجل لأخيه ما يحب لنفسه إذا سلم من الحسد والغل والغش والحقد، وذلك واجب كما قال النبي ﷺ:«لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا»[٢].

فالمؤمن أخو المؤمن يحب له ما يحب لنفسه ويحزنه ما يحزنه كما قال ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى سائر الجسد بالحمى والسهر»[٣].

---

(١) "قضاء الحوائج" لابن أبي الدنيا رقم(٣٩)

(٢) "صحيح مسلم" (٥٤)

(٣)متفق عليه، [خ(٦٠١١) م(٢٥٨٦)].

فإذا أحب المؤمن لنفسه فضيلة من دين أو غيره أحب أن يكون لأخيه نظيرها من غير أن تزول عنه. قال ابن عباس: إني لأمر بالآية من القرآن فأفهمها فأود أن الناس كلهم فهموا منها ما أفهم. وقال الشافعي: وددت أن الناس كلهم تعلموا هذا العلم ولم ينسب إلي منه شيء.

فأما حب التفرد عن الناس بفعل ديني أو دنيوي: فهو مذموم، قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣]. وقد قال علي وغيره: هو أن لا يحب أن يكون نعله خيرا من نعل غيره ولا ثوبه خيرا من ثوبه. وفي الحديث المشهور في "السنن": «من تعلم العلم ليباهي به العلماء أو يماري به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس إليه فليتبوأ مقعده من النار»[١]. اهـ[٢]

قول قاطن وعمل ظاعن

عن أبي العالية الشّاميّ قَالَ: لقي رجلٌ يَحْيَى بْن أكثم- وهو يومئذ عَلَى قَضَاء القضاة- فقال لَهُ أصلحَ الله القاضي، كم آكل؟ قَالَ: فوق الجوع ودونَ الشبع.

قَالَ: فكم أضحك؟ قَالَ: حتى يُسفر وجهك ولا يَعلو صوتك.

قَالَ: فكم أبكي؟ قَالَ: لا تَمل البكاء من خشية الله تعالى.

قَالَ: فكم أخفي من عملي؟ قَالَ: ما استطعت.

---

(١) "سنن ابن ماجه" (٩٣/١)(٢٥٣)، وهو في "صحيح الجامع" (٦١٥٨)

(٢) "فتح الباري"(٤٥/١-٤٧).

قَالَ: فكم أظهر منه؟ قَالَ: ما يقتدي بك البَر الخَيِّر، ويُؤْمَن عليك قولُ الناس. فقال الرجل: سُبحان الله، قول قاطن وعمل ظاعن.[١]

الدنيا كلها قليل

قال الإمام القدوة الواعظ ابْنُ السَّمَّاكِ أَبُو العَبَّاسِ مُحَمَّدُ بنُ صَبِيْحٍ العِجْلِيُّ- رحمه الله-: هب الدنيا في يديك، ومثلها ضم إليك، وهب المشرق والمغرب يجيء إليك، فإذا جاءك الموت، فماذا في يديك؟! ألا من امتطى الصبر قوي على العبادة، ومن أجمع الناس استغنى عن الناس، ومن أهمته نفسه لم يول مرمتها غيره، ومن أحب الخير وفق له، ومن كره الشر جنبه، ألا متأهب فيما يوصف أمامه، ألا مستعد ليوم فقره، ألا مبادر فناء أجله، ما ينتظر من ابيضت شعرته بعد سوادها، وتكرش وجهه بعد انبساطه، وتقوس ظهره بعد انتصابه، وكل بصره، وضعف ركنه، وقل نومه، وبلي منه شيء بعد شيء في حياته، فرحم الله امرأ عقل الأمر، وأحسن النظر، واغتنم أيامه.

الدنيا كلها قليل، والذي بقي منها قليل، والذي لك من الباقي قليل، ولم يبق من قليلك إلا قليل، وقد أصبحت في دار العزاء، وغدا تصير إلى دار الجزاء، فاشتر نفسك، لعلك تنجو.اهـ[٢]

دليل الأخوة

قال الإمام ابن حبان البستي رحمه الله: والإخوان يعرفون عند الحوائج كما أن

---

(١) "تاريخ بغداد" (٢٠٣/١٤)، "تاريخ دمشق" (٧٤/٦٤)، "تهذيب الكمال" (٢١٩/٣١).

(٢) "سير أعلام النبلاء" (٣٣٠/٨)

الأهل تختبر عند الفقر لأن كل الناس في الرخاء أصدقاء وشر الإخوان الخاذل لإخوانه عند الشدة والحاجة كما أن شر البلاد بلدة ليس فيها خصب ولا أمن.اه[١]

حبس الكلمة خوفا من المباهاة

قال عيسى بن مسكين: قلت لسحنون: «تأتيك المسائل مشهورة مفهومة فتأبى الجواب فيها؟ » فقال: «سرعة الجواب بالصواب أشد فتنة من فتنة المال».

وقال: «كان بعض من مضى يريد أن يتكلم الكلمة، ولو تكلم بها لانتفع بها خلق كثير، فيحبسها ولا يتكلم بها مخافة المباهاة»[٢] .

إن في العلل لنعما

عن إِبراهيم بْن العبّاس الصّوليّ الْكَاتِبُ قَالَ: اعتل الفضل بن سهل ذوالرئاستين علة بخراسان، ثم برأ، فجلس للناس، فهنؤوه بالعافية، وتصرفوا في الكلام، فلما فرغوا أقبل على الناس فقال: إن في العلل لنعما ينبغي للعقلاء أن يعرفوها: تمحيص للذنب، وتعرض لثواب الصبر، وإيقاظ من الغفلة، وإذكار للنعم في حال الصحة، واستدعاء للتوبة، وحض على الصدقة، وفي قضاء الله وقدره بعد الخيار. فنسي الناس ما تكلموا به، وانصرفوا بكلام الفضل.اه[٣]

---

(١) "روضة العقلاء"(ص: ٢٤٧)

(٢) "رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية" (٣٥٥/١)

(٣) "المهروانيات" (٩٥٢/٢)، "تاريخ بغداد وذيوله" ط العلمية (٣٣٩/١٢)

خطورة الكذب

عن سُفْيَان بنِ عُيَيْنة ـ رحمه الله ـ قال: «كُلُّ ذَنْبٍ جُعِلَتْ فيه كفَّارةٌ فهو مِنْ أيسرِ الذنوب، وكُلُّ ذَنْبٍ لم يُجْعَلْ فيه الكفَّارةُ فهو أَشَدُّ الذنوب، والكذبُ لم يُجْعَلْ فيه كفَّارةٌ مِنْ عِظَمِه»[١].

جوهر المرء وأركان المروءة

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: جوهر المرء في خلالٍ ثلاث: كتمان الفقر حتى يظن الناس من عفتك أنك غني، وكتمان الغضب حتى يظن الناس أنك راضٍ، وكتمان الشدة حتى يظن الناس أنك متنعم.

وقال: المروءة أربعة أركان: حسن الخلق، والسخاء، والتواضع، والنُّسُك.اهـ[٢]

العلم الذي لا ينفع

قَالَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ: مَنْ أُوتِيَ عِلْمًا لَا يَزْدَادُ فِيهِ خَوْفًا وَحُزْنًا وَبُكَاءً خَلِيقٌ بِأَنْ لَا يَكُونَ أُوتِيَ عِلْمًا يَنْفَعُهُ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾ [النجم: ٦٠].[٣]

أصول اختلاف الناس

قال يحي بن معاذ الرازي: اختلاف الناس كلهم يرجع إلى ثلاثة أصول، فلكل

---

(١) "جزءٌ فيه مجلسان مِنْ إملاء النسائي"(٣٧)

(٢) "مناقب الشافعي" للبيهقي (١٨٨/٢)

(٣)أخرجه البيهقي في "شعب الإيمان" (٢٨٩/٣) بسند جيد

واحد منها ضد، فمن سقط عنه وقع في ضده: التوحيد وضده الشرك، والسنة وضدها البدعة، والطاعة وضدها المعصية.اهـ[١]

الحسد

الحسد: كبيرة من كبائر الذنوب، وجريمة من الجرائم التي حذر منها الشرع وبيّن أنها صفة من صفات اليهود، وعلامة على الشر الكبير في نفس الحاسد.

قال الله عز وجل: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وقال الله عز وجل: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾[النساء: ٥٤]

وأمر الله بالاستعاذة من شر الحاسد، وأنزل سورة الفلق، وفيها: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥ ﴾ [الفلق: ٥]، ونهى نبينا عليه الصلاة والسلام عن الحسد في أحاديث كثيرة، منها: قوله ﷺ: «لا تحاسدوا» متفق عليه.

ويزداد شرا إذا كان في العلم، فإنه: يمحق بركة العلم، ويفسد على طالب العلم طريقه في الطلب، ويقسّي قلبه، ويبعده عن طريق الخير.

والنفس قد تعتريها هذه الآفة: آفة الحسد، مهما بلغ علم صاحبها، ولكن السعيد من أخفاها، وجاهد نفسه على التخلص منها، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ولهذا يقال: ما خلا جسد من حسد، ولكن الكريم يخفيه،

---

(١) "الاعتصام" للشاطبي (١/١٥٤)

واللئيم يبديه.اهـ[(١)]

وكم ابتلي من عالم والسبب الحسد

أخرج البيهقي في "مناقب الشافعي" (٢/٢٥٩) من طريق أبي غالب علي بن أحمد بن النشر الأزدي عن الإمام أحمد أنه سئل عن محمد بن إدريس الشافعي، قال أحمد: لقد من الله علينا به، لقد كنا تعلمنا كلام القوم، وكتبنا كتبهم حتى قدم علينا الشافعي، فلما سمعنا كلامه علمنا أنه أعلم من غيره، وقد جالسناه الأيام والليالي فما رأينا منه إلا كل خير رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال أبو غالب: فقال له رجل: يا أبا عبد الله، فإن يحي بن معين وأبا عبيد لا يرضيانه، يعني في نسبتهما إياه إلى التشيع، فقال أحمد: ما أرى ما يقولان، والله، ما رأينا منه إلا خيرا، ولا سمعنا إلا خيرا، ثم قال أحمد لمن حوله: «اعلموا ـ رحمكم الله تعالى ـ أن الرجل من أهل العلم، إذا منحه الله شيئا من العلم، وحرمه قرناؤه وأشكاله حسدوه فرموه بما ليس فيه، وبئست الخصلة في أهل العلم».

قلت: الإمام الشافعي الذي أطبق في الخافقين ذكره وفضله لم يسلم من حسد الحاسدين، كما قال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو يصف هذه الظاهرة ويقول: ونال بعض الناس منه غضا فما زاده ذلك إلا رفعة وجلالة، ولاح للمنصفين أن كلام أقرانه فيه بهوى، وقل من برز في الإمامة ورد على من خالفه إلا وعودي- نعوذ بالله من الهوى- وهذه الأوراق تضيق عن مناقب هذا السيد.اهـ[(٢)]

---

(١) "مجموع الفتاوى"(١٠/١٢٤–١٢٥)

(٢) "السير"(١٠/٩).

وقال الإمام الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ - في معرض دفاعه عن شيخ الإسلام ابن تيمية-: وهذه قاعدة مُطَّردة في كل عالم متبحر في المعارف العلمية، ويفوق أهل عصره، ويدين بالكتاب والسنة، فإنه لابد أن يستنكره المقصرون، ويقع لهم معه محنة بعد محنة، ثم يكون أمره الأعلى، وقوله الأولى، ويكون له بتلك الزلازل لسان صدق في الآخرين، ويكون لعلمه حظ لا يكون لغيره.اه[١]

وقال شيخ الإسلام محمد بن سليمان التميمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن الحسد سبب لرد كتاب الله والحاسد قد يبغض الناصح ويسعى في قتله، والحسد يحمل صاحبه على رد حظه من الله في الدنيا والآخرة ... والمحسود يرفعه الله على الحاسد.اه[٢]

أسباب الحسد وعلاجه.

قال الإمام ابن قدامة المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والحسد له أسباب:

أحدها: العداوة والتكبر والعُجب وحب الرياسة وخبث النفس وبخلها وأشدها العداوة والبغضاء... ثم قال: واعلم أن الحسد من الأمراض العظيمة للقلوب ولا تداوى أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل.

والعلم النافع لمرض الحسد هو أن تعرف حقيقة أن الحسد ضرر عليك في الدين والدنيا، وأنه لا يضر المحسود في الدين ولا في الدنيا بل ينتفع به... ولا عذاب أعظم مما أنت فيه من الحسد.

وأما العمل النافع فيه فهو أن يتكلف نقيض ما يأمر به الحسد، فإذا بعثه على

---

(١) "البدر الطالع" (٥٦/١)

(٢) باختصار من "الدرر السنية" (٩٤/١٣)

الحقد والقدح بالمحسود كلف نفسه المدح له والثناء عليه، وإن حمله على الكبر ألزم نفسه التواضع له، وإن بعثه على كف الإنعام عنه ألزم نفسه زيادة في الإنعام.

فهذه أدوية نافعة للحسد، إلا أنها مُرَّةٌ وربما يسهل شربها أن يعلم أنه إذا كان لا يكون كلما تريد فأرد ما يكون، وهذا هو الدواء الكلي، والله أعلم.اهـ[١]

العلم كله

كتب رجل إلى الصحابي الجليل عبد الله بن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: اكتب إليَّ بالعلمِ كله. فكتب إليه ابن عمر: إن العلم كثير، ولكن إن استطعت أن تلقى الله خفيف الظهر من دماء الناس، خميص البطن من أموالهم، كافًّا لسانك عن أعراضهم، لازمًا لأمر جماعتهم؛ فافعل.. والسلام.اهـ[٢]

فن التعامل مع السفهاء.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: روي أن رجلا شتم قُنبرا مولى علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فناداه علي: ياقنبر، دع شاتمك، والْهَ عنه؛ ترضي الرحمن وتسخط الشيطان وتعاقب شاتمك، فما عوقب الأحمق بمثل السكوت عنه.

وأنشدوا:

وَلَلْكَفُّ عن شتم اللئيم تكرُّما   أضرُّ له من شتمه حين يُشتَم.

---

(١) باختصار من "مختصر منهاج القاصدين" (١٨٧-١٨٩).

(٢) "سير أعلام النبلاء" (٣/٢٢٢)

وقال آخر:

وما شيء أحب إلى سفيه إذا سبَّ الكريمَ من الجواب
متاركة السفيه بلا جواب أشد على السفيه من السِّباب(١)

أقول: من مزايا الشعر أنه يحث على مكارم الأخلاق ويجمع لنا تجارب الشعراء مصوغة في قالب إبداعي جميل يقنع العقل ويمتع القلب.. وهذه أبيات منتقاة في فن التعامل مع السفهاء.

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢):

إذا سبني نذل تـــزايدت رفعة وما العيب إلا أن أكون مُسَابِبه
ولو لم تكن نفسي عليَّ عزيزة لـمكَّنتها من كل نـــذلٍ تحاربه

وقال أيضا:

أعرض عن الجاهل السفيهِ فـكل ما قـــال فـهو فـــيه
ما ضرَّ بـحرَ الفرات يوما إن خاض بعضُ الكلاب فيه

وقال:

يخاطبني السفيه بكل قبح فأكره أن أكون له مـــجيبا
يزيد سفـاهة وأزيـد حلما كعـــود زاده الإحراق طيبا

وقال:

إذا نطق السفيه فلا تجبه فخير من إجابته السكوتُ

---

(١) "الجامع لأحكام القرآن" (٣٦٢/١٥).

(٢)انظر: "ديوان الشافعي"



فإن كلمته فـرّجت عـنه وإن خـلّيته كمـدًا يمـوتُ

وقال صلاح الدين الصفدي:

وإن بليت بشخص لا خلاق له فكن كأنك لم تسمع ولم يقـلِ
ولا تمـار سفيـهًا في مـحاورة ولا حليما لكي تقصى عن الـزلل
ولا يغـرنك من يبدي بشاشته إليك خَدْعًا فإن السم في العسل.[١]

وقال بعض الشعراء:

وقالوا: فلان في الورى لك شاتم وأنت له دون الخلائق تمدح
فقـلت: ذروه مـا به وطبـاعه فــكل إناء بالذي فيه ينضح
إذا الكلب لا يؤذيك عند نباحه فــذره إلى يوم القيامة ينبح[٢]

وقال المتنبي:

وإذا أتتـك مذمــتي من ناقص فـهي الشهـادة لي بأني فاضل.[٣]

وقال شاعر:

لقد زادني فخرا لنفسي أنني بغيضٌ إلى كل امرئ غير طائل
وأَني شـقي باللئـام ولا ترى شَقِـيًّا بـهم إلا كريم الشمائلِ

---

(١) "جواهر الأدب" (٢/٤٣٤)
(٢) "مجاني الأدب" (٥/١٨٢)
(٣) "ديوان المعاني"(٢/٢٣٧).

من أسباب الحفظ

ستة أمور تجعل منك نابغة وتحفظ وتفهم بسرعة بمشيئة الله تعالى:
أكل الحلال، وقيام الليل، وبر الوالدين، وعدم ظلم الناس، والبعد عن الذنوب والمعاصي، و البعد عن الحوامض.

فمن أخطأته هذه العشرة فلا يلومن إلا نفسه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والمؤمن إذا فعل سيئة فإن عقوبته تندفع عنه بعشرة أسباب: أن يتوب فيتوب الله عليه فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، أو يستغفر فيغفر له، أو يعمل حسنات تمحوها فإن الحسنات يذهبن السيئات، أو يدعو له إخوانه المؤمنون ويشفعون له حيا وميتا أو يهدون له من ثواب أعمالهم لينفعه الله به، أو يشفع فيه نبيه محمد ﷺ، أو يبتليه الله في الدنيا بمصائب تكفر عنه، أو يبتليه في البرزخ والصعقة فيكفر بها عنه، أو يبتليه في عرصات القيامة من أهوالها بما يكفر عنه، أو يرحمه أرحم الراحمين، فمن أخطأته هذه العشرة فلا يلومن إلا نفسه.اهـ[(١)]

النمام شر وضرر وقابل النميمة أشر وأضر.

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال: «قبول السعاية أضر من السعاية؛ لأن السعاية دلالة، والقبول إجازة، وليس من دل على شيء كمن قبل وأجاز. والساعي

(١) "مجموع الفتاوى"(١٠/٤٥- ٤٦).

ممقوت إذا كان صادقا لهتكه العورة، وإضاعته الحرمة. ومعاقب إن كان كاذبا؛ لمبارزته الله بقول البهتان وشهادة الزور».[١]

وعن أحمد بن يحيي الوزير، قال: خرج الشافعي يوما من سوق القناديل متوجها إلى حجرته فتبعناه فإذا رجل يسفه على رجل من أهل العلم، فالتفت إلينا الشافعي فقال: نزهوا أسماعكم عن استماع الخنا كما تنزهون ألسنتكم عن النطق، به فإن المستمع شريك القائل، وإن السفيه ينظر إلى أخبث شيء في وعائه فيحرص أن يفرغه في أوعيتكم، ولو رددت كلمة السفيه لسعد رادها كما شقي بها قائلها.اهـ[٢]

قلت: النمام مريض وبؤرة فساد في المجتمع ومن شرار الخلق، فإن ثَمَّ علاج عولج وإن أعيا علاجه فعلينا أن نستأصل هذا العضو، حفاظا على بقية الجسد، ونَسُدُّ قِيلَه برَدِّه، وهجره والبعد عنه، واجتنابه.

والنمام منقوص إن كان صادقا لهتكه العورة وإضاعته الحرمة، ومعاقب إن كان كاذبا لمبارزته الله بالبهتان وشهادة الزور، كما قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وأين هؤلاء من قول النبي ﷺ: «لا يدخل الجنة نمام». نعوذ بالله من ذلك.

---

(١)أخرجه أبو نعيم في "الحلية" (١٢٢/٩).

(٢)أخرجه أبو نعيم في "الحلية" (١٢٣/٩).

زكاة العلم.

عن عبدالله بن جعفر قال: سمعت أحمد بن حنبل وسُئل: عن الرجل يكتب الحديث فيكثر؟ قال: ينبغي أن يكثر العملَ به على قدر زيادته في الطلب. ثم قال: سبيل العلم مثل سبيل المال، إن المال إذا زاد زادت زكاته.[١]

من أروع وصايا الأمهات

من أنفس ما قرأت من وصايا الأمهات للأولاد هذه الوصية:

قال الأصمعي: شاهدت أعرابية وهي توصي ابنها، فقالت: يا بنيّ، أمنحك وصيّتي وبالله التوفيق: فإياك والنميمة، فإنها تورث العداوة بين الأهلين، وتفرّق بين المحبين، وإياك والتعرّض للعيوب، فتصير لها أهلا، وإيّاك والجود بدينك، والبخل بمالك، ومثل لنفسك مثالا من غيرك، فما استحسنته من الناس فافعله، وما استقبحته منهم فاجتنبه، فان المرء لا يرى عيب نفسه. ثم أمسكت.

فقلت: يا أعرابية، بالله إلا زدتيه، فقالت: يا حضريّ، أعجبك كلام العرب؟ فقلت: أي والله.

فقالت: يا بني، إياك والغدر فإنه أقبح ما تعامل به الناس، واجمع بين السخاء والعلم، والتواضع والحياء، وأستودعك الله، وعليكم السلام.[٢]

---

(١) "طبقات الحنابلة" (١٨٨/١)

(٢) "بحر الدموع" لابن الجوزي (ص ١٣٠)

خلا لك الجو فبيضي واصفِري .

عن يحي بن هانئ المرادي قال خرج عَلِيّ إلى ظهر الكوفة فرأى حُمَّرة تطير فقال: يالك من حمرة بمَعْمر   خلا لك الجو فبيضي واصفِرِي.

وزاد فيه غير علي: ونَقِّري ما شئت أن تَنْقُري.(١)

قلت: معناه: ذهب ما تحذرين فاسرحي وانبسطي.

وهو مثل يضرب للرجل يُخَلَّى بينه وبين حاجته التي لم يكن يقدر عليها من قبل فيتمكن منها.

قيل: إن أول من قال هذا القول - كما قال أكثر العلماء- هو طَرَفة بن العبد الشاعر، خرج مع عمه في سفر وهو غلام، فنزلوا على ماء، فنصب طرفة الفخاخ ليصيد القنابر، وجلس عامة يومه، فلم يقع في الفخاخ شيء، فأخذ الفخاخ وارتحلوا، فنظر إلى القنابر فإذا بهن يلقُطن ما نثروه من الحَبِّ فقال طرفة:

يا لك من قنبرة بمَعمر   خلا لك الجو فبيضي واصفِري

ونَقري ما شئت أن تُنَقري   قد رحل الصياد عنك فابشري

ورُفع الفخ فماذا تحذري   لا بد من صيدك يوما فاصبري(٢)

---

(١)أخرجه الإمام أحمد في "فضائل الصحابة" (٨٧٩)، وقال محققه الشيخ العلامة وصي الله عباس: إسناده صحيح.

(٢)انظر: "مرآة الزمان" (٥٧٧/٢)، "مجمع الأمثال" (٢٣٩/١).

من روائع وصايا الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

عن وديعة الأنصاري قال: قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لاتعترض لما لا يعنيك، واعتزل عدوك، واحذر صديقك إلا الأمين من الأقوام، ولا أمين إلا من خشيَ الله، ولا تصحب الفاجر فتعَلَّم من فجوره، ولا تطلعه على سرك، واستشر في أمرك الذين يخشون الله.[1]

وفي رواية: لا تعرض بما لا يعنيك، واعتزل عدوك، واحتفظ من خليلك إلا الأمين، فإن الأمين ليس شيء من القوم يعدله، ولا أمين إلا من يخشى الله، ولا تصحب الفاجر فيحملك على الفجور، ولا تفش إليه سرك، وشاور في أمرك الذين يخشون الله تعالى.[2]

المنهج السلفي في معاملة النمام

عن زيد بن صوحان، عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: ما يمنعكم إذا رأيتم الرجل يُخَرِّق أعراض الناس ألا تُعَرِّبوا عليه؟! قالوا: نخاف لسانه. قال: ذلك أدنى ألا تكونوا شهداء.[3]

قال أبو زيد والأصمعي: قوله: «ألا تُعَرَّبوا عليه»: أي تفسدوا عليه كلامه وتُقَبحوه له.

---

(١) "مصنف ابن أبي شيبة" (٩٨/٧).

(٢)أخرجه ابن المبارك في "الزهد"رقم(١٣٩٩)

(٣)رواه أبوعبيد كما في "مسند الفاروق" (٤٧٥/٢)، وابن أبي الدنيا في "الصمت"(٢٤٥).

قلت: فهذا الواجب تجاه السفيه الفاحش الذي ينهش في أعراض الناس، كالكلب ينهش في الجيف، فالواجب أن يقف المسلمون منه موقفا صارما فيفسدوا عليه كلامه، ويُقَبِّحوا قوله، ويعيبوه، ويردوه عليه، ولا يشاركوه مشاركة السباع على الجيفة، فيندموا يوم لا ينفع الندم، وهذا الواجب على كل أحد عموما وأهل العلم خصوصا.

فوا أسفاه لمنتسب للعلم ثم هو يخوض في الجيف وينهش مع السباع في عرض أخيه المسلم- عياذا بالله من ذلك- ونسأل الله العافية.

أخرج ابن أبي الدنيا في كتابه "ذم الغيبة والنميمة"(٤٤): عَنْ خَالِدٍ الرَّبَعِيِّ، قَالَ: «دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَجَلَسْتُ إِلَى قَوْمٍ فَذَكَرُوا رَجُلًا فَنَهَيْتُهُمْ عَنْهُ فَكَفُّوا، ثُمَّ جَرَى بِهِمُ الْحَدِيثُ حَتَّى عَادُوا فِي ذِكْرِهِ فَدَخَلْتُ مَعَهُمْ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ فَلَمَّا كَانَ مِنَ اللَّيْلِ رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ كَأَنَّ شَيْئًا أَسْوَدَ يُشْبِهُ الرَّجُلَ إِلَّا أَنَّهُ طَوِيلٌ جِدًّا مَعَهُ طَبَقٌ خِلَافٌ أَبْيَضُ عَلَيْهِ لَحْمُ خِنْزِيرٍ، فَقَالَ: كُلْ، قُلْتُ: آكُلُ لَحْمَ خِنْزِيرٍ وَاللَّهِ لَا آكُلُهُ، فَأَخَذَ بِقَفَايَ وَقَالَ: كُلْ ـ انْتِهَارَةً شَدِيدَةً ـ وَدَسَّهُ فِي فَمِي، فَجَعَلْتُ أَلُوكُهُ وَلَا أُسِيغُهُ وَأَفْرَقُ أَنْ أُلْقِيَهُ وَاسْتَيْقَظْتُ، قَالَ: فَمحْلُوفَةٌ لَقَدْ مَكَثْتُ ثَلَاثِينَ يَوْمًا وَثَلَاثِينَ لَيْلَةً مَا آكُلُ طَعَامًا إِلَّا وَجَدْتُ طَعْمَ ذَلِكَ اللَّحْمِ فِي فَمِي».

أقول: وهذا المنهج السلفي في رد النمام قد تواترت به آثارهم ومواقفهم، خلافا لما عليه كثير من الخلف- وإن انتسب بعضهم للعلم- الذين ينهشون لحوم إخوانهم، وربما زاد جرمه بَلّة فألبس ذلك لباس الغيرة على الدين عياذا بالله.

فاللَّهُمَّ سلم سلم.

مكسب خبيث وعاقبة وخيمة

عن وقَّاصِ بن ربيعةَ عن المُسْتَوْرِدِ القرشي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّه حدَّثه أنّ النّبي ﷺ قال:«مَنْ أَكَلَ بِرَجُلٍ مُسْلِمٍ أَكْلَةً فَإِنَّ اللَّهَ يُطْعِمُهُ مِثْلَهَا مِنْ جَهَنَّمَ، وَمَنْ كُسِيَ ثَوْبًا بِرَجُلٍ مُسْلِمٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَكْسُوهُ مِثْلَهُ مِنْ جَهَنَّمَ، وَمَنْ قَامَ بِرَجُلٍ مَقَامَ سُمْعَةٍ وَرِيَاءٍ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقُومُ بِهِ مَقَامَ سُمْعَةٍ وَرِيَاءٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». رواه أحمد (١٨٠١١)، وأبو داود (٤٨٨١)، وصحّحه الألبانيّ في "الصحيحة" (٩٣٤)

فقه الحديث:

يروي لنا الصّحابيُّ الجليل: المُسْتَوْرِدِ بن شدّاد الفِهريّ القُرشيّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وأرضاه، هذا التحذير النّبويّ من ثلاثة أفعالٍ مشينة، تُفضي بصاحبها إلى عاقبة وخيمة، وعقوبة شديدة من الله تبارك وتعالى.

أوّل هذه الأفعال يذكرها النّبيّ ﷺ بقوله: «مَنْ أَكَلَ بِرَجُلٍ مُسْلِمٍ أَكْلَةً -بالضم أي لُقمة أو بالفتح أي مرة من الأكل-»: أي بسبب غيبته أو قذفه أو وقوعه في عرضه أو بتعرضه له بالأذيّة عند من يُعاديه، «فَإِنَّ اللَّهَ يُطْعِمُهُ مِثْلَهَا مِنْ جَهَنَّمَ»: جعل له مثل ما ينال به من نار جهنّم.

والمعنى: أنّ من أكل برجل مُسلم بالنّيل منه عند شخص يعجبه النّيل منه أو يريد النّيل منه، سواء كان ذلك طعامًا حقيقيًّا أو مالًا تحصّل عليه من أجل أنه نال أو تكلّم في أخيه المسلم، فإن الله تعالى يعاقبه بأن يُطعمه مثله في نار جهنّم، بحيث يكون جزاؤه من جنس عمله، وفي المقابل ما رواه أبوالدّرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النّبيّ ﷺ قال: «مَن ردَّ عن عرض أخيه، ردَّ الله

عن وجهه النّار يوم القيامة». رواه التّرمذي بإسناد صحيح.

فالطّعام أو المال الذي حصّله لأجل نيله من عرض أخيه المسلم عند من يرغب في النّيل من عرضه، يجازى عليه في الآخرة بأن يُطعمه الله تعالى مثله من جهنّم، وهذا خُسران مُبين وبوارٌ عظيم؛ لأنّه توصّل بهذا النّيل من عرض مسلم إلى دُنيا زائلة، لن يُبارك له فيها، ويكون جزاؤها عقوبة في نار جهنّم، وأمّا مَن يردَّ عن عرض أخيه المسلم، فإن الله عز وجلّ يردَّ عن وجهه النّار يوم القيامة.

وأما الفعل الثّاني المذكور في الحديث: «وَمَنْ كُسِيَ ثَوْبًا بِرَجُلٍ مُسْلِمٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَكْسُوهُ مِثْلَهُ مِنْ جَهَنَّمَ»: يقال فيه ما قيل في الفعل الأوّل، أن من كُسِيَ برجل مُسلم بالنّيل منه عند شخص يعجبه النّيل منه أو يريد النّيل منه، أو يذهب إلى عدوِّه فيتكلم فيه بغير الجميل ليُجازى عليه بجائزة أو نحوها، سواء كان ذلك ثوبًا أو مالًا، فإن الله تعالى يُعاقبه بأن يكسوه مثله من جهنّم، لأنّه توصّل بهذا النّيل من عرض مسلم إلى دُنيا زائلة، لن يُبارك له فيها، ويكون جزاؤها عقوبة في نار جهنّم، وأمّا من يحمي أخاه المسلم ويذبُّ عنه، فإن الله عزّ وجل يتولّى حمايته ورعايته، كما في حديث معاذ بن أنس الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: «مَنْ حَمَى مُؤْمِنًا مِنْ مُنَافِقٍ، -أُرَاهُ قَالَ:- بَعَثَ الله مَلَكًا يَحْمِي لَحْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، وَمَنْ رَمَى مُسْلِمًا بِشَيْءٍ يُرِيدُ شَيْنَهُ بِهِ، حَبَسَهُ الله عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ حَتَّى يَخْرُجَ مِمَّا قَالَ». رواه أحمد وأبو داود وحسّنه الألبانيّ.

وثالث هذه الأفعال: «وَمَنْ قَامَ بِرَجُلٍ مَقَامَ سُمْعَةٍ وَرِيَاءٍ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقُومُ بِهِ مَقَامَ

سُمْعَةٍ وَرِيَاءٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»: والمعنى: أن من قام بسبب رجل من العظماء من أهل المال أو الجاه أو السُّلطان مقامًا يتظاهر فيه بالصّلاح والتّقوى ليعتقد فيه، ويصير إليه المال والجاه، أقامه الله مقام المرائين، ويفضحه ويعذّبه عذاب المُرائين يوم القيامة، نسأل الله تعالى أن يجنّبنا مساوئ الأفعال والأقوال، وأن يوفّقنا لما يحبُّ ويرضى.

عجزوا ورب الكعبة

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وبقي مدة فِي القلعة يكتب العلم ويصنفه، ويرسل إِلَى أَصْحَابه الرسائل، ويذكر مَا فتح اللَّه بِهِ عَلَيْهِ فِي هذه المرة من العلوم العظيمة، والأحوال الجسيمة.

وَقَالَ: قَدْ فتح اللَّه عَلِي فِي هذا الحصن فِي هذه المرة من معاني الْقُرْآن، ومن أصول العلم بأشياء، كَانَ كثير من الْعُلَمَاء يتمنونها، وندمت عَلَى تضييع أَكْثَر أوقاتي فِي غَيْر معاني الْقُرْآن، ثُمَّ إنه منع من الكتابة، وَلَمْ يترك عنده دواة ولا قلم ولا ورق، فأقبل عَلَى التلاوة والتهجد والمناجاة والذكر.اه

من هذا يا ترى؟

إنه الذي قال: إِن فِي الدنيا جنة من لَمْ يدخلها لَمْ يدخل جنة الآخرة.

وقال: مَا يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني فِي صدري، أين رحت فَهِيَ معي، لا تفارقني، أنا حبسي خلوة. وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة.

وكان فِي حبسه فِي القلعة يَقُول: لو بذلت ملء هذه القلعة ذهبا مَا عدل عندي شكر هذه النعمة أَوْ قَالَ: مَا جزيتهم على ما نسبوا فِيهِ من الخير - ونحو هَذَا.

من هذا؟

إنه من قال فيه تلميذه البار ابن القيم: وعلم اللَّه مَا رأيت أحدا أطيب عيشا منه قط، مَعَ ما كَانَ فِيهِ من الحبس والتهديد والإرجاف، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ أطيب النَّاس عيشا، وأشرحهم صدرا، وأقواهم قلبا، وأسرهم نفسا، تلوح نضرة النعيم عَلَى وجهه وكنا إِذَا اشتد بنا الخوف وساءت بنا الظنون، وضاقت بنا الأَرْض: أتيناه، فَمَا هُوَ إلا أَن نراه، ونسمع كلامه، فيذهب عنا ذَلِكَ كله، وينقلب انشراحا وقوة ويقينا وطمأنينة. فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لِقائه، وفتح لَهُمْ أبوابها فِي دار العمل، فأتاهم من رَوحها ونسيمها وطيبها مَا استفرغ قواهم لطلبها، والمسابقة إليها.اهـ

إنه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي عجز حساده وأعداؤه عن إصابة قلبه - وإن أصيب في بدنه- فجعل من المحن منحا ومن السجون رياضا، فانكبد الحاسد ولم يزد على أن هلك وأهلك، ومات بغيظه، فخذ منها عبرة واعلم أن لله في خلقه شأنا، وكم من محنة في طياتها منح كثيرة، فلله الحمد كله على ما أكرمنا وأنعم به علينا.[1]

حقيقة السخاء والمروءة

عن نعيم بن حماد، قال: سمعت ابن المبارك يقول: سخاء النفس عما في أيدي الناس أفضل من سخاء النفس بالبذل، ومروءة القناعة أفضل من مروءة

---

(١) "ذيل طبقات الحنابلة" (٥١٩/٤)

الإعطاء.[(١)]

العبد سائر لا واقف

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والقصد أن إضاعة الوقت الصحيح يدعو إلى درك النقيصة، إذ صاحب حفظه مترق على درجات الكمال، فإذا أضاعه لم يقف موضعه، بل ينزل إلى درجات من النقص، فإن لم يكن في تقدم فهو متأخر ولا بد، فالعبد سائر لا واقف، فإما إلى فوق، وإما إلى أسفل، إما إلى أمام وإما إلى وراء، وليس في الطبيعة ولا في الشريعة وقوف البتة، ما هو إلا مراحل تطوى أسرع طي إلى الجنة أو النار، فمسرع ومبطئ، ومتقدم ومتأخر، وليس في الطريق واقف البتة، وإنما يتخالفون في جهة المسير، وفي السرعة والبطء ﴿ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [المدثر: ٣٥ - ٣٧] ولم يذكر واقفا، إذ لا منزل بين الجنة والنار، ولا طريق لسالك إلى غير الدارين البتة، فمن لم يتقدم إلى هذه بالأعمال الصالحة فهو متأخر إلى تلك بالأعمال السيئة.اهـ[(٢)]

احذروا شَرَّ الناسِ وقَاتِلَ الثلاثة

عن أَبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن خيار عباد الله من هذه الأمة الذين إذا رؤوا، ذكر الله تعالى، وإن شرار عباد الله من هذه الأمة

(١) "ترتيب الأمالي الخميسية" للشجري (٢/٢١٥)

(٢) "مدارج السالكين" (١/٢٧٨).

المشاءون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، الباغون البُرَآءَ العنت[١]»[٢].

وعن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث، عن أبيه، قال: سمعت أسقفا من أهل نجران يكلم عمر بن الخطاب يقول: يا أمير المؤمنين، احذر قاتل الثلاثة. قال: ويلك من قاتل الثلاثة؟ قال: الرجل يأتي الإمام بالحديث الكذب، فيقتل الإمام ذلك الرجل بحديث هذا الكذاب، ليكون قد قتل نفسه، وصاحبه، وإمامه.[٣]

قلت: أيها الإخوة الكرام: إن من أسوأ ما يُبتلى به الإنسان من رذائل الأخلاق وقبيح الصفات: النميمة، وهي الوشاية بين الناس، ونقل القيل والقال بقصد الإفساد بينهم، ولما كانت النميمةُ نجاسةً في الأخلاق قُرنت بالنجاسة في البدن، عن ابن عباس قال: مر رسول الله ﷺ على قبرين فقال: «أما إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر فكان لا

---

(١)«البُرآء»، بضم الموحدة: جمع بريء، كالكرماء جمع كريم، و«العَنَت» بفتحتين، الفساد والمشقة، وهومفعول ثان للباغي، أي: يطلبون لهم الهلاك والتعب بأن يتهموهم بالفواحش. وقيل: يشقون ويشددون على من لا يستحق أن يُشَقَّ عليه ويُشَدَّد. "الترغيب والترهيب لقوام السنة" (١٥٧/١)

(٢)أخرجه الخرائطي في "مساوئ الأخلاق" (٢٢٥) وهو حسن بشواهده، ومنها: حديث أسماء بنت يزيد الأنصارية، أخرجه البيهقي في "شعب الإيمان"(٤٤٥/١٣)، وحديث أبي هريرة أخرجه الطبراني في "المعجم الأوسط" (٧٦٩٧)، وهو في "الصحيحة" (٢٨٤٩)

(٣) أخرجه الخرائطي في "مساوئ الأخلاق"(٢١١)، والطبراني في "مسند الشاميين" (٣١٣٧)، والبيهقي في "السنن الكبرى"(١٦٦٧٧).

يستتر من بوله»[١].

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: كنا نمشي مع رسول الله ﷺ، فمررنا على قبرين، فقام، فقمنا معه، فجعل لونه يتغير حتى رعد كُمّ قميصه، فقلنا: ما لك يا نبي الله؟، قال: «ما تسمعون ما أسمع؟ » قلنا: وما ذاك يا نبي الله؟، قال: «هذان رجلان يعذبان في قبورهما عذابًا شديدًا في ذنب هين»، قلنا: مم ذلك يانبي الله؟ قال: «كان أحدهما لا يستنزه من البول، وكان الآخر يؤذي الناس بلسانه، ويمشي بينهم بالنميمة».[٢]

قال العلامة السفاريني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقد أبدى بعض أهل العلم نكتة ذلك وهي مما يكتب بالذهب على صفحات القلوب، وذلك أن أول ما يسأل عنه الإنسان يوم القيامة ويقضي فيه الحق جل جلاله الصلاة والدماء. والطهارة أقوى شروط الصلاة ومقدمتها، فإذا لم يتنزه من البول ولم يستبرئ منه فقد فرط في شرط الصلاة. وسبب وقوع الناس في سفك الدماء وإراقتها بغير حق العداوة، ومقدمتها النميمة، فإنها سبب العداوة، وعذاب القبر مقدمة عذاب النار، فناسب أن يبدأ بالمقدمات أولا. فانظر هذه المناسبة وتأملها تجدها في غاية المطابقة جزاء وفاقا.اهـ[٣]

قال يحي بن أبي كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يفسد النمام في ساعة ما لا يفسد الساحر في

---

(١)متفق عليه [خ (٢١٦) م(٢٩٢)].

(٢)أخرجه ابن حبان في (٨٢٤)، وهو في "صَحِيح التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيب"(١٦٣).

(٣) "غذاء الألباب" (١/١١٢)

شهر.[١]

وقال ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وما في جميع الناس شر من الوشاة، وهم النمامون، وإن النميمة لطبع يدل على نتن الأصل، ورداءة الفرع، وفساد الطبع، وخبث النشأة، ولابد لصاحبه من الكذب؛ والنميمة فرع من فروع الكذب ونوع من أنواعه، وكل نمام كذاب، وما أحببت كذابا قط، وإني لأسامح في إخاء كل ذي عيب وإن كان عظيما، وأَكِلُ أمره إلى خالقه عز وجل، وآخذ ما ظهر من أخلاقه حاشا من أعلمه يكذب، فهو عندي ماح لكل محاسنه، وذلك لأن كل ذنب فهو يتوب عنه صاحبه وكل ذام فقد يمكن الاستتار به والتوبة منه، حاشا الكذب فلا سبيل إلى الرجعة عنه ولا إلى كتمانه حيث كان.

وما رأيت قط ولا أخبرني من رأى كذابا ترك الكذب ولم يعد إليه، ولا بدأت قط بقطيعة ذي معرفة إلا أن أطلع له على الكذب، فحينئذ أكون أنا القاصد إلى مجانبته والمتعرض لمتاركته، وهي سمة ما رأيتها قط في أحد إلا وهو مزنون إليه بِشَرٍّ في نفسه، مغموز عليه لعاهة سوء في ذاته، نعوذ بالله من الخذلان.اهـ[٢]

وقال الحافظ ابن حجر الهيتمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وزار بعض السلف أخوه فنم له عن صديقه. فقال له يا أخي أطلت الغيبة وجئتني بثلاث جنايات: بغضت إلي أخي، وشغلت قلبي بسببه، واتهمت نفسك الأمينة. وقيل: من أخبرك بشتم غيرك لك فهو الشاتم لك، وجاء رجل إلى علي بن الحسين رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا فنم له عن شخص

---

(١) "حلية الأولياء"(٣/٧٠)

(٢) "طوق الحمامة" (ص ١٧٣)

فقال: اذهب بنا إليه، فذهب معه وهو يرى أنه ينتصر لنفسه، فلما وصل إليه قال: يا أخي إن كان ما قلت في حقا يغفر الله لي، وإن كان ما قلت في باطلا يغفر الله لك. ويقال: عمل النمام أضر من عمل الشيطان، فإن عمل الشيطان بالوسوسة، وعمل النمام بالمواجهة.اهـ[١]

من مواقف السلف تجاه النمام: عن عنبر مولى الفضل بن أبي عياش قال: كنت جالسا مع وهب بن منبه فأتاه رجل، فقال: إني مررت بفلان وهو يشتمك فغضب، فقال: «ما وجد الشيطان رسولا غيرك». فما برحت من عنده حتى جاء ذلك الرجل الشاتم فسلم على وهب؛ فرد عليه ومد يده وصافحه وأجلسه إلى جنبه.[٢]

التعامل الشرعي مع النمام: قال الإمام ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وكل من نقلت إليه النميمة، مثل أن يقال له: قال فيك فلان كذا وكذا أو فعل في حقك كذا، ونحو ذلك فعليه ستة أشياء:

الأول: أن لا يصدق الناقل، لأن النمام فاسق مردود الشهادة.

الثاني: أن ينهاه عن ذلك وينصحه.

الثالث أن يبغضه في الله، فإنه بغيض عند الله.

الرابع: أن لا يظن بأخيه الغائب السوء.

الخامس: أن لا يحمله ما حكى له على التجسس والبحث، لقوله تعالى: ﴿وَلَا

(١) "الزواجر عن اقتراف الكبائر" (٣٧/٢)

(٢)أخرجه أبو نعيم في "الحلية"(٧١/٤)

تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات: ١٢].

السادس: أن لا يرضى لنفسه ما نهى النمام عنه، فلا يحكى نميمته.اهـ[١]

عقوبة النمام: جزاء النمام يوم القيامة هو ما جاء في الحديث عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة نمام»[٢].

وهذه العقوبة الشديدة في الآخرة مع ما يناله النمام من عذاب في قبره والعياذ بالله، من أجل ما في النميمة من آثار سيئة وعواقب مدمرة على الأفراد والمجتمعات، نعوذ بالله من ذلك ونسأله العافية.

من كرامات الأولياء

قال اللالكائي في "شرح أصول الاعتقاد"(٢٧٣/٩)(٢١٤): أخبرنا عبد الوهاب بن علي، أنا عمر بن أحمد، قال: ثنا عبد الله بن سليمان، قال: سمعت أبا حمزة نصير بن الفرج الأسلمي وكان خادم أبي معاوية الأسود، قال: كان أبو معاوية الأسود قد ذهب بصره فكان إذا أراد أن يقرأ فينشر المصحف رجع إليه بصره فإذا أطبق المصحف ذهب بصره.

---

(١) "مختصر منهاج القاصدين" (ص ١٧٤)

(٢) متفق عليه، [خ (٦٠٥٦) وم (١٠٥)]



محن ومنح[١]

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وأصحابه والتابعين أما بعد: فإن من رحمة الله عز وجل بالأمة الإسلامية أن يقيض لها علماء ومصلحين ودعاة يحملون هم الدين ويذودون عن حياضه ويحيون للعلم والعمل والتعليم.. هؤلاء هم الأئمة الأعلام الذين يجددون شباب الأمة والدين.. والعالم الربانى يقوم في الأمة مقام نبيها صلوات ربي وسلامه عليه، يتعرض لما تعرض له النبي ﷺ من تكذيب وإعراض، ويلاقي ما لاقاه من شدائد ومحن كبيرة، فالعلماء ورثة الأنبياء، وفي هذه السلسلة نعرض لبعض المحن التي مرت ببعض كبار علماء الأمة نتأمل فيها مواقف هؤلاء العظماء في تلك النوازل والشدائد، وكيف روضوا المحن العاتية التي نزلت بهم، حتى أخرجوا منها المنح والكنوز العظيمة التي بقت للأمة من بعدهم باهرا، ورصيد تجربة زاخرة يستفيد منها المسلمون على مر العصور.

محنة الإمام ابن حبان - رحمه الله -

التعريف به: هو الإمام العالم العلاَّمة، الحافظ المجود، شيخ خراسان، أحد أوعية العلم الكبار، ورجل من كبار رجالات الحديث: أبو حاتم محمد بن حِبَّان البستي، صاحب الكتب الشهيرة، والمصنفات الفائقة، ولد في مدينة

---

(١)هذا الجزء من الكتاب مستفاد من كتاب "ترويض المحن: دراسة تحليلية لأهم المحن التي مرَّ بها كبار علماء الأمة"، دار الصفوة بالقاهرة، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م

بُست من أعمال سجستان في خراسان [مدينة الآن في إيران] سنة ٢٧٣هـ، فأخذ في طلب الحديث منذ بواكيره، وخرج على عادة طلاب الحديث لرحلة علمية كبيرة وواسعة لسماع الحديث من شيوخه وأعلامه في شتى أرجاء الدولة الإسلامية؛ فطاف أولًا أقاليم خراسان كلها، ثم العراق، ودخل مصر والشام، والسواحل والحجاز واليمن، حتى إنه قد حمل العلم والحديث عن أكثر من ألفي شيخ، فيا لها من همة عالية رفعته لمصاف علماء الأمة الكبار، وحفاظها المعروفين.

محنته:

تعتبر المحنة التي تعرض لها الإمام ابن حبان، وكادت تودي بحياته، وتقضي على تراثه وعلمه من أعجب المحن والفتن التي يتعرض لها أحد من أهل العلم، وتدل على مدى خطورة الجهل بمعاني الألفاظ ومدلولاتها، وأيضًا تدل على مدى خطورة تحميل الألفاظ والأقوال من أوجه الكلام ما لا تحتمله، ولا يتفق مع دين وعقيدة ومكانة قائلها، ويحضرنا عند الحديث عن محنة ابن حبان العجيبة مقولة الإمام مالك الشهيرة: إذا قال الرجل قولا يحتمل الكفر من تسعة وتسعين وجهًا، والإيمان من وجه واحد حملناها على الإيمان، لأنها تكاد تنطبق على هذه المحنة الغريبة.

ومفاد الحادثة أن الإمام ابن حبان أثناء إلقائه لأحد الدروس في نيسابور سئل عن النبوة فقال: النبوة: «العلم والعمل»، وكان يحضر مجلسه بعض الوعاظ؛ فقام إليه واتهمه بالزندقة، والقول بأن النبوة مكتسبة، وارتفعت الأصوات في

المجلس، وهاج الناس بين مؤيد للتهمة، ونافٍ لها، وخاضوا في هذا الخبر على كل وجه، حتى كتب خصوم ابن حبان محضرًا بالواقعة، وحكموا عليه بالزندقة، ومنعوا الناس من الجلوس إليه، وهُجر الرجل بشدة، وبالغوا في أذية ابن حبان، وتمادوا في ذلك حتى كتبوا في أمر قتله وهدر دمه إلى الخليفة العباسي وقتها، فكتب بالتحري عن الأمر، وقتله إن ثبت عليه التهمة، وبعد أخذ ورد اتضحت براءة ابن حبان، ولكنهم أجبروه على الخروج من نيسابور إلى سجستان، وهناك وجد أن الشائعات تطارده، والتهمة ما زالت تلاحقه، وتصدى له أحد الوعاظ هناك، واسمه يحيى بن عمار، وظل يؤلب عليه حتى خرج من سجستان، وعاد إلى بلده (بست)، وظل بها حتى مات رحمه الله مهمومًا محزونًا من الأباطيل، وتهم الزندقة والإلحاد.

ولكن هل مجرد كلمة واحدة تجلب على هذا العلم الفذ كل هذه المتاعب؟ ونحن نقول: إن هذه الكلمة وأمثالها قد تفعل مثل ذلك وزيادة إذا ألقيت على أسماع من لا يفهم اللغة ومدلولاتها، وأيضًا إذا ألقيت على أسماع الحاسدين الذين يتربصون بأمثال هذا العالم العلامة الدوائر، وينتظرون أية مناسبة وفرصة، ولو بشطر كلمة للنيل منه.

فإن كلمة: «النبوة: العلم والعمل» يقولها المسلم، ويقولها الزنديق، يقولها المسلم ويقصد بها مهمة النبوة، إذ من أكمل صفات النبي العلم والعمل، فما من نبي قط إلا وهو على أكمل حال من العلم والعمل، وليس كل من برز فيهما نبيًا، لأن النبوة محض اصطفاء من الله عز وجل، لا حيلة للعبد في نيلها، ولا

اكتسابها، وابن حبان لم يرد حصر المبتدأ في الخبر، وذلك نظير قوله ﷺ: «الحَجُّ عَرَفَةُ»، ومعلوم أن عرفة هو ركن الحج الأعظم، ولكن لا يكفي وحده حتى يصير العبد حاجًّا، بل هناك أركان وفروض أخرى لشعيرة الحج، ولكن عرفة ركن الحج الأعظم، كما أن العلم والعمل مهم للنبوة، وهذا ما قصده وأراده ابن حبان، وهذا ما يجب أن يحمل كلامه عليه، وهذا اللائق بمكانته وعلمه، وأيضًا اللائق بخلق المسلم الصادق الذي يحسن الظن بإخوانه المسلمين، وأيضًا هذه الكلمة يقولها الفيلسوف الزنديق وهو يقصد بها أن النبوة مكتسبة، ينتجها العلم والعمل، وكثرة الرياضات والمجاهدات، وهذا كفر مخالف للقرآن وللسنة، وإجماع المسلمين، وهذا ما لا يريده ابن حبان ولا يقصده أبدًا، وحاشاه، فهو من كبار علماء الأمة وأئمتها، ولكن الجهل والحقد والحسد أعمى قلوب معارضيه حتى خاضوا فيه، وأجبروه على الرحيل من مكان لآخر حتى استقر في بلده وبها مات، وما أشبه هذه الحادثة بما جرى للبخاري؛ فرحم الله الرجلين، وأجزل لهما المثوبة، وجعل من أبناء الأمة من يذبون عن أعراضهم، ويدفعون عنهم الأباطيل والأكاذيب، ويكشفون بطلان تهم خصومهم، ويعرفون أبناء المسلمين حقيقة علماء هذا الدين.[١]

---

(١) "سير إعلام النبلاء" (٩٢/١٦)، "البداية والنهاية" (٢٧٦/١١)، "الكامل"(٢٩١/٧)، "تذكرة الحفاظ"(٩٢٠/٣)، "العبر"(٣٠٠/٢)، "طبقات الشافعية"(١٣٠/٣)، "شذرات الذهب" (١٦/٣)، "النجوم الزاهرة"(٣٤٢/٣).

محنة الإمام أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ

يعتبر الحسد هو السبب الرئيسي لمعظم المحن والابتلاءات التي تعرض لها علماء الأمة، وعادة ما يكون الحسد بسبب مكانة العالم ومنزلته بين الناس، ومحبة العالمين له، أو بسبب جرأته في الحق، والصدع بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي صفات غالبًا ما تكون في العلماء الربانيين، ولكن أن يحسد العالم بسبب نجابة تلاميذه، والتفوق العلمي لهم؛ فهذا هو العجيب حقًا.

التعريف بالإمام:

هو الإمام الحافظ الحجة الفقيه، شيخ الإسلام، إمام الأئمة، أحد أركان السنة أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي النيسابوري الشافعي، صاحب التصانيف الهامة، وُلد سنة ٢٢٣هـ، وأخذ في طلب العلم في حداثته؛ فاعتنى بسماع الحديث والفقه، وتضلع فيهما، حتى صار يضرب به المثل في سعة العلم والإتقان، وقد شرب ماء زمزم في حجه بنية العلم النافع، فكأن الله عز وجل قد فتح على قلبه وفهمه ينابيع العلم والحكمة، فكان من أفراد العالم ذكاءً وفهمًا، مع زهد وعزوف عن الدنيا وزينتها، لا يدخر شيئًا، كل ما يملكه ينفقه على أهل العلم، حتى إنه لم يكن يميز بين العشرة والعشرين، ربما دفع العشرة على أنها خمسة.

محنته:

كان لابن خزيمة عظمة في النفوس، وجلالة في القلوب لعلمه ودينه، واتباعه السنة، وبلغ الإمام رتبة الاجتهاد، وتفرد على أهل زمانه، وتقدمهم في السن

والعلم، وكان له أصحاب وتلاميذ صاروا في حياته نجوم عصرهم، وأئمة كبارًا يشد إلى حلقهم الرحال، ولعل ذلك سبب تسمية ابن خزيمة بإمام الأئمة، ومن هؤلاء الأصحاب الأئمة: أبو علي الثقفي، وهو أول من حمل علوم الشافعي، ودقائق ابن سريج إلى خراسان، وأبو بكر الصبغي خليفة ابن خزيمة في الفتوى، وأحسن الجماعة تصنيفًا، وأحسنهم سياسة في مجالس السلاطين، وأبو بكر بن أبي عثمان وهو آدبهم، وأكثرهم جمعًا للعلوم، ورحلة لها، وهو شيخ المجاهدين، وأبي محمد يحيي بن منصور، وكان من أصلح الناس للقضاء.

وتبدأ فصول محنة ابن خزيمة عندما ورد إلى نيسابور رجل معتزلي فاسد العقيدة والطريقة أيضًا اسمه منصور الطوسي، وأخذ هذا الرجل في حضور مجالس ابن خزيمة لسماع آرائه وأقواله في العقيدة، فلما عاين ما عاينه من الأربعة الذين سميناهم داخله الحسد، وأكل قلبه الغل، وأخذ يخطط من أجل إيقاع الفُرْقَةِ بين الإمام وأصحابه، واجتمع مع رجل على شاكلته هو أبوعبدالرحمن الواعظ القدري المعتزلي، واتفقا على تفاصيل المؤامرة، وعلى بث الوشايات الكاذبة عند الإمام ابن خزيمة بحق أصحابه، واتهامهم بالخوض في باب العقائد، وأنهم على مذهب الكلابية ، وبالفعل أخذ الرجلان في الكلام بحق هؤلاء الأئمة عند أستاذهم ابن خزيمة.

وحدث ذات مرة أن تكلم أبو علي الثقفي عن مسألة كلام الله بعد أن ثار خلاف بشأنها في إحدى حلق العلم، وكان ابن خزيمة ينهى أصحابه عن هذه المسألة تحديدًا، وعن الخوض في الكلام عمومًا، فانتهز منصور الطوسي الفرصة،

وأسرع إلى الشيخ ابن خزيمة، وقال له: ألم أقل للشيخ: إن هؤلاء يعتقدون مذهب الكلابية؟ فجمع ابن خزيمة أصحابه، وقال لهم: ألم أنهكم غير مرة عن الخوض في الكلام؟ ولم يزدهم على هذا ذلك اليوم.

لم يزل الطوسي يروح ويجول بفريته على مسامع الشيخ ابن خزيمة، حتى جرَّأه على أصحابه، واستحكمت الوحشة بين الشيخ وتلاميذه، وزادت الأمور سوءًا بتدخل بعض الأطراف الخارجية، حتى وصل الحال بابن خزيمة - وكان قد جاوز الثمانين من العمر، وضجر وضاق صدره - وصل به الحال أن أعلن في محضر من طلاب العلم بأن أصحابه الأربعة كذبة، وأنه محرم على كل طالب علم أن يقبل منهم شيئًا يروونه عن ابن خزيمة، وما هم بكذبة، بل أئمة أثبات، ولكنه فعل الطوسي المنحرف، الذي سعى بالنميمة والأكاذيب، حتى انحرف الشيخ عن أقرب وأخص أصحابه.

اغتنم الطوسي وأبو عبد الرحمن القدري الفتنة في نشر مذهبهما في الاعتزال، ووجدوا من بعض الحسدة: مثل البردعي وأبو بكر بن علي من يساعدهما على تأجيج الفتنة، فانتصب الحافظ أبو عمرو الحيري للصلح بين الجماعة، وشرح لابن خزيمة غرض المعتزلة في فساد الحال، حتى استطاع أن يجمع بين الشيخ وأصحابه في مجلس، وأصلح بينهما، وكتب الأصحاب عقيدتهم في محضر ووقع ابن خزيمة عليه بالصحة والسلامة، وأودع المحضر عند الحافظ الحيري حتى لا يبقى لمتقول كلام.

لم يكد ينقضي يوم واحد على الصلح، وكتابة المحضر حتى أسرع الطوسي

ومن على شاكلته من المعتزلة إلى الشيخ ابن خزيمة، وقالوا له: إنهم قد غدروا بك، وغيروا من كلام المحضر ليوافق عقيدتهم عقيدة ابن كلاب؛ فغضب ابن خزيمة بشدة، وكما قلنا أنه كان شيخًا كبيرًا جاوز الثمانين، فأرسل إلى أبي عمرو الحيري يطلب المحضر للتأكد من صحة الخبر، فرفض الحيري، فقوى ظن ابن خزيمة بأنهم قد غدروا به، وغيروا كلامه في المحضر، فظل ساخطًا مقاطعًا لأصحابه وتلاميذه الأئمة حتى مات بعد ذلك بقليل.

وهكذا نرى كيف أن أصحاب العقائد الباطلة، والمذاهب الفاسدة كانوا وما زالوا يلعبون دورًا خطيرًا في فساد ذات البين، وفي محن العلماء الربانيين، وأية محنة أشد على العالم من أن يقاطع تلاميذه، ويعادي أخص أصحابه، الذين كانوا مصدر فخره، وأحد أسباب شهرته، والله أعلم بالعاقبة.(١)

الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ ومحنته في نيسابور

الكلام عن محنة البخاري يثير في القلب شجونًا وأحزانًا كثيرة، ذلك لأن هذه المحنة بالذات ما زالت أصداؤها تتردد لوقتنا الحاضر، ولكن بصور مختلفة، وبأوجه جديدة، وما زالت ضروب هذه المحنة وأقرانها تقع كل يوم، وفي كل عصر وجيل، ولب هذه المحنة وأسها وأساسها الغيرة والحسد بين الأقران، فهي

---

(١) "سير أعلام النبلاء"(٣٦٥/١٤)، "البداية والنهاية"(١٥٩/١١)، "المنتظم"(١٨٤/٦)، "تذكرة الحفاظ" (٧٢٠/٢)، "النجوم الزاهرة" (٢٠٩/٣) "شذرات الذهب" (٢٦٢/٢)، "طبقات الشافعية" (١٠٩/٣)، "تراجم أعلام السلف"(٥٢١)، "العبر" للذهبي (١٥٠/٢).

كما قال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ نفسه في وصيته: لا يسلم عالم متقدم على أقرانه من ثلاثة أمور: طعن الجهلاء، وملامة الأصدقاء، وحسد العلماء، وهو عين ما جرى للبخاري في محنته، وهذه هي فصولها:

بدأ البخاري في طلب الحديث وهو دون العاشرة، فسمع من مشايخ بلده، ثم خرج في رحلة علمية طويلة لسماع الحديث، وطلب العلم؛ فطاف البلاد، ودخل العواصم، والتقى مع آلاف الشيوخ، ولم يترك بقعة من بقاع العالم الإسلامي المعروفة بالعلم والحديث إلا زارها ودخلها، فطاف خراسان كلها، ودخل العراق؛ فزار بغداد والبصرة الكوفة مرات كثيرة، ودخل الشام والحجاز واليمن ومصر، وكان كلما دخل بلدًا انهال عليه الآلاف من أهلها من طلبة العلم وغيرهم للاستفادة من علمه الغزير، وأدبه الوفير، وسمته وهديه، وكان الناس يستقبلونه استقبال الملوك والخلفاء والعظماء، ويبالغون في تعظيمه وتبجيله واحترامه.

وبدأت فصول محنة البخاري عندما توجه إلى مدينة نيسابور؛ وهي من المدن الكبيرة في خراسان؛ فلما وصل إليها خرج إليه أهلها عن بكرة أبيهم، فلقد استقبله أربعة آلاف رجل ركبانًا على الخيل، سوى من ركب بغلا أو حمارًا، وسوى الرجالة، وخرج الولاة والعلماء كافة لاستقباله قبل أن يصل المدينة بمرحلتين أو ثلاثة [قرابة المائة كيلومتر مربع]، وبالغوا في إكرامه بصورة لم تكن لأحد قبل، ولا حتى بعده.

ومن روعة الاستقبال، وعظيم التقدير والاحترام الذي وجده البخاري

بنيسابور قرر المقام فيها لفترة طويلة، واتخذ فيها دارًا، وأخذ علماء نيسابور في حض طلبة العلم على السماع من البخاري، وكان رأس علماء نيسابور وقتها الإمام محمد بن يحيى الذهلي، وكان رأسًا متبوعًا مطاعًا، ليس في نيسابور وحدها، بل في خراسان كلها، الناس يطيعونه أكثر من طاعتهم للخليفة والوالي، وكان الذهلي ممن حض الناس على الجلوس للبخاري، وحضور مجالسه ودروسه، والذهلي نفسه كان ممن استفاد كثيرًا من البخاري، حتى إنه كان يمشي خلف البخاري في الجنائز يسأله عن الأسماء والكنى والعلل، والبخاري يمر فيها مثل السهم.

ومع استقرار البخاري في نيسابور أخذت مجالس التحديث تخلو شيئًا فشيئًا من طلاب الحديث لصالح مجلس البخاري، حتى ظهر الخلل في مجلس كبير علماء نيسابور محمد بن يحيى الذهلي نفسه، عندها تحركت النوازع البشرية المركوزة في قلوب الأقران، فدب الحسد في قلب الذهلي، وتسللت الغيرة المذمومة إلى نفسه شيئًا فشيئًا، حتى وصل الأمر به لأن يخوض في حق البخاري، ويتكلم فيه، ويرميه بتهمة هو بريء منها، فما هذه التهمة يا ترى التي كانت سبب محنة البخاري؟!

هذه التهمة هي تهمة اللفظية؛ وهي تعني قول القائل: أن لفظي بالقرآن مخلوق، فقد قال - يعني الذهلي - لأصحاب الحديث إن البخاري يقول: اللفظ بالقرآن مخلوق فامتحنوه في المجلس، فلما حضر الناس مجلس البخاري قام إليه رجل فقال: يا أبا عبد الله ما تقول في اللفظ بالقرآن: مخلوق هو أم غير مخلوق؟

فأعرض عنه البخاري ولم يجب، فأعاد الرجل السؤال ثلاث مرات، فالتفت إليه البخاري، وقال: القرآن كلام الله غير مخلوق، وأفعال العباد مخلوقة، والامتحان بدعة، أي أن البخاري قد أدرك مغزى السؤال، وعلم أنه من جنس السؤالات التي لا يراد بها وجه الله عز وجل، وإنما يراد بها امتحان العلماء، وإثارة الفتن والفرقة بين الناس، فشغب الرجل السائل على مجلس البخاري؛ فقام البخاري من مجلسه، وجلس في منزله.

بعد هذه الحادثة أخذ الذهلي في التشنيع على البخاري، واتهمه بالتجهم، وقال: قد أظهر البخاري قولة اللفظية، واللفظية عندي شر من الجهمية، ومن ذهب بعد إلى محمد بن إسماعيل البخاري فاتهموه، فإنه لا يحضر مجلسه إلا من كان على مثل مذهبه، ثم تمادى الذهلي في التشنيع والهجوم على البخاري، ونادى عليه في الناس، ومنع طلبة الحديث من الجلوس إليه، ثم ألزم كل من يحضر مجلسه ألا يجلس للبخاري؛ فقال يومًا: ألا من قال باللفظ فلا يحل له أن يحضر مجلسنا، وكان في المجلس وقتها الإمام الكبير مسلم بن الحجاج، وأحمد بن سلمة، فقام الاثنان من مجلس الذهلي، وهذا الأمر جعل الذهلي يزداد في هجومه على البخاري، ويصل لأعلى درجات الغلو والغيرة المذمومة؛ إذ قال بعد حادثة خروج الإمام مسلم من مجلسه: لا يساكنني هذا الرجل: (يعني البخاري) في البلد، وأخذ الجهال والسفهاء يتعرضون للبخاري في الطريق: يؤذونه بالقول والفعل؛ مما اضطر معه البخاري في النهاية إلى أن يخرج من البلد.

وبالنظر لما قام به الذهلي بحق البخاري نجد أن الذهلي قد تدرج في التشنيع والهجوم على الإمام البخاري للوصول لغاية محددة منذ البداية: ألا وهي إخراج البخاري من نيسابور حسدًا منه على مكانة البخاري العلمية، وحتى لا ينسحب بساط الرياسة العلمية منه لصالح البخاري، وهذا ما فهمه البخاري منذ البداية، وقاله لتلامذته، ومن سأله عن هذه النازلة.

وهذا تلميذه محمد بن شاذل يقول: دخلت على البخاري لما وقع فيه محمد بن يحي فقلت: يا أبا عبدالله، إيش الحيلة لنا فيما بينك وبين محمد بن يحي، كل من يختلف إليك يطرد، فقال البخاري: كم يعتري محمد بن يحي الحسد في العلم، والعلم رزق الله يعطيه من يشاء، وقال أحمد بن سلمة: دخلت على البخاري فقلت: يا أبا عبدالله هذا رجل مقبول بخراسان خصوصًا في هذه المدينة، وقد لج في هذا الحديث حتى لا يقدر أحد منا أن يكلمه فيه؛ فما ترى؟! فقبض البخاري على لحيته ثم قرأ: ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٤٤]، اللَّهُمَّ إنك تعلم أني لم أرد المقام بنيسابور أشرًا ولا بطرًا، ولا طلبًا للرياسة، وقد قصدني هذا الرجل [يقصد الذهلي] حسدًا لما أتاني الله لا غير، ثم قال لي: يا أحمد إني خارج غدًا لتتخلصوا من حديثه لأجلي، فقال أحمد بن سلمة: فأخبرت جماعة من أصحابنا بخروج الإمام، فوالله ما شيعه غيري، وكنت معه حين خرج من البلد.

وبالفعل خرج البخاري من نيسابور، واتجه إلى مرو من أعمال خراسان ليواصل رحلته العلمية، فإذا بالذهلي يواصل هجومه الشرس على البخاري،

حتى بعد خروجه من نيسابور: حيث أخذ في الكتابة لسائر بلاد ومدن خراسان يحذرهم من البخاري، وأنه يتبنى قول اللفظية، وقد آتت هذه الحملة أكلها؛ فكلما توجه البخاري إلى بلد في خراسان؛ وجد الناس ثائرين عليه، وكُتُبُ الذهلي في حقه تنهال على علماء المدن وأمرائها فتوغر الصدور، وتحرك الشكوك، وتسيء الظنون، حتى وصلت حدة الحملات التشويهية ضد البخاري لأن يقدم رجلان من أكبر علماء الرجال في الحديث: وهما أبو حاتم، وأبو زرعة على أن يقولا: إن البخاري متروك، ولا يكتبا حديثه بسبب مسألة اللفظ.

وسبحان الله لا أدري كيف أقدم أبو حاتم وأبو زرعة على مثل هذه المقولة؟ وكيف تجاسرا عليها؟ والبخاري حامل لواء الصناعة، ومقدم أهل السنة والجماعة، والبخاري أعلى منهما كعبًا في كل باب في الحديث والفقه والحفظ، قال الذهبي في "السير": كلام الأقران بعضهم في بعض لا يعبأ به، لا سيما إذا لاح لك أنه لعداوة، أو لمذهب، أو لحسد، وما ينجو منه إلا من عصم الله، وما علمت أن عصرًا من الأعصار سلم أهله من ذلك سوى الأنبياء والصديقين.

وكان البخاري يؤكد في كل مكان أنه لم يقل أن لفظه بالقرآن مخلوق؛ فعندما سأله الحافظ أبو عمرو الخفاف عن هذه المسألة؛ فقال له: يا أبا عمرو احفظ ما أقول لك: من زعم من أهل نيسابور وقومي والري وهمذان وحلوان وبغداد والكوفة والبصرة ومكة والمدينة أني قلت: لفظي بالقرآن مخلوق فهو كذلك؛ فإني لم أقله، إلا أني قلت: أفعال العباد مخلوقة، ومعنى هذا التصريح أن الذهلي

الذي خاض في حق البخاري، وشوه سيرته ومكانته قد بني حملته على البخاري على لازم قول البخاري أن الأفعال مخلوقة، فقال الذهلي: أن البخاري يقول: إن ألفاظنا من أفعالنا، وأفعالنا مخلوقة، وإذا هو يقول: إن لفظي بالقرآن مخلوق، ولازم القول ليس بلازم كما هو مذهب جمهور المحققين من العلماء إلا إذا التزمه صاحب القول: أما إذا نفاه وتبرأ منه فلا يلزمه، ولا يشنع عليه بسببه، قال الذهبي: ونعوذ بالله من الهوى والمراء في الدين، وأن نكفر مسلمًا موحدًا بلازم قوله، وهو يفرق ذلك اللازم، وينزه ويعظم الرب، لذلك كان البخاري، ينفي في كل موطن هذه التهمة عن نفسه، ويتبرأ منهما.

صبر الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ على ما أصابه:

قال إبراهيم بن معقل النسفي: رأيت محمد بن إسماعيل في اليوم الذي أخرج فيه من بخارى، فقلت يا أبا عبدالله كيف ترى اليوم من يوم دخولك؟ فقال: لا أبالي إذا سلم ديني.

وهكذا نرى كيف كانت فصول محنة البخاري وهي كما قال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا يسلم منها عصر من الأعصار.

فهي كانت وما زالت قائمة ومتواجدة، بل هي الآن على أشدها؛ فكم من عالم وداعية خاض الحاسدون، وعشاق التصنيف، وأنصار الحزبية في حقه، وردوه بكل قبيح، ونسبوا إليه ما هو منه براء، لا لشيء إلا حسدًا من عند أنفسهم على حب الناس له، والتفافهم حوله، وكم عالم وداعية راح ضحية هذه التشنيعات، حتى ضاع ذكره وخبره تحت أمواج الوشايات والأباطيل التي

ملأت الأسماع، وأوغرت الصدور، وشحنت النفوس، حتى أصبح مجرد ذكر اسم هذا العالم أو الداعية مدعاة للطعن والشك والريب.

والخلاصة أنها قصة جديدة قديمة، وفصولها كلها محزنة أليمة، والسالم من سلَّمه الله، والمعصوم من عصمه الله، وقليل ما هم[1].

محنة الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ

التعريف به:

هو الإمام حقًّا، وشيخ الإسلام صدقًا، وإمام أهل السنة، الفقيه المحدث، والعلم الجبل، وركن الدين، وإمام المسلمين، وصاحب رابع المذاهب الفقهية المتبوعة: الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، أحد كبار أئمة الإسلام وُلد في ربيع الأول سنة ١٦٤هـ بمرو في إقليم خراسان، وقد مات أبوه وهو جنين في بطن أمه، فتحولت به إلى بغداد، وطلب العلم وهو في سن الخامسة عشرة، أي سنة ١٧٩هـ، أي في نفس العام الذي توفي فيه الإمام مالك، وعني بطلب الحديث، وبرع فيه للغاية، وطاف الأقاليم، وجمع الحديث من الثقات الأعلام، وتفرغ لطلب العلم، وجمع الأحاديث حتى إنه لم يتزوج إلا

---

(١)المصادر والمراجع: سير أعلام النبلاء: (٣٩١/١٢)، تاريخ بغداد: (٤/٢)، البداية والنهاية: (٢٧/١١)، الكامل في التاريخ: (٢٢٨/٦)، صفة الصفوة: (٣٤٥/٢)، وفيات الأعيان: (١٨٨/٤)، تذكرة الحفاظ: (٥٥٥/٢)، النجوم الزاهرة: (٢٥/٣)، شذرات الذهب: (٣ /٢٥)، طبقات الشافعية الكبرى: (٢ /٢١٢)، مقدمة فتح الباري: (٥٠١)، الإمام البخاري للدكتور/يوسف الكتاني، تاريخ الإسلام (١٩٢/١٩)، تراجم أعلام السلف: (٣٩٩).

بعد الأربعين، حتى بلغ عدد مروياته من الأحاديث، والآثار ألف ألف حديث، كما قال ذلك الحافظ أبو زرعة، حتى عدوه من أحفظ علماء الإسلام قاطبة.

فصول المحنة:

الفصل الأول: أصل المحنة:

كان المسلمون أمة واحدة، وعقيدتهم صحيحة وصافية، من معين النبوة حتى وقعت الفتنة الكبرى، وقتل ذو النورين عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مظلومًا شهيدًا؛ فتفرقت الكلمة، وظهرت الشرور وبدأت البدع في الظهور، وحدث أول انحراف في تاريخ العقيدة الإسلامية بظهور فرقة الخوارج التي كفرت الصحابة خير الناس، ثم أخذت زاوية الانحراف في الانفراج ولكن كل هذه الفرق الضالة كانت مقهورة بسيف الشرع، وقوة السنة، وسلطان الحاكم المسلم.... وظل المبتدعون في جحر ضب مختفين بضلالهم، لا يرفع أحد منهم رأسًا ببدعة أو بضلال، حتى ولي المأمون العباسي، وكان محبًا للعلوم العقلية، وكلام الفلاسفة الأوائل؛ فبنى دارًا لترجمة كتب فلاسفة اليونان، وأسماها بيت الحكمة، فأخذت أفاعي البدع تخرج من جحورها، وأخذت في التسلل بنعومة إلى بلاط المأمون، ثم التفت حول عقله، ولعبت به، ونفثت سموم الاعتزال في رأسه، ونفق عليه رجال من عينة بشر المريسي؛ الذي كان هاربًا أيام أبيه الرشيد، الذي كان يتطلبه بشدة ليقتله ببدعته، وأحمد بن أبي دؤاد رأس الفتنة ومسعرها، وأبو الهذيل العلاف، وثمامة بن أشرس، وغيرهم، حتى مال المأمون

لقولهم، واعتنق مذهب الاعتزال، والذي يقوم على عدة أصول ومنها نفى الصفات وتعطيلها، وأبرز معالم نفى الصفات القول: إن القرآن مخلوق.
ظل المأمون معتنقًا لهذه العقيدة الضالة، ولا يجبر أحدًا على اعتناقها، ويتردد ويراقب الشيوخ والعلماء المحدثين، وهو يخشى مكانهم وتأثيرهم على جماهير المسلمين، وفي نفس الوقت يحاول إستمالة من يقدر على استمالته منهم، فلما رأى إعراض العلماء عن القول ببدعته زين له أحمد بن أبي دؤاد وبشر المريسي أن يجبر العلماء؛ وذلك بقوة الدولة، وحد التهديد والوعيد، وبالفعل سنة ٢١٨هـ أمر المأمون العباسي قائد شرطة بغداد العاصمة إسحاق بن إبراهيم أن يجمع كبار الفقهاء والعلماء والمحدثين، ويمتحنهم في القول بخلق القرآن، وقرأ عليهم كتاب المأمون الذي يفيض بالتهديد والوعيد، وقطع الأرزاق، والعزل من المناصب لمن يرفض القول بخلق القرآن، ومن يومها بدأت فصول المحنة العظمى التي تحمل الإمام أحمد بن حنبل وحده عبئها، والوقوف في وجه أربابها ودعاتها.

الفصل الثاني: الإمام أحمد والمأمون العباسي:

حمل الإمام أحمد ومن معه من العلماء إلى دار السلطان، وأخذ إسحاق بن إبراهيم قائد الشرطة في امتحانهم، ومع جدية التهديد أخذ العلماء الواحد تلو الآخر يجيب بالقول بخلق القرآن، فلما رأى أحمد بن حنبل الناس يجيبون، وكان من قبل رجلا لينًا، انتفخت أوداجه، واحمرَّت عيناه، وذهب ذلك اللين، وغضب لله عز وجل، وجهر بالحق، وبعد أول يوم لامتحان العلماء عاد الإمام

أحمد بن حنبل إلى مسجده، وقعد للدرس والتحديث؛ فالتف حوله الناس، وسألوه عما جرى، وألحوا في معرفة من أجاب من العلماء في هذه المحنة، فرفض بشدة، وكره الإجابة على هذا السؤال حتى لا يفقد العلماء مصداقيتهم عند الناس ولكن الأمر انتشر بسرعة بين الناس، وعُرف من أجاب ممن رفض.

وصلت أخبار الامتحان للخليفة المأمون، وكان وقتها مقيمًا بطرسوس على الحدود مع الدولة البيزنطية؛ فتغيظ بشدة على من رفض القول بخلق القرآن، وطلب من قائد شرطته إسحاق بن إبراهيم أن يجمع العلماء مرة أخرى، ويمتحنهم، ويشتد في التهديد والوعيد، وبالفعل اشتد إسحاق في التهديد حتى أجاب كل العلماء ماعدا أربعة: أحمد بن حنبل، ومحمد بن نوح، والقواريري، وسجَّادة؛ فقام إسحاق بحبسهم، وتهديدهم بالضرب والحبس؛ فأجاب سجَّادة والقواريري فخرجا من السجن، وبقي أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح؛ فأرسل بخبرهما إسحاق إلى الخليفة المأمون الذي استشاط غضبًا، وأمر بحمَّلهما مقيدين زميلين إلى طرسوس، وقد أقسم ليقتلنهما بيده إذا لم يجيبا في هذه الفتنة، بل أشهر سيفًا ووضعه بجانبه استعدادًا لقتلهما إذا أصرا على الرفض.

حُمِل أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح من بغداد إلى طرسوس، وفي الطريق وقعت عدة حوادث كان لها أثر كبير في تثبيت الإمام أحمد ورفيقه، ودللت أيضًا على أن الناس كانت كلها وراء الإمام، وتؤيده وإن كانت لا تملك له شيئًا، فلقد قابله بالرحبة [موضع على شاطئ الفرات على بعد مائة فرسخ من بغداد]

رجل من عامة المسلمين يعمل في غزل الصوف والشعر، وقد جاء لمقابلته خصيصًا من بادية العراق ليقول له: «يا أحمد إن يقتلك الحق مت شهيدًا، وإن عشت عشت حميدًا، وما عليك أن تقتل هاهنا وتدخل الجنة»، فقوى قلب الإمام أحمد بهذه الكلمات.

ثم بعد فترة استراح الركب في خان بالطريق للمسافرين، وفي الخان قابل الإمام أحمد أحد أصدقائه القدامى، واسمه أبو جعفر الأنباري، والذي عبر الفرات للقاء الإمام أحمد قبل سفره إلى طرسوس، فلما رآه الإمام أحمد قال له: يا أبا جعفر تعنيت [أي كلفت نفسك مشقة السفر، وعبور الفرات]؛ فقال له أبوجعفر: يا هذا أنت اليوم رأس، والناس يقتدون بك، فوالله لئن أجبت إلى خلق القرآن ليجيبن خلق، وإن أنت لم تجب ليمتنعن خلق من الناس كثير، ومع هذا فإن الرجل إن لم يقتلك فإنك تموت، لابد من الموت، فاتق الله ولا تجب.

فجعل الإمام أحمد يبكي ويقول: ما شاء الله، ثم قال: يا أبا جعفر أعد عليَّ، فأعاد عليه، وأحمد يبكي ويقول: ما شاء الله.

وفي طريق السفر كان الإمام أحمد يتهجد ويصلي في جوف الليل، ويدعو الله عز وجل ألا يرى المأمون، وألا يجتمع معه أبدًا، ويلح في الدعاء، وفي رجب سنة ٢١٨هـ، وقبل أن يصل الإمام أحمد ورفيقه محمد بن نوح إلى طرسوس هلك المأمون فجأة بلا مرض أو تعب؛ فراح ضحية سهم من سهام الليل، من قوس مظلوم، بوتر ملكوم: وهو دعاء الإمام أحمد عليه.

الفصل الثالث: الإمام أحمد والمعتصم العباسي:

هذا الفصل هو الأشد والأروع في فصول هذه المحنة العظمى، وتجلى فيه صمود الإمام أحمد؛ حيث أصبح وحده في الميدان بعد أن مات محمد بن نوح تحت وطأة الحبس والتنكيل، ورغم أن الخليفة المعتصم لم يكن من أهل الفكرة، ولا يعتنقها في الأساس، ولكنه خاض في الفتنة، وانغمر فيها لأن أخاه المأمون قد أوصاه بذلك، فحمله حبه لأخيه المأمون على أن يعمل بوصيته، بل يزايد عليها؛ فكان أول قرار أخذه المعتصم هو رد الإمام أحمد إلى بغداد، وسجنه هناك في سجن ضيق مظلم، والقيود في يديه ورجليه، حتى أنه أصيب بمرض شديد في شهر رمضان، فنقلوه إلى سجن أوسع مع عموم الناس، ومكث في هذا السجن ثلاثين شهرًا.

وفي السجن أخذ رجال الاعتزال ورؤوس الفتنة يأتونه: واحدًا تلو الآخر ليناظروه في خلق القرآن، وزادوا في قيوده، وبعد عدة أيام - وكانوا في شهر رمضان - بدأت فصول المناظرة العلنية، بحضور الخليفة المعتصم نفسه.

ولنا أن نتخيل هذا المشهد المهول الذي حضره الإمام أحمد وحده، وكان في مجلس الخليفة المعتصم، وفيه كل رجال البدعة، والوزراء والقادة والحجَّاب والولاة والسيافون والجلادون، وكان الذي بدأ معه الكلام هو المعتصم نفسه، وقد حاول استمالته وترغيبه في أول الأمر، ثم أمر علماء البدعة بمناظرته، فهزمهم الإمام كلهم، وهو يحتج عليهم بالآيات والأحاديث والآثار، وهم يحتجون بكلام الفلاسفة: مثل العرض والجوهر، والشيء والوجود والعدم؛

لذلك فلقد علت حجته حجتهم، والإمام يقول: أعطوني شيئًا من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وكان قائد الشرطة عبد الرحمن بن إسحاق - وهو بالمناسبة ابن إسحاق بن إبراهيم القائد السابق - ممن يدافع عن الإمام أحمد، ويقول للخليفة المعتصم: يا أمير المؤمنين أعرفه منذ ثلاثين سنة، وإنه ليرى طاعتك، والحج والجهاد معك، وإنه لعالم، وإنه لفقيه، ولكن في المقابل كان ابن أبي دؤاد أشد الناس عليه، ويحرض المعتصم عليه بشدة ليقتله، ويقسم له إنه ضال، وكافر ومبتدع.

استمرت هذه المناظرة العلنية ثلاثة أيام، وكانوا في شهر رمضان، والإمام ثابت لا يتزعزع، وخصومه من حوله تتساقط شبههم وبدعهم، حتى كان اليوم الرابع، وكان المعتصم قد ضجر من طول المناظرة، وأغراه قاضي المحنة أحمد بن أبي دؤاد، حتى وصل الأمر إلى التهديد بالضرب والجلد، وأحضرت الخشبة والسياط، وشد أحمد على العقابين [وهما خشبتان يشق الرجل بينهما بالجلد] فخلعت يداه وهو صامد، وعندها أخذت المعتصم شفقة على الإمام، وأعجب بثباته وتصميمه وصلابته، ولكن أحمد بن أبي دؤاد أغراه، وقال له يا أمير المؤمنين تتركه فيقال غلب خليفتين؛ فعمي المعتصم لكلمته الشريرة، وأمر بالإمام فأخذ الجلادون في ضربه بالسياط، يتناوبون على ضربه: هذا يضرب سوطين، والآخر ثلاثة، وهكذا حتى إذا بلغ سبعة عشر سوطًا قام إليه المعتصم وقال له: يا أحمد علام تقتل نفسك؟ وإني والله عليك لشفيق، وجعل عُجَيْفٌ - أحد قادة الأتراك العسكريين في جيش المعتصم - ينخسه بقائمة سيفه

ويقول: أتريد أن تغلب هؤلاء كلهم؟ وجعل بعضهم يقول: ويلك إمامك الخليفة على رأسك قائم، وقال: بعضهم: يا أمير المؤمنين دمه في عنقي، اقتله، وجعلوا يقولون: يا أمير المؤمنين أنت صائم، وأنت في الشمس قائم، والمعتصم يقول: ويحك يا أحمد ما تقول؟ فيجيب الإمام بكل صمود وثبات: أعطوني شيئًا من كتاب الله، أو سنة رسول الله أقول به، فيأمر المعتصم بمواصلة الضرب، ثم قال له المعتصم مرة أخرى: أجبني إلى شيء فيه أدنى فرج حتى أطلق عنك بيدي، ومع ذلك الإمام صامد، فأخذوا في ضربه حتى أغمي عليه من شدة الضرب، وقد تمزق ظهره من لهيب السياط.

بعد هذا الثبات العجيب التي تعجز عن مثله الجبال الراسيات، أمر المعتصم بإطلاق سراحه، ولكن بعد أن فعل شيئًا في منتهى العجب والغرابة، وهو قيامه بإحضار أقارب الإمام أحمد وأهله وجيرانه وأشهدهم على أنه سليم البدن، وذلك خوفًا من ثورة الناس عليه إن حصل للإمام مكروه، هذا على الرغم من قوة المعتصم وشجاعته وسلطته، ولكن قوة الحق، وسلطة الصمود، وشجاعة الثبات الذي عليه الإمام أحمد كانت أكبر من ذلك كله، وخرج الإمام أحمد وعاد إلى بيته بعد ٢٨ شهرًا من الحبس والضرب من سنة ٢١٨ هـ حتى سنة ٢٢١هـ

والمعتصم - وإن كان هو الذي أقدم على ضرب الإمام أحمد - إلا أنه لم يكن مثل المأمون مقتنعًا، أو معتنقًا لهذه البدعة، وكان يود لو أطلق سراح أحمد بلا ضرب، ولكن رؤوس الضلال أوغروا صدره، وأشعلوه غضبه حتى أقدم على

جناية ضرب الإمام، لذلك فلقد جعله الإمام أحمد في حلٍ من هذه الجناية؛ وذلك يوم أن جاءه خبر فتح عمورية سنة ٢٢٣هـ

الفصل الرابع: الإمام أحمد والواثق العباسي:

ظل أحمد بعد خروجه من سجن المعتصم يعالج في بيته فترة طويلة من آثار الضرب والتعذيب حتى تماثل للشفاء، وأخذ يحضر الجمعة والجماعة، ويحدث الناس ويفتي، حتى مات المعتصم، وولى مكانه ابنه الواثق، وكان قد تربى في حجر قاضي المحنة أحمد بن أبي دؤاد؛ فشربه البدعة منذ صغره، فكان الواثق من أشد وأخبث الناس في القول بالبدعة، حيث أظهرها بقوة، وأجبر الناس عليها، وأطلق يد أحمد بن أبي دؤاد فيها؛ فكان يفرق بين الرجل الذي لا يقول ببدعته وبين امرأته، ويأمر المعلمين بتعليم الصبيان في المكاتب هذه البدعة الخبيثة، وبلغ الأمر ذروته عندما كان أحمد بن أبي دؤاد يمتحن أسرى المسلمين عند الروم؛ فمن قال ببدعة خلق القرآن افتداه؛ ومن امتنع يتركه أسيرًا بيد الروم، حتى ضج الناس، وضاقت نفوسهم.

بلغ الأمر بالناس ذروته من فجاجة نشر البدعة، وتسلط المعتزلة على الناس، حتى أقدمت مجموعة من أهل بغداد بقيادة أحمد بن نصر الخزاعي على التحضير للخروج على حكم الخليفة الواثق العباسي، وخلعه من الخلافة، وذهب نفر منهم للإمام أحمد لاستفتائه في الخروج، وعدوا له مساوئ الواثق وجرائمه وبدعه، فلم يوافق الإمام أحمد على ذلك، ومنعهم، وناظرهم في القضية، وأمرهم بالصبر؛ وذلك من فقه وورع ودين الإمام أحمد، على الرغم من

الأذى والاضطهاد والعذاب الشديد الذي ناله الإمام على يد هذه الحكومة الجائرة المبتدعة، والتي لو خرج عليها الإمام أحمد ما لامه أحد، إلا أنه قد أدرك أن المفاسد المترتبة على الخروج أعظم وأكبر من المصالح المتوقعة من وراء إسقاطهم، والذي توقعه الإمام قد وقع بالفعل، فلقد فشلت حركة الخزاعي، وراح فيها الكثيرون.

وعلى الرغم من الدور الذي لعبه الإمام أحمد في إقناع الكثيرين بعدم الخروج على الواثق إلا أن الواثق قد قابل ذلك بفعل شرير، بالغ السوء: حيث أمر بنفيه من بغداد، وأرسل إليه يقول: لا يجتمعن إليك أحد، ولا تساكنى بأرض، ولا مدينة أنا فيها. فخرج الإمام من بيته، واختبأ بدار أحد تلاميذه عدة أيام، ثم انتقل إلى موضع آخر؛ فمكث فيه عدة شهور حتى هدأ الطلب عنه، ثم تحول إلى مكان آخر، وظل هكذا لا يستطيع أن يخرج إلى الصلاة، ولا إلى مجلس علم وتحديث، حتى هلك الواثق العباسي سنة٢٣١هـ، فخرج الإمام للناس، وجلس للتحديث، ذلك أن المتوكل الذي ولى بعد الواثق كان على مذهب أهل السنة، وقد أمر برفع البدعة، وإظهار السنة، وأيضًا لم يسلم الإمام من الفتنة أيام المتوكل، ولكنها كانت فتنة بالسراء، ليس بالضراء، ذلك أن المتوكل قد أفاض عليه بالأموال والعطايا الجزيلة، وحاول استمالته ليسكن مدينة سامرا، ويترك بغداد، وأن يتولى تعليم وتأديب ولده(الـمُعتز)، ولكن الإمام رفض ذلك بشدة، وعانى بسبب هذا الرفض معاناة شديدة.

ثناء الناس على الإمام:

كان الناس يثنون على الإمام أحمد بن حنبل قبل أحداث الفتنة والمحنة، فلما رأوا ثباته وصموده وحده أمام حكومة البدعة، ودولة الاعتزال زاد ثناؤهم وتقديرهم للإمام، حتى لربما خرجوا لطور المغالاة، والمدح الزائد عن الشرع، ومن يقرأ ترجمة الإمام في كتاب حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني يجد نماذج كثيرة لهذا الغلو، الذي ربما خرج لحد السخف كما يقول الحافظ الذهبي؛ لذلك نقتصر في هذا المقام على ما ذكره ثقات العلماء، وصحاح الآثار.

قال قتيبة بن سعيد: خير أهل زماننا ابن المبارك، ثم هذا الشاب - أحمد بن حنبل - وإذا رأيت رجلا يحب أحمد فاعلم أنه صاحب سنة، ولو أدرك عصر الثوري والأوزاعي والليث لكان هو المقدم عليهم، وقال أيضًا: لولا الثوري لمات الورع، ولولا أحمد لأحدثوا في الدين، أحمد إمام الدنيا.

قال الشافعي: خرجت من بغداد فما خلفت بها رجلا أفضل ولا أعلم ولا أفقه ولا أتقى من أحمد بن حنبل، وهو أفضل عندي من سعيد بن جبير في زمانه، لأن سعيدًا كان له نظراء.

قال ابن خزيمة: رحم الله أحمد بن حنبل، عن الدنيا ما كان أصبره، وبالماضين ما كان أشبهه، وبالصالحين ما كان ألحقه، عرضت له الدنيا فأباها، والبدع فنفاها.

قال بشر الحافي: قام أحمد مقام الأنبياء، وأحمد عندنا امتحن بالسراء والضراء؛ فكان فيهما معتصمًا بالله.

والخلاصة:

أن هذه المحنة التي وقعت عامة بأرض الإسلام لم يصمد فيها سوى الإمام أحمد، وقد تداول ثلاثة خلفاء يسلطون عليه من شرق الأرض إلى غربها، ومعهم من العلماء المتكلمين والقضاة والوزراء والأمراء والولاة والقادة العسكريين فبعضهم يسلط عليه بالحبس، وبعضهم بالتهديد والوعيد بالقتل، وبعضهم جلده وعذبه وألقاه في غياهب السجون، وبعضهم بالنفي والتشريد والمطاردة، ثم كانت فتنة السراء أيام المتوكل، وقد خذله في ذلك أهل الأرض، حتى أصحابه العلماء والصالحون، وهو مع ذلك لا يجيبهم إلى كلمة واحدة مما طلبوا منه، وما رجع عما جاء به الكتاب والسنة، ولا كتم العلم، ولا استعمل التقية، بل قد أظهر من سنة رسول الله ﷺ وآثاره ما قمع به البدع، ورفض كل المحاولات التي بذلها معه قرناؤه العلماء في إقناعه بقبول التقية، ورأى أن التقية لا تجوز إلا للمستضعفين، الذين يخشون ألا يثبتوا على الحق، والذين هم ليسوا بموضع القدوة للناس، أما أولوا العزم من الأئمة الهداة فإنهم يأخذون بالعزيمة، ويحتملون الأذى ويثبتون، والإمام أحمد كان يرى نفسه - ولم يبق أحد سواه أمام البدعة - مسئولا عن إخمادها، والصمود أمامها مهما تكن العواقب، ولو أخذ بالتقية والرخصة لاستساغ الناس الرخصة، ولضلوا من ورائها؛ ولذلك كان الإمام أحمد هو إمام أهل السنة، وهو جبل الحق والسنة يوم أن حكمت البدعة، وثباته بإذن الله عز وجل كان ثباتًا للدين والسنة، وإنما تنال الإمامة بالصبر واليقين كما قال ربنا رب العالمين: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً

يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤].[1]

محنة شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ

تعتبر المحنة التي تعرض لها ابن تيمية محنة من طراز خاص؛ حيث لا نظير لها في تاريخ محن علماء الأمة؛ ذلك أن حياة ابن تيمية من أولها إلى آخرها كانت عبارة عن محنة مستمرة؛ فقد ظل طوال حياته ينتقل من محنة لأخرى، ومن ابتلاء لآخر، ومن سجن لآخر، ومن الشام لمصر، ومن حاسد لحاقد.

وقد شملت محنته كافة صنوف الأذى؛ حيث مُنع من الإفتاء والتدريس، وشُهِّر به في كل مكان، ونُفي وعُذِّب وسُجن، حتى وصل الأمر بأهل الباطل إلى تكفيره، وحبك المؤامرات والدسائس لتصفيته وسفك دمه، ولكن أنى لهم ذلك؟ فإن الله يحميه.

وقد أشار ابن تيمية إلى أبرز المحن التي تعرض لها وقوة صموده أمامها بقوله: «ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، أين رحت فهي معي لا تفارقني؛ أنا حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة».

---

(١) "سير أعلام النبلاء"(١٧٧/١١)، "تاريخ بغدد"(٤١٢/٤)، "طبقات الحنابلة"(٢٠/١)، "وفيات الأعيان"(٦٣/١)، "البداية والنهاية"(٣٦٧/١٠)، "الكامل"(١٢٥/٦)، "النجوم الزاهرة"(٣٠٤/٢)، "مناقب الإمام أحمد" لابن الجوزي، "شذرات الذهب" (٩٦/٢)، "حلية الأولياء" (١٦١/٩)، "تذكرة الحفاظ"(٤٣١/٢)، "صفة الصفوة"(٤٨٨/١)، "تراجم أعلام السلف"(٣٦٩).

شيخ الإسلام ابن تيمية ومكانته العلمية:

ولد شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحرَّاني ثم الدمشقي تقي الدين أبو العباس سنة ٦٦١هـ في مدينة حرَّان بالشام، في أسرة علمية حنبلية المذهب راسخة الدعائم قوية الأركان في الفقه والحديث، فوالده الشيخ عبد الحليم كان عالمًا محدثًا، وجده مجد الدين أبو البركات صاحب متن "منتقى الأخبار"، والذي يعتبر كتاب "نيل الأوطار" للشوكاني أحد شروحه وأشهرها، وهذه البيئة العلمية ساهمت في نبوغ ابن تيمية؛ حيث أقبل منذ نعومة أظافره على العلم، فحفظ المتون وحاز الفنون وحصل الأجزاء، وتفقه وتمهر وتقدم وتميز ودرس وأفتى وصنف، وفاق الأقران وصار أعجوبة الزمان في سرعة الاستحضار وقوة الجنان والتوسع في المنقول والمعقول، والتبحر في مذاهب السلف والخلف، وصار علمًا مقدمًا وإمامًا فردًا في علوم شتى خاصة علم التفسير والعقائد والأصول، حتى أنه جلس للتدريس بدار الحديث في دمشق سنة ٦٨٣هـ أي وهو في الثانية والعشرين، وكان يحضر درسه قاضي القضاة وشيوخ المذاهب على رأسهم الشيخ تاج الدين الفزاري شيخ الشافعية، ولبراعة إلقاء ابن تيمية للدرس، جعلوه يجلس في الجامع الأموي أكبر مساجد دمشق والشام وأشهرها لشرح التفسير وذلك في نفس السنة ٦٨٣هـ.

ورغم كثرة مخالفيه من علماء وفقهاء عصره الذين غلب عليهم الجمود والتعصب المذهبي إلا إنهم كانوا معترفين بفضله مقرين بإمامته، خاضعين لتفوقه وبراعته العلمية الفذة، أما تلاميذه ومحبوه وحتى أهل الإنصاف

فيعظمون الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بما يليق بمكانته العلمية.

محنته

فيما يلي خطوط عريضة عن أبرز المحن التي تعرض لها وأماكنها، وأسبابها، وماهيتها، ومدتها:

المحنة الأولى: كانت في القاهرة؛ حيث تم استدعاؤه من دمشق إلى القاهرة بتآمرٍ تمَّ في الشام ومصر عام ٧٠٥هـ، ثم سُجن في القاهرة سنة ونصف.

والسبب وراء هذه المحنة أن السلطان بيبرس الجاشنكير - كما ذكر ذلك ابن كثير في حوادث عام ٧٠٥هـ - طلب ابن تيمية إلى مصر يوم الخامس من رمضان عام ٧٠٥هـ، فتوجه إليها ابن تيمية فدخلها يوم ٢٢ رمضان، فعُقد له مجلس بالقلعة، وقد اجتمع فيها القضاة وأكابر الدولة، وفي المجلس أراد ابن تيمية الكلام إلا أنه لم يُسمح له، وادَّعى عليه ابن مخلوف المالكي (قاضي المالكية وكان من أشد خصوم ابن تيمية)، ومعه نصر المنبجي (الصوفي الضال الحلولي الاتحادي، وكان صاحب حُظوة ووجاهة عند أمير مصر بيبرس الجاشنكير)؛ حيث ادعى ابن مخلوف على ابن تيمية أنه يقول: إن الله فوق العرش حقيقة، وإن الله يتكلم بحرف وصوت، فسأله القاضي عن ذلك، فأخذ ابن تيمية يبدأ حديثه في حمد الله والثناء عليه، فقيل له: أجب، ما جئنا بك لتخطب، فعلم أنها المحاكمة لا المجادلة، فقال: ومن الحاكم فيَّ؟ قيل له: القاضي المالكي، فقال له الشيخ: كيف تحكم فيَّ وأنت خصمي؟، فغضِب غضبًا شديدًا وانزعج، فأصدر حكمه عليه، وحُبس ابن تيمية في برج أيامًا، ثم نُقل مع أخويه: شرف

الدين عبدالله، وزين الدين عبدالرحمن إلى الحبس المعروف باسم «الجُبِّ» في ليلة عيد الفطر.

وقد حاول بعض العلماء إخراج ابن تيمية من السجن مقابل أن يرجع عن بعض النقاط في العقيدة، ولكن ابن تيمية رفض، وآثر السجن على التنازل عما يعتقد؛ حيث بقي في سجن الجب ثمانية عشر شهرًا، ثم خرج بشفاعة الأمير (حسام الدين مهنا) ملك العرب يوم الجمعة الثالث والعشرين من ربيع الأول سنة سبع وسبعمائة.

المحنة الثانية: كانت في الإسكندرية حيث تم نفي ابن تيمية من القاهرة إلى الإسكندرية عام ٧٠٩هـ، ثم سُجن في الإسكندرية سبعة أشهر.

والسبب في ذلك أن بعض الأشاعرة - ومعهم الصوفية - أَلَّبوا عليه القاضي، وتقدموا بشِكاية ضده فحواها: أن ابن تيمية يتناول ابن عربي وغيره من أعلام التصوف، فقرر القاضي نفي ابن تيمية إلى الإسكندرية، وفيها سُجن سبعة أشهر، حيث دخل السجن في شهر صفر عام ٧٠٩ هـ، وخرج منه يوم عيد الفطر عام ٧٠٩هـ.

المحنة الثالثة: كانت في دمشق حيث تم سَجْنُ ابن تيمية هناك عدة مرات:

المرة الأولى: كانت عام٧٢٠هـ، لمدة ستة أشهر. والسبب في ذلك فتوى ابن تيمية بأن الطلاق البدعي لا يقع، وأن الطلاق بالثلاثة إنما يقع واحدة، وأن الحلف بالطلاق يقع يمينًا إذا لم يُنوَ به الطلاق، فثارت عليه ثورة عنيفة من معارضيه؛ حيث تم جمع علماء المذاهب لمناقشته ومناظرته، إلا أنه ألزمهم

الحجة والمحجة، فلجؤوا إلى التأليب عليه؛ حيث أمر نائب السلطنة بسَجنه بسبب هذه الفتوى، فسُجن في القلعة بدمشق، ولم يخرج منه إلا في العاشر من محرم سنة ٧٢١ هـ بأمر من السلطان.

المرة الثانية: كانت عام ٧٢٦هـ؛ حيث سُجن في دمشق لمدة سنتين وثلاثة أشهر.

والسبب فتواه في مسألة: (شد الرحال وإعمال المِطيِّ إلى قبور الأنبياء والصالحين)؛ حيث تم العثور على جواب لابن تيمية كتبه قبل سبعة عشر عامًا، يتضمن الجواب القولين الواردين في المسألة، وترجيحه لأحدهما.

إلا أن أهل الباطل - كعادتهم دائمًا - حرَّفوا فتواه وسعوا ضده؛ حيث أُمر بأخذه لسجن القلعة في دمشق في يوم ٦ شعبان سنة ٧٢٦ هـ.

وقد أشار إلى ذلك العلماء الذين ترجموا لابن تيمية، ومنهم ابن كثير؛ حيث قال: يوم الخميس دخل القاضي جمال الدين بن جملة وناصر الدين مشد الأوقاف، وسألاه عن مضمون قوله في مسألة الزيارة، فكتب ذلك في درج وكتب تحته قاضي الشافعية بدمشق: قابلتُ الجواب عن هذا السؤال المكتوب على خط ابن تيمية إلى أن قال: وإنما المحز جعله زيارة قبر النبي ﷺ، وقبور الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصية بالإجماع مقطوعًا بها.

قال ابن كثير معلقًا على ذلك: فانظر الآن هذا التحريف على شيخ الإسلام؛ فإن جوابه على هذه المسألة ليس فيه منع زيارة قبور الأنبياء والصالحين، وإنما فيه ذِكْرُ قولين في شدِّ الرحل والسفر إلى مجرد زيارة القبور، وزيارة القبور من غير شد رحل إليها مسألة، وشد الرحل لمجرد الزيارة مسألة أخرى، والشيخ لم

يمنع الزيارة الخالية عن شد رحل، بل يستحبها ويندب إليها، وكتبه ومناسكه تشهد بذلك، ولم يتعرض إلى هذه الزيارة في هذه الوجه في الفُتيا، ولا قال: إنها معصية، ولا حكى الإجماع على المنع منها... والله سبحانه لا يخفى عليه شيء، ولا يخفى عليه خافية: ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

وقبل ذلك تعرض ابن تيمية للمنع من التدريس والإفتاء، وتعرض للتشهير والضرب والتعذيب، وقد بلغ مجموع سنوات سجنه خلال الأربع المرات التي سبق ذكرها خمس سنوات تقريبًا.

وقد ضُيِّق على ابن تيمية، ومُنع من الكتابة، ولم يُترك عنده دواة ولا قلم ولا ورق، وأراد أهل الباطل من خلال التشهير بابن تيمية، ومنعه من التدريس والإفتاء، ونفيه وتعذيبه وسجنه - تحجيم علمه، والفتك بإرادته وعزيمته، ولكن أنَّى لهم ذلك أمام هذا الإمام الفذ الشجاع المقدام؟ فلقد استطاع ابن تيمية بفضل الله مواجهةَ هذه المحنة بوسائلَ عدة، تمكن من خلالها من تحويل محنته إلى منحة، قال البزار: ولقد سُجن أزمانًا وأعصارًا وسنين وشهورًا، وَلم يولهم دُبُرَه فرارًا، ولقد قصد أعداؤه الفتك به مرارًا، وأوسعوا حيلهم عليه إعلانًا وإسرارًا؛ فجعل الله حِفْظَه منهم له شعارًا ودِثارًا، ولقد ظنُّوا أن في حبسه مشينة؛ فجعله الله له فضيلة وزينة، وظهر له يوم موته ما لو رآه وادُّه أقر به عَيْنَيْه، فإن الله تعالى لعلمه بقرب أجلَّه، ألبسه الفراغ عن الخلق للقدوم على الحق أجمل حُلَلِه؛ كونه حُبس على غير جريرة ولا جريمة، بل على

قوة في الحق وعزيمة، هذا مع ما نشر الله له من علومه في الآفاق، وبهر بفنونه البصائر والأحداق، وملأ بمحاسن مؤلفاته الصحف والأوراق؛ كبتًا ورغمًا للأعداء أهل البدع المضلة والأهواء، وصُنُعًا عظيمة من رب السماء لعوائده لخاصة الأولياء أهل المحبة والولاء.

وفاته:

قضى شيخ الإسلام ابن تيمية معظم حياته في محن وابتلاءات متتالية، يدخل المعتقل ثم يخرج منه، في الشام وفي مصر، دخول وخروج، حتى جاءت اللحظة التي دخل فيها بجسده ثم خرج بروحه الطيبة، وذلك عندما اعتقلوه ولآخر مرة سنة ٧٢٦هـ بسجن القلعة بدمشق، بسبب تأليب الصوفية عليه لفتواه الشهيرة بحرمة شد الرحال لزيارة القبور، حتى ظل في المعتقل هذه المرة لأكثر من عامين، وقد ضيقوا عليه بشدة، ولكنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يكف عن إعمال عقله وفكره وتدوين علمه، وقد حوّل سجنه من محنة لحريته وجسده إلى منحة لسياحاته الفكرية وإبداعاته العقلية والعلمية لخدمة مشروعه الإصلاحي الكبير لنهضة الأمة.

ولما رأى خصومه فيوضات عقله النير تخرج من خلف الجدران والأسوار ممثلة في رسائله ومؤلفاته الفائقة، أرادوا أن يسكتوا صوت الحق، ويطفئوا نور العلم، فصادروا أقلامه وأوراقه لمنعه من الكتابة، حتى أنه اضطر لأن يكتب الرسائل لأهله وتلاميذه خارج السجن بالفحم على الرسائل التي أرسلوها إليه أولا بعد أن غسلها بالماء وجففها، فما كان من أعدائه إلا إنهم قد بالغوا في

أذيته، ونقلوه إلى زنزانة مظلمة فأضرت ببصره فلم يستطع أن يكتب بالفحم، وذلك قبل وفاته بخمسة شهور.

ظن خصوم ابن تيمية أن بجرائمهم تلك قد نالوا من معنوياته وروحه الطيبة العالية ولكن هيهات هيهات، أنَّا بالريح العاتية أن تنال من الجبال الراسية، فلقد انتهز ابن تيمية الأمر وأقبل على كتاب الله عز وجل قراءة وتدبرًا ودعاءً وتبتلا وصلاة ومناجاة، وهو في أسعد عيش وأطيب قلبوقد ختم الشيخ ابن تيمية خلال الشهور الأخيرة من حياته القرآن أكثر من ثمانين مرة.

وفي ٢٠ من ذي القعدة سنة ٧٢٨هـ آن للروح الطيبة أن تصعد لبارئها وآن للراكب أن يترجل، وللمسافر أن يستقر، وللمبتلى والممتحن أن يستريح، وكان نبأ وفاته شديد الوقع على الناس، وكانت آخر كلماته قبل الرحيل مخبرة عن حالته ونهايته رحمه الله، حيث قرأ قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥]، وقد تنادى المؤذنون على منارات الجوامع بنبأ وفاته، فأقبل الناس بعشرات الآلاف، لشهود الجنازة في تحد صريح لسلطة الدولة التي حبسته ظلمًا وعدوانًا، حتى أن أهل دمشق كلهم رجالا ونساءً تقريبًا قد شهدوا الجنازة، وقد أخرجت صباحًا، ولم يوضع الجسد في اللحد إلا في المغرب، وقد تأسف الناس كلهم محبوه وخصومه على رحيله.

والعاقبةللمتقين:

وهذه سنة ربانية ماضية، لا تبديل لها ولا تغيير، فعلى الرغم من الحملة الشرسة

التي شنها خصوم ابن تيمية عليه وعلى سيرته وتراثه، وما زالوا يشنونها، إلا أن الله عز وجل قد أعلى ذكره بين العالمين، وهذه هي كلماته وآراؤه وفتاويه ومصنفاته تملأ العالم كله، وهذه كتبه وتراثه الفكري والعلمي تطبع وتوزع في كل مكان، وما من داعية ولا عالم ولا مصلح إلا وقد تأثر بأفكار وأقوال شيخ الإسلام ابن تيمية، في حين سقط ذكر خصومه وأعدائه من ذاكرة التاريخ، فلم يبق لهم أثر ولا ذكر إلا مقرونًا بجرائمهم وإساءاتهم لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فمن ذا الذي يعرف الآن ابن مخلوف المالكي أو صفي الدين الهندي أو نصر المنبجي أو البكري الصوفي أو الإخنائي وغيرهم من أعداء الشيخ.

ومن جميل ما نختم به الحديث عن هذا الإمام العلم، ذكر بعض صفاته:

عفوه وصفحه:

فلقد امتحن الشيخ ابن تيمية وأوذي كثيرًا، وخاض خصومه في حقه وآذوه في كل موطن وهو صابر محتسب، يعفو عن خصومه، ويصفح عن كل من آذاه، لا يزيده جهل الجاهلين عليه إلا حلمًا وصبرًا وصفحًا، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن نفسه في ذلك: «وأنا في سعة صدر لمن يخالفني، فإنه وإن تعدى حدود الله فيّ بتكفير أو تفسيق أو افتراء أو عصبية جاهلية، فأنا لا أتعدى حدود الله فيه». وقال أيضًا: «فلا أحب أن يُنتصر من أحد بسبب كذبه عليّ أو ظلمه وعدوانه، فإني قد أحللت كل مسلم، وأنا أحب الخير لكل المسلمين، وأريد بكل مؤمن من الخير ما أحبه لنفسي، والذين كذبوا وظلموا فهم في حل من جهتي».

ولقد ترجم ابن تيمية كلماته تلك في عدة مواقف مشهودة، أبرزها عفوه عن علماء مصر الذين سعوا في قتله وسجنه، وكفّروه وآذوه وتلاميذه بشدة وذلك سنة ٧٠٦هـ وتسببوا في حبسه بقلعة الجبل بالقاهرة، وذلك أيام سلطة بيبرس الجاشنكير الذي اغتصب الأمر من السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وكان الجاشنكير من أعداء ابن تيمية، وقد استغل بعض فقهاء مصر من الأشاعرة والصوفية تلك العداوة وتسببوا في محنة الشيخ، فلما زالت أيام الجاشنكير وعاد الناصر محمد للحكم أخرج ابن تيمية من السجن واستشاره في الانتقام من خصومه وقتل بعض الفقهاء والقضاة، فما كان من ابن تيمية إلا أن أعلن عفوه وصفحه عن خصومه، بل دافع عنهم بشدة وقال للسلطان الناصر محمد: إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم، فقال له السلطان: إنهم قد آذوك وأرادوا قتلك مرارًا، فقال ابن تيمية: من آذاني فهو في حل، ومن آذى الله ورسوله فالله ينتقم منه، وأنا لا أنتصر لنفسي.

وهذه الخصلة العظيمة شهد بها ألد خصوم الشيخ وأكثرهم أذية وعداوة له وهو ابن مخلوف شيخ المالكية في مصر إذ قال: «ما رأينا مثل ابن تيمية؛ حرضنا عليه فلم نقدر عليه، وقدر علينا فصفح عنا وحاجج عنا».

وشهد عليها أيضًا واحد من أشد أعداء ابن تيمية وهو الشيخ الصوفي الضال علي بن يعقوب البكري المصري، وكان من أشد الساعين في ابن تيمية بالقول والفعل، فقد كفر ابن تيمية وأحل دمه، وقاد مجموعة من الصوفية الجهلة سنة ٧١١هـ واعتدوا على ابن تيمية حتى كادوا أن يقتلوه، وقد تجمع عدد كبير

من الناس منهم الجند والفرسان إثر هذه الحادثة لينتقموا من البكري، ولكن ابن تيمية عفا عنه وحجز الناس عن الفتك به، ولما انقلب الحال وصار الشيخ البكري مطلوبًا عند السلطان، فر في كل مكان حتى ضاقت عليه الأرض بما رحبت وذهب لابن تيمية وطلب منه الاختباء في بيته، فخبأه ابن تيمية في بيته فترة من الزمان، حتى شفع فيه عند السلطان وعفا عنه، فانظر إلى شهادة الخصوم مع هذا الرجل العظيم صاحب القلب الكبير.(١)

محنة الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ

العلم والفهم رزق يسوقه الله لمن يشاء من عباده وربما يكون عند العالم من ذلك ما ليس عند غيره. والناس على مر العصور يتنافسون في الرزق والمكانة والمنزلة حتى يتحاسدون - عياذا بالله-، ولو فتشت عن كثير من المحن والابتلاءات التي تعرض لها كبار علماء الأمة لوجدت الحسد والغيرة تقف خلفها، فهي سنة ماضية وأمر مقدور لا يخلو منه عصر من العصور، ومن نماذج ذلك: **محنة هذا الإمام العَلَم.**

التَّعريف به:

هو فقيه الأمة حقّا وعَلَمُها المقدَّم، الفذُّ العبقريُّ، ناصر الحديث، أستاذ الفنون، الأصوليُّ اللغويُّ البديع، الشَّريف النَّسيب، فقيهُ الرأي والأثر،

(١)"الوابل الصيب"، لابن القيم، ص: ٤٨.، "البداية والنهاية"، لابن كثير: ٤٣/١٤، "العقود الدرية"، لابن عبدالهادي

الطَّبيبُ الصَّيدلانيُّ، العالم الكبير أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السَّائب المطلبيُّ الهاشميُّ القرشيُّ.

ولد في غزَّة وقيل: عسقلان من أرض فلسطين ١٥٠ هـ، وقيل في نفس اليوم الذي مات فيه الإمام أبو حنيفة في سجن المنصور، وقد مات أبوه شابا والإمام ما زال في المهد، فانتقلت أمُّه به إلى اليمن، لأنها كانت من الأزد أكبرِ بطون اليمن، ومكثت به في اليمن عدة سنوات، فخافت عليه ضَيعة نسبه الشريف، فتحوَّلت به إلى مكة، فنشأ بها وترعرع، وأقبل على الرَّمي حتى فاق أهل زمانه في هذا الفن، تم ألقى الله -عز وجل- في قلبه حبَّ الحديث والفقه، وذلك من إرادة الله -عز وجل- الخير له وللأمة، فأقبل على هذا الطريق ينهل منه بكلِّ سبيل.

بدأ الشافعيُّ في طلب العلم بعد أن جاوز الثانية عشر من عمره، فأقبل على حفظ كتاب الله حتى أتمَّه ودخل المسجد الحرام وجلس إلى علماء مكة خاصة مسلم بن خالد الزّنجي مفتي مكة، وتخرج فيه وهو في سنِّ المراهقة، وقرأ القرآن على إسماعيل بن قسطنطين، وتنقَّل في البادية لفترة طويلة حتى أتقن لهجات العرب وأشعارها، وساعدته مهارتُه اللُّغويَّة الفائقة في كثير من استدلالاته الفقهية.

بعد أن جاوز الشَّافعيُّ العشرين وأتم علوم شيوخ مكة، انتقل إلى المدينة واجتمع مع الإمام مالك وقرأ عليه الموطأ من حفظه، فانبهر الإمامُ مالك بقوة حفظه وفهمه، وطلب منه إعادة القراءة، وتفرَّس فيه النَّجابة والمستقبل العلميَّ

الباهر فأوصاه بوصايا نافعة، من أهمها قوله: إنَّ الله تعالى قد ألقى على قلبك نورًا، فلا تطفئه بالمعصية.اهـ

بعد أن نهل من علوم أهل المدينة، انتقل الشَّافعيّ إلى اليمن للعمل بالقضاء، لأنه كان فقيرا ويريد أن ينفق على نفسه وأمه ورحلته في طلب العلم، فلمَّا استلم المنصب كان شُعلة نشاط، وذكاء يتوقد ذهنه بالعلم والفهم، فاشتغل بنشر العلم والفقه، فجالس العلماء والمحدثين، وعلا قدره، وظهر أمره، وتَكلم عن فضله وشأنه أهلُ اليمن، وذلك كله وهو في أوائل الثلاثينيات، وكان ذلك من أسباب محنته باليمن.

محنته:

تعرَّض الإمام الشافعي لمحنة في أوساط عمره كادت أن تُغيِّر مسار حياته بالكلية وتلقيه في طيِّ النسيان وغياهب السجون، حيث لا ذِكْر ولا أثر إلا من جدران الزنازين، وأما عن سبب محنته فيلخصها لنا تلميذه الأنجب الإمام أحمد بن حنبل عندما سأله بعض طلبة العلم عن سبب هجوم البعض على الإمام الشافعي، إذ قال: لقد منَّ الله علينا به، لقد كنَّا تعلمنا كلام القوم، وكتبنا كتبهم، حتى قدم علينا، فلما سمعنا كلامه، علمنا أنه أعلم من غيره، وقد جالسناه الأيام والليالى، فما رأينا منه إلا كلَّ خير، واعلموا حكم الله تعالى أنَّ الرجل من أهل العلم إذا منحه الله شيئًا من العلم وحرمه قرناءه وأشكاله، حسدوه فرمَوه بما ليس فيه، وبِئْست الخصلة في أهل العلم.اهـ

وحقا كان الإمام الشافعي كما وصفه الإمام أحمد؛ فلقد رزقه الله علما وفهما

ومواهب لدنية كثيرة لم تكن عند غالبية أقرانه لذلك تعرض الإمام لمحن متتالية مردها وأساسها الحسد والغيرة، فقد كان أعلم أهل عصره بلا منازع، وفي نفس الوقت كان شريف النسب، جميل الصورة، بهيَّ الطلعة، مما جعله موضع حسد الناس، وقد بدأت محنته عندما كان قاضيا باليمن وقد صار أحدوثة اليمن مما جعل حُسَّاده يسعون في حقه عند الخليفة العباسيِّ هارون الرشيد، وكان الذي سعى بالوشاية ضد الشافعيِّ رجلٌ للأسف يُنسب لأهل العلم اسمه مطرف بن مازن دفعه الحسد والغيرة المذمومة للسَّعي في حقِّ الإمام الشَّافعيّ، والتُّهمة كانت في غاية الخطورة، وهي قيادةُ تنظيمٍ شيعيٍّ باليمن لقلب نظام الحكم، وهي تُهمة كفيلةٌ بإزهاق روح الإمام أو حبسه لأجلٍ غير مسمى على أقلِّ تقدير، لذلك لما وصل الكلام للخليفة الرشيد أمر على الفور بالقبض على الشافعيِّ وكلِّ من ورد اسمه في وشاية الكذاب مطرف بن مازن، وذلك في سنة ١٨٣ هجرية.

حُمل الشَّافعيّ ومن معه مُكبَّلين بالحديد والأغلال من اليمن إلى مدينة (الرقة) في شمال بلاد العراق حيث مقرُّ إقامة الخليفة العباسي هارون الرشيد، ولنا أن نتخيل حجم المعاناة والألم البدني والنفسي الشديد الذي تعرَّض له الإمام الشافعي من جراء تلك الرحلة الطويلة الشاقة من أقصى الجنوب لأقصى الشمال، وهو بريء لا ذنب له.

استعدَّ الشافعي لمواجهة كافة التهم الموجهة إليه، فانتضى سيف بلاغته، وركب فرس حجته، فما إن أُدخل على الخليفة الرشيد، حتى انطلق برائع بيانه

يكشفُ بطلان ما وُجِّه إليه من تهم وافتراءات، حتى سلب لُبَّ الرشيد بدفاعه البليغ، خاصة عندما قال له: « أَأَدَعُ من يقول إنَّه ابن عمِّي –يقصد هارون الرشيد– وأتولَّى من يقول إنه خالقي ورازقي» – يقصد إمام الشيعة الذي يُسبغ الشيعةُ الأغبياء عليه صفات القداسة، فانشرح صدرُ الرشيد، وطلب منه أن يُناظر الإمام محمد بن الحسن تلميذ أبي حنيفة في بعض المسائل، فأظهر الشافعيُّ براعة علمية فائقة فأمر الرشيد له بجائزة كبيرة تُقدر بخمسة آلاف دينار بمثابة رد اعتبار لذلك الإمام المظلوم وتبرئة لساحته أمام الناس.

كانت تلك المحنة فاتحةَ خير على الإمام الشافعي، وسببا لانتشار علمه وتكوين مذهبه وقيام مدرسته الفقهية، حيث ظلَّ بالعراق ولم يَعُد إلى اليمن، إلا لجلب أهله وحاجاته ثم عاد إلى العراق لينتشرَ ذكره وأثره وعلمه، وتتهافت عليه الطلبةُ ويقبل عليه الناس، فأين حاسدُه ومبغضه الذي أراد إسكاتَ صوته وخنق علمه وفقهه في بلاد اليمن؟ ولكنها سُنَّه الله الماضية: أن يبوء الحاسدُ والحاقد بالخسران والندامة، ويُعلي الله -عز وجلَّ- شانَ أهل العلم الرَّبَّانيِّين على مرِّ العصور.

وفي سنة ١٩٨هـ ينتقلُ الشَّافعيُّ إلى مصر ليواصلَ نشر علمه، وتُقابله محنةٌ أخرى تمثلت في عداوة تلاميذ الإمام مالك له بسبب خوفهم من اندثار مذهبهم حتى إنهم كانوا يَدْعون عليه في صلواتهم بالموت، وبجانب ما كان يُعانيه الشَّافعيّ من مِحَن بسبب الحسد والغيرة، وآثار التهمة القديمة بالتشيع والرفض، كان الشافعي يُعاني من محنة أخرى تُعتبر علامة من علامات محبة

الله عز وجل، وهي محنة مرضه المزمن بالبواسير الشديدة التي سبَّبت له آلاما مبرحة ونزيفا مستمرا للدِّماء حتى إنه كان لا يحدث أو يؤلف أو يقرأ القرآن إلا وتحته لبد أو طست من شدَّة النَّزف.

وظلَّ مرضه يتعالى عليه حتى أورثه ضعفا، لا يكادُ يقوى أن يقف أو يجلس معه، وكان تلميذه يونس بن عبد الأعلى حسنَ الصوت بالقرآن الكريم، فكان كلَّما دخل يعوده يقول له: يا يونس لا تغفل عني بقراءتك فإني مكروب، وذلك من شدَّة آلامه وأوجاعه، حتى مات صابرا محتسبا وهو في الرابعة والخمسين من عمره، فرحمه الله رحمة واسعة وأجزل له المثوبة.(١)

محنة الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ

التعريف به:

هو الإمام الفذ، والعلم المتبحر، والمفسر المحدث، طبيب القلوب وعللِها، وخبير النفوس وآفاتها، صاحب التصانيف الرائعة، والمصنفات النافعة، الإمام أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر أيوب بن سعد بن حريز بن مكي الزرعي الدمشقي الحنبلي، المشهور بابن قيم الجوزية، أو ابن القيم، نسبة إلى أبيه الذي كان قَيمًا - ناظرًا - على المدرسة الجوزية (إحدى مدارس الفقه الحنبلي

---

(١)مراجع:سير أعلام النبلاء (١٠/٥)، حلية الأولياء (٦٣/٩)، تراجم أعلام السلف (٣٠٥)، تاريخ بغداد (٥٦/٢)، البداية والنهاية (٢٧٤/١٠)، طبقات الشافعية، الكامل في التاريخ (٤٥٣/٥)

بدمشق).

ولد سنة ٦٩١هـ بدمشق - على الراجح من كلام المؤرخين - في أسرة علمية خالصة؛ إذ كان أبوه الشيخ أبو بكر قَيِّمًا على المدرسة الجوزية، فانتظم ابن القيم في الدرس، وطلب العلم وهو في السابعة، فدرس على يدي مدرسي الجوزية وغيرهم، وظهرت منه مثابرة عظيمة في طلب العلم، ورغبة صادقة في النبوغ والألمعية، حتى إنه قد أتقن علومًا عدة وهو دون العشرين من العمر، ولم يكتف بطلب العلم من مشايخ الحنابلة الذين ينتمي إلى مذهبهم، ولكن طلبه من سائر الشيوخ، وأرباب المذاهب؛ فلقد درس على يد العلامة ابن الزملكاني الشافعي، والحافظ المزي الشافعي، ومجد الدين التونسي المالكي، والصفي الهندي الحنفي، وهكذا طاف على شيوخ المذاهب، وجنى من بساتين علومهم، حتى صار من العلماء المتبحرين الموسوعيين في تلك الفترة الزاخرة بالعلماء والأعلام.

محنته:

من لطف الله عز وجل وتقديره لابن القيم أنه التقى بشيخ الإسلام ابن تيمية؛ وكان لقاؤه مع ابن تيمية نقطة فاصلة في حياته؛ وقد أخذ ابن تيمية بمجامع قلب ابن القيم، وأصبح مرشده العلمي والدعوي، وأصبح ابن القيم من أخص وأنجب تلاميذ ابن تيمية، وأصبح كلاهما يعبر عن الآخر، وكذلك أصبح ابن القيم امتداد لابن تيمية، وقد لزم أقواله وآراءه وأفكاره، ولم يخرج عنها، وبالتالي تعرض ابن القيم لنفس المحن التي تعرض لها ابن تيمية، وكان

شريكه وقرينه فيها.

محنته مع شيخ الإسلام ابن تيمية:

كانت حياة ابن تيمية كانت مسلسلا متواصلا من المحن والابتلاءات، وكانت بداية العلاقة بين ابن القيم وابن تيمية سنة ٧١٢هـ بعد عودته من مصر منتصرًا على خصومه من الصوفية، وقد شهدت هذه الفترة من سنة ٧١٢هـ إلى سنة ٧٢٠هـ هدنة من المحن في حياة ابن تيمية مكنته من نشر أفكاره وفتاواه وعلمه، وتهيئته لمجموعة من التلاميذ الذين سيحملون المنهج السلفي، وينشرونه بين الناس، ومن هؤلاء - بل وعلى رأسهم - الإمام ابن القيم.

في سنة ٧٢٥هـ خرج ابن القيم حاجًّا، وأثناء عودته عقد درسًا للوعظ والتفسير بالمسجد الأقصى، تكلم فيه عن مسألة الزيارة، وشد الرحال لزيارة قبر الخليل بفلسطين وأنكرها؛ فهاج عليه الناس وثاروا، ورفعوه إلى قاضي القضاة؛ فحكم بردته وقتله.

وانظر كيف وصل الحال بالتعصب والجهل، يهدر دم امرئ مسلم، بل عالم رباني على فتوى صحيحة، واستطال الأمر، وعظمت المحنة، وانتهز خصوم ابن تيمية من الصوفية والأشاعرة، وغيرهم الفرصة، وألبوا الفقهاء والعلماء والسلطة على ابن تيمية، وكل من ينتمي إلى مدرسته، فقبضوا على ابن تيمية، وابن القيم، وابن كثير، والبرزالي، وغيرهم، وآذوهم بشدة، وشهروهم في دمشق، وكان لابن القيم النصيب الأوفر؛ إذ ضرب بين يدي القاضي والأمير، وأهين بشدة، ثم حمل على حمار مقلوبًا، وطيف به في أنحاء دمشق كما يفعل مع

السراق والمفسدين، ثم ألقوا به في السجن مع شيخه ابن تيمية، ولكن بصورة انفرادية، وظل رهين حبسه حتى مات شيخه ابن تيمية سنة ٧٢٨هـ، وخلال تلك الفترة الطويلة انشغل ابن القيم بالذكر والمناجاة والدعاء، وقراءة القرآن؛ ففتح الله عز وجل له أبوابًا كثيرة من العلم والتدبر والفهم، والمواجد الصحيحة، وقد بان أثر ذلك في كتاباته بعدها؛ فجاءت من قلم مجرب، وقلب متبتل، ومعايشة محنة، وبعد وفاة شيخ الإسلام ابن تيمية أفرجوا عن ابن القيم.

محنته مع قاضي القضاة السبكي:

بعد خروج الإمام ابن القيم من سجنه ومحنته أخذ على عاتقه نشر أفكار شيخ الإسلام ابن تيمية، والمحافظة على منهجه ومدرسته التي أرسى دعائمها بكثير من الجهد والنصب والمحن، حتى مات من أجلها في سجون الظالمين، وقد أصبح ابن القيم هو رائد المدرسة التجديدية بعد رحيل ابن تيمية، لذلك كان من الطبيعي أن يتعرض ابن القيم لنفس الحملات التشويهية والتعريضية التي سبق وأن تعرض لها شيخه.

اجتهد الإمام ابن القيم كثيرًا لرد أهل عصره لهدي القرون الأولى، والتصدي للبدع التي تسربت لحياة المسلمين، والتي ليست من الدين في شيء، وكان الأشاعرة وقتها من أشد خصوم ابن تيمية ومنهجه السلفي، وكل من ينتمي إلى السلفية، وكانت الدولة للأشاعرة؛ فاستخدموا نفوذهم، ومساندة السلطة لهم في قمع أتباع المنهج السلفي، وكان قاضي القضاة في بلاد الشام تقي الدين السبكي:

وهو واحد من أسرة عريقة في العلم وفي القضاء، وأيضًا من أشهر الأسر تمسكا بالمذهب الأشعري، وكان للسبكية صولات وجولات مع أتباع المنهج السلفي، وبالأخص تقي الدين السبكي كان أشدهم قسوة ونقدًا وتحاملا على ابن تيمية وتلاميذه.

تولى تقي الدين السبكي منصب قاضي القضاة بالشام سنة ٧٣٩هـ، وابن القيم وقتها يعتبر علم المدرسة السلفية، فتحامل عليه بشدة، وصار يتتبعه في فتاويه وآرائه، وينتقده، ويؤلب عليه السلطة، حتى إن السبكي قد عقد له مجلسًا بسبب فتواه بجواز المسابقة بغير محلل، وأجبره على التراجع عنها، ثم سعى في سجنه بسبب تصديه لمسألة الطلاق الثلاث بلفظ واحد، وهي الفتوى التي سبق وأن أفتاها ابن تيمية، وأوذي بسببها، وبالفعل تسبب السبكي في سجن ابن القيم فترة من الوقت، ومن شدة تضييق تقي الدين السبكي على الإمام ابن القيم اضطره للرحيل إلى مكة؛ حيث جاور هناك فترة طويلة من الزمن، استغلها في العبادة والإقبال على الله عز وجل، والتأليف والتصنيف، فألف في تلك الفترة أروع كتبه مثل: بدائع الفوائد، ومدارج السالكين، وزاد المعاد، ومفتاح دار السعادة.

ورغم كثرة المحن والابتلاءات التي تعرض لها الإمام ابن القيم، والإهانة والضرب والحبس الذي تعرض له: صغيرًا وكبيرًا، تلميذًا وإمامًا، إلا أنه لم يغير موقفه وآراءه، ومنهجه ودعوته، وظل على طريقه ودربه سائرًا، ينفع الناس، ويحارب البدع والخرافات والأفكار المخالفة للإسلام، وقد جعل هدفه في الحياة

العودة بالناس لمنابع الدين الصافية النقية؛ لذلك لما رحل عن دنيانا في رجب ٧٥١هـ خرجت دمشق عن بكرة أبيها لتودع هذا الإمام الفذ العلامة، وقد تأسف الجميع لرحيله، حتى خصومه؛ لما كان عليه من العلم والفضل، والأخلاق الحسنة، ولم تنل المحنة منه، ولم تؤثر على مكانته ودرجته، وظل لوقتنا الحاضر يتبوأ منزلة ساحقة في تاريخ علماء الأمة وأعلامها.[١]

محنة تلميذ الإمام الشافعي الألمعي: الإمام أبو يعقوب يوسف بن يحيى البويطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ

التعريف به:

هو الإمام العلامة، سيد الفقهاء، وكبير الشافعية، جبل العلم، أبو يعقوب يوسف بن يحي القرشي البويطي، أخص تلاميذ الإمام الشافعي، وأنجبهم، وأقربهم لقلبه، وأعلمهم، وخليفته في حلقته بعد وفاته.

- تلقى العلم في بداية حياته في قريته بويط، ثم انتقل إلى الفسطاط مع أبيه، وجلس لعبد الله بن وهب شيخ المالكية في مصر، وحمل عنه علمًا كثيرًا؛ فلما دخل الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى مصر سنة ١٩٨هـ لنشر علمه جلس إليه البويطي، فانبهر بعلمه؛ فلازم مجلسه ولم يفارقه، وتخرج به، وكان ذا حظ وافر من الفهم

---

(١)المصادر والمراجع: الدرر الكامنة: (٤/٢١)، البدر الطالع: (٢/١١٣)، المختار المصون: (١٨٤)، البداية والنهاية: (١٤/٢٥٢)، تراجم أعلام السلف: (٦٩٥).، ذيل طبقات الحنابلة: (٢٠/٤٤٨)، شذرات الذهب: (٣/١٦٨)، النجوم الزاهرة: (١٠/٢٤٩).

والذكاء؛ فصار أكبر أصحاب الإمام الشافعي، وأكثرهم فهمًا لدقائق مذهبه ومسائله، حتى إنه لما مات الإمام الشافعي سنة ٢٠٤هـ جلس البويطي مكانه في الحلقة، وتصدر وأفتى، وناظر وألف؛ وذلك كله وهو في شرخ الشباب.

ثناء الناس عليه:

لقد كان الإمام البويطي من الأئمة الأعلام، المقتدى بهم في العلم والعمل؛ فلقد كان إمامًا في العلم، قدوة في العمل، زاهدًا ربانيًا، متهجدًا، دائم الذكر والعمل، ولنسمع ثناء أستاذه وإمامه الشافعي، وكلامه فيه لنعلم مدى مكانة هذا الإمام؛ فقد قال عنه الإمام الشافعي: ليس في أصحابي أحد أعلم من البويطي. وكانت المسائل تأتي الشافعي فيحيلها على البويطي ليجيب عليها، وقال مرة للمعترض على ذلك: البويطي لساني الذي أتكلم به، حتى إنه كان يرسله مع رجال الوالي من الحرس والشرط لردع العصاة، والاحتساب على الماجنين والفاسقين، ولما أوشك الإمام الشافعي على الموت سألوه عمن يرث مجلسه، فقال: ليس أحدًا أحق بمجلسي من يوسف، يقصد: البويطي.

وقال عنه قرينه ونظيره في حلقة الشافعي، الإمام الربيع بن سليمان: كان البويطي أبدًا يحرك شفتيه بذكر الله، وما أبصرت أحدًا أنزع بحجة من كتاب الله من البويطي، وكان يسرد الصوم، ويختم في الأسبوع الواحد عدة مرات، وكان من رجال العامة: يقوم مع الناس في حاجاتهم، وله صنائع المعروف مع الناس أجمعين.

وقال عنه الإمام الذهبي: كان إمامًا في العلم، وقدوة في العمل، زاهدًا، ربانيًا،

متهجدًا دائم الذكر والعكوف على الفقه.

وقال عنه جاره ابن أبي الجارود: كان البويطي جاري، فما كنت أنتبه ساعة من الليل إلا سمعته يقرأ ويصلي.

محنته:

يعتبر الحسد هو المحرك الرئيسي للمحنة التي وقعت للإمام البويطي، والتي أدت في النهاية إلى مصرعه رَحِمَهُ ٱللَّهُ بطريقة مأساوية، وإن كان هو نفسه قد جعل من محنته تلك مثلا من أروع أمثلة الثبات على الحق، والصبر واليقين.

فلقد مر بنا أن البويطي كان من أكبر وأعلم تلاميذ الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقد فاق أقرانه في حلقة الشافعي؛ لدرجة أن المسائل كانت ترد إلى الشافعي فيطلب من البويطي الإجابة عليها، وأقرانه شاهدون لذلك، وكان يقول لمن يلومه في تقديم البويطي: إنه أعلم أصحابي، ولساني الذي أتكلم به، وكلها أمور كانت تحرك مكنونات الصدور، والحسد بين الأقران أمر مشهور، معروف عبر الدهور.

فلما اشتد المرض على الإمام الشافعي ولم يقدر على الجلوس للعلم تنازع تلاميذ الإمام في من حلقته بالمسجد، وكانت أكبر وأعظم حلقة وقتها، وكان تنازع فيها ثلاثة: البويطي، ومحمد بن عبد الحكم، والمزني، والثلاثة هم أكبر تلاميذ الإمام، وكان البويطي أحقهم: لعلمه وفقهه، ووصلت أخبار هذه المنازعة للإمام وهو على فراش المرض، فقال لأحد تلاميذه - واسمه الحميدي، وكان من أئمة الحديث والأثر، وأصله من الحجاز - قال له الشافعي: ليس أحد

أحق بمجلسي من يوسف، ليس أحد في أصحابي أعلم منه؛ فانطلق الحميدي إلى الثلاثة، وأخبرهم بقول الإمام، فانظر كيف كان رد فعل ابن عبد الحكم، وكان من أشد الثلاثة حرصًا على المنصب!!

عندما سمع ابن عبد الحكم ذلك الكلام انكسر له بشدة وغضب، وقال للحميدي: كذبت، فرد عليه الحميدي، وكان أكبر منه سنًا وقدرًا: بل كذبت أنت، وتنازعا الكلام حتى انتهى لأن جلس البويطي مكان شيخه وإمامه الشافعي، وأكلت الغيرة والحسد قلب محمد بن عبد الحكم حتى فارق مجلسهم، بل فارق مذهب الشافعي بالكلية، وعاد إلى مذهبه القديم - المالكي - ونال فيه مراده، وصار شيخ المالكية في زمانه، وصار شديدًا على الإمام الشافعي، حتى صنف كتابًا في الرد على الشافعي، على الرغم من أن الإمام الشافعي كان يحبه كثيرًا، حتى إنه قد كان يتمنى أن يولد له ولد مثل ابن عبد الحكم هذا، ولكنها الغيرة، ومنافسة الأقران، التي أدت لذلك كله.

توفي الشافعي رحمه الله سنة ٢٠٤هـ، وجلس البويطي وتصدر وقد حان أوانه؛ فصار كبير الشافعية، وإليه المنتهى في فقه الإمام، وأقبل هو على العلم والعبادة، وإرشاد الناس ونصحهم، والناس تبع له، يحبونه ويجلونه، حتى قدر أتباع الشافعية في أيامه بعشرات الآلاف من أهل مصر.

في تلك الفترة أخذت بدعة القول بخلق القرآن في الظهور شيئًا فشيئًا على يد دعاة الاعتزال، حتى استطاعوا العبث بعقل الخليفة العباسي المأمون، وأقنعوه بتلك البدعة الشنيعة، وحملوه على امتحان الناس، وإجبار العلماء على ذلك،

وذلك كما مر بنا الحديث أثناء محنة الإمام أحمد بن حنبل، فلما تولى الخلافة الواثق بن المعتصم العباسي سنه ٢٢٧هـ كان من أشد الناس قولا بتلك البدعة، وقد استحوذ قاضي المحن كلها أحمد ابن أبي دؤاد على عقله وقلبه، فلم يقطع الواثق قولا، ولا يصدر رأيًا إلا بمشورة هذا الضال الهالك أحمد بن أبي دؤاد.

استغل أحمد بن أبي دؤاد طاعة الواثق العمياء له؛ فوضع خطة واسعة لنشر تلك البدعة الخبيثة في كل البلاد الإسلامية، وبالفعل شرع في تنفيذها، وأقنع الواثق بعزل كل القضاة والأئمة والولاة الذين لا يقولون بتلك البدعة، وجعل مكانهم قضاة وولاة وأئمة من المعتزلين، القائلين بخلق القرآن، وأصدر أوامره لمعلمي الصبيان في الكتاتيب والمدارس لأن يلقنوا الصبيان الصغار عقيدة الاعتزال، ووصل الأمر ذروته حتى امتحنوا أسرى المسلمين عند الروم: فمن قال بخلق القرآن افتدوه، ومن لم يقل تركوه في الأسر عند الكفار، وبالجملة غلت البلاد بتلك البدعة الخبيثة، وفارت بها أقاليم الخلافة كلها.

في ذلك الجو الخانق والمشحون بالبدع والضلالات ينشط الوشاة، وأصحاب النفوس المريضة من الحاسدين والحاقدين، وانتهز البعض الفرصة لتصفية الحسابات، والقضاء على الكفاءات، وكان قاضي المحنة أحمد بن أبي دؤاد يتتبع الأئمة والعلماء وكبار المشايخ، ويعمل جاهدًا على إسكاتهم بأية صورة كانت، وبالترغيب أو بالترهيب، كلٌ حسب صموده وصبره، فانتهز ذلك الأمر بعض الحاسدين للإمام البويطي: وهم أبو بكر الأصم قاضي مصر، وكان معتزليًا، ورجل آخر، وهو بكل أسف وحزن عبد الله بن الإمام الشافعي نفسه، وكان

مخالفًا لسيرة أبيه تمامًا، وقام الرجلان بالكتابة إلى قاضي المحنة أحمد بن أبي دؤاد في شأن البويطي وعقيدته السلفية، ومعارضته للقول بالبدعة الشنيعة، وعظَّما جدًا من خطورة البويطي على البدعة وأهلها.

كتب ابن أبي دؤاد إلى والي مصر يأمره بامتحان الإمام البويطي، وكان الوالي حسن الرأي فيه، ويحبه لعلمه وورعه؛ فقال له: قل فيما بيني وبينك، أي طلب منه التظاهر بالموافقة فقط ليأمن غائلة الطاغية ابن أبي داود، فإذا بالإمام البويطي يضرب أروع الأمثلة في فهم مكانة الإمام، وطبيعة الدور الذي يؤديه في قيادة الأمة وقت النوازل، وأبى أن يترخص في الأمر، وعمل بالعزيمة كما فعل أخوه الإمام أحمد بن حنبل، وقال للوالي المشفق عليه: إنه يقتدي بنا مائة ألف، لا يدرون أني أتظاهر فقط بالموافقة، وإن أجبت أجابوا هم أيضًا؛ فلما علم الطاغية ابن أبي دؤاد أمر بالقبض عليه، وحمله مقيدًا في الحديد الثقيل من الفسطاط إلى بغداد، وذلك سنة ٢٣٠هـ.

ولنا أن نتخيل حجم المعاناة الشديدة، والمحنة الكبيرة التي كان فيها البويطي طوال الرحلة من الفسطاط إلى بغداد، وهو مقيد بسلسلة حديدية وزنها أربعون رطلا كما حكى لنا زميله وقرينه الربيع بن سليمان، في مشهد هو الأروع في تاريخ المحن، وصبر العلماء عليها.

قال الربيع: لقد رأيت الإمام البويطي على بغل في عنقه غل، وفي رجله قيد، وبينه وبين الغل سلسلة فيها لبنة وزنها أربعون رطلا، وهو يقول - أي البويطي -: «إنما خلق الله الخلق بـ (كن)؛ فإذا كانت مخلوقة، فكأن مخلوقًا

خلق بمخلوق، ولئن أدخلت عليه - يعني الخليفة الواثق - لَأَصْدُقَنَّهُ: أي أقول الصدق، ولا أخاف منه، ولأموتن في حديدي هذا حتى يأتي قوم يعلمون أنه قد مات في هذا الشأن قوم في حديدهم».

ما أروع تلك الكلمات، والله إنها لتستحق أن تكتب بماء من ذهب، وحروف من نور في تاريخ علماء الأمة، ليتعلم منه العلماء والدعاة في كل زمان ومكان والصبر والثبات واليقين، والفداء والتضحية من إجل هذا الدين؛ فالبويطي رغم الإهانة العظيمة، والمحنة الشديدة أرسى العديد من المعالم الهامة، والعظات البالغة لعلماء الأمة أثناء المحن والنوازل منها:

١- جهره بالحق، وصدعه به رغم الآلام النفسية والبدنية الشديدة.

٢- تعليمه للناس العقيدة الصحيحة، ودحض الباطل، حتى وهو في قمة المحنة في القيود والأغلال.

٣- شجاعته وجرأته في الشدائد، وتمسكه بالصدع من القول حتى ولو كان أمام الخليفة الحاكم نفسه.

٤- بذل نفسه وروحه لله عز وجل، والاستقبال لله عز وجل، وإصراره على الحق والثبات على الدين حتى الموت، ولو في السجون والأغلال.

٥- حرصه على تعليم أجيال العلماء الآتية الفداء والتضحية من أجل الدين، حتى يعلموا كيف يواجهوا الشدائد والمحن.

فيالها من دروس وعظات كثيرة ضربها لنا ذلك الإمام الفذ.

وفاته:

حمل البويطي في القيود والأغلال من الفسطاط إلى بغداد، وكان طوال الرحلة الطويلة الشاقة يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر ويدحض البدع؛ مما جعل غيظ الطاغية ابن أبي داؤد يشتد عليه؛ فما كاد الإمام أن يصل إلى بغداد حتى أمر ابن أبي دؤاد بإلقائه في غياهب السجون، والتشديد عليه، ولم يمتحنه كما فعل مع غيره من العلماء، ولم يدخله على الخليفة كما هي العادة مع كبار العلماء خوفًا من أن يقنع الواثق بالحق، ويرده عن البدعة.

ظل البويطي في ظلمات السجون عدة شهور كان فيها مثالا للعالم الرباني، سائرًا على درب يوسف عليه السلام، يعلّم المساجين أمور دينهم، ويناظر المبتدعة، وكان في كل يوم جمعة يتطهر ويأتي باب زنزانته ويطلب الخروج لأداء الجمعة، والسجان يرده فيقول: والله إنك تعلم أن المنع ليس مني، وظل دأبه هكذا فترة.

حاول ابن أبي دؤاد الضغط على الإمام البويطي حتى يكسر جموده وصبره، وحاول إرسال بعض المعتزلة لإقناعه فلم ينجح، وظل البويطي جبلا شامخًا، وطورًا عظيمًا أمام المحنة، عندها أمر الطاغية بتشديد الأغلال والقيود عليه حتى أنهم قد لفوه بالحديد من أعلاه إلى أدناه، واشتد الأمر على البويطي فلم يعد قادرا على الحركة إلا ببطء شديد، ومعاناة كبيرة، وأثر ذلك على نفسية الإمام، ذلك أنه لم يعد قادرًا على التطهر والوضوء والصلاة إلا بشق الأنفس، وعرف أعداؤه كيف ينالون منه، في أعز ما يملك: طاعته وعبادته لله عزوجل، وها هو الإمام البويطي يصف لنا حاله برسالة بعث بها للإمام الذهلي، وهو من

كبار علماء الحديث في خراسان قال فيها: يا أبا يحي قل لإخواني أصحاب الحديث، وطلبة العلم أن يدعو الله عز وجل أن يفك كربتي، فلقد كبلوني بالحديد حتى إني لم أعد أتطهر وأصلي كما ينبغي، عسى الله أن يفرج عني ما أنا فيه بدعائهم.

فلما قرأ الإمام الذهلي الرسالة على طلبة الحديث في حلقته بكى وبكوا جميعًا، وضجوا في الدعاء له.

سرعان ما استجاب الله عز وجل لهم، كأنّ بأسباب السماء كانت مفتوحة وقتها، وخرجت دعوة المظلوم المكلوم لربها الذي سبق منه القول واليقين بإجابتها ولو بعد حين، نعم جاء الفرج للإمام البويطي من رب السماء، وأخرجه ربه عز وجل من السجن الكبير، أخرجه من سجن الدنيا التي لاقى من أهلها العنت والحسد والوشاية، أخرجه إلى الأفق الرحب، والسعادة السرمدية والراحة الأبدية، أخرجه إلى جنات تجري من تحتها الأنهار، فيما نحتسبه عند الله عز وجل، مات الإمام البويطي في سجنه وقيوده وحديده، وخرجت روحه الطاهرة إلى ربها تشتكي ظلم الطغاة والوشاة؛ وذلك سنة ٢٣١هـ، وقد انتصر على خصومه فما نالوا إلا من دنياه، أما من آخرته فما نالوا إلا ما سيلاقونه غدًا من حسرة وندامة بين يدي الله عز وجل عندما يسألهم بأي ذنب سجنتموه وقتلتموه، والله عز وجل أعلم بالعواقب والخواتيم.[١]

---

(١)المصادر والمراجع: سير أعلام النبلاء: (٥٨/١٢)، تاريخ بغداد: (٢٩٩/١٤)، وفيات الأعيان: (٦١/٧)، البداية والنهاية: (٣٣٣/١٠)، الكامل في التاريخ: (٨٩/٦)، العبر:

محنة الإمام أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ

التعريف به:

هو الإمام المقدم، وفقيه الإسلام، وعالم العراق، وأستاذ مدرسة الرأي، والعَلَمُ العلاَّمة، والبحر الفهامة أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطي التيمي الكوفي، ولم يكن أصلا من العرب، بل من أبناء الفرس، ومن موالي بني تيم الله بن ثعلبة.

ولد أبو حنيفة سنة ٨٠ ﻫ بالكوفة: أي في حياة صغار الصحابة، ولكن لم يثبت له أيه رواية، ولو حرفًا واحدًا عن أحد منهم، طلب العلم صغيرًا، ولزم حلقة حماد بن أبي سليمان ثماني عشرة سنة، وقد آلى على نفسه ألا يفارق حمادًا حتى يموت، أو يستوفي منه كل علمه، ومع شدة ملازمته لحماد بن أبي سليمان، جلس لغيره من أئمة الزمان الأعلام: مثل عطاء بن أبي رباح عالم مكة وفقيهها، والشعبي عالم العراق، وعبد الرحمن بن هرمز عالم المدينة، ونافع مولى ابن عمر، وعلقمة والزهري محدث الزمان، ومحمد بن المنكدر، وهشام بن عروة، وغيرهم كثير، ولم يكن يأنف أن يروي، أو يطلب العلم من أحد، حتى ولو كان أصغر منه، حتى إنه قد روى عن شيبان النحوي وهو أصغر منه، وعن مالك بن أنس وهو كذلك أصغر منه، وهكذا شأن كل من طلب المعالي، وسلك

(٤١١/١)، طبقات الشافعية: (١٦٢/٢)، النجوم الزاهرة: (٢٦٠/٢)، شذرات الذهب: (٧١/٢)، المنتظم: (١٧٤/١١)

سبيل الربانيين.

وهو من العلماء العظماء الذي كانوا من أزهد الناس، وأتقاهم وأورعهم، من العلماء العاملين، الذين فروا من زخارف الدنيا، وفروا من المناصب، وكانت الدنيا تتزين لهم فيرفضوها، وتتعرض لهم فيطردوها، وتلاحقهم فيفروا منها كما يفر الواحد من الأسد، رفض الدنيا ومناصبها، وأبى أن يضع نفسه موضع الفتن والشبهات، وأبت عليه نفسه أن يكون مطية للسلاطين والحكام، وأصر على ذلك، حتى راح ضحية ثباته وإصراره على رفض المناصب والزخارف، فصار إمامًا من أعظم أئمة الإسلام.

ولما مات حماد بن أبي سليمان سنة ١٢٠ هـ جلس أبو حنيفة مكانه في حلقة الدرس بجامع الكوفة، وكان وقتها في الأربعين من عمره، وقد بلغ حد الكمال العلمي والذهني، فتصدر وهو كهل، وكان تاجرًا يعمل في بيع الخز، فإذا قضى حاجته من التجارة جلس للعلم والتدريس والإفتاء، حتى فاق أهل زمانه جميعًا، وصار علمًا مقدمًا في الفقه وغيره، وقد أرسى دعائم مدرسة الرأي في الفقه الإسلامي، وصار أستاذ القياس الأول بلا منازع.

خصاله:

لم يكن الإخلاص وحده، أو الإعراض عن الدنيا ومناصبها وزخارفها هو أهم ما يميز الإمام أبو حنيفة، بل كان من رجالات الكمال في العلم والعمل، موصوفًا بكل فضل؛ فلقد كان عالـمًا عاملا، جمع بين العلم والعبادة، فكان يصلي العشاء والصبح بوضوء واحد أغلب حياته، يطيل الصلاة جدًا مع

الخشوع والسكينة، حتى لقب بالوتد لطول صلاته، بل قيل: إنه ممن قرأ القرآن كله في ركعة كما فعل ذلك من قبل ذو النورين عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وكان يحيي ليله كله تضرعًا ودعاءً، وقد تواتر هذا الأمر عند أهل زمانه جميعًا، أما عن مجالسه فلقد كان حليمًا وقورًا، هيوبًا، لا يتكلم إلا جوابًا، ولا يخوض فيما لا يعنيه، كافًّا لسانه عن النيل من خصومه الذين كانوا يطيلون الكلام فيه بسبب الرأي، معرضًا عن زلات الآخرين، لا يجاري أحدًا فيما لا ينفع ولا يغني، وقد جعل على نفسه إن حلف بالله صادقًا أن يتصدق بدينار، وكان إذا أنفق على عياله نفقة تصدق بمثلها، يكثر من الإنفاق على إخوانه وتلاميذه، بل وأهالي تلاميذه.

وكان أبو حنيفة ورعًا تقيًا، متحرزًا من مواطن الشبهة والمظنة، ولعل هذا الورع الذي أورثه محنته التي قضى فيها رَحِمَهُٱللَّهُ، ولقد قال له رجل يومًا: اتق الله، فانتفض واصفَّر وأطرق، وقال: جزاك الله خيرًا، ما أحوج الناس في كل وقت إلى من يقول لهم مثل هذا.

ثناء الناس عليه:

يعتبر أبو حنيفة الإمام الأول في ترتيب الأئمة الأربعة، أصحاب المذاهب المتبوعة، والتي ظلت قائمة حتى وقتنا الحاضر، وإلى أن يشاء الله عز وجل؛ لذلك لقبوه بالإمام الأكبر والأعظم، ورغم وجود علماء فحول في زمانه وقبله، ربما يفوقونه علمًا ورواية إلا أنه قد استطاع أن يرسى دعائم مدرسة الرأي في الفقه الإسلامي، ويكون مذهبًا معروفًا، له أصوله وضوابطه وأحكامه

وتلاميذه، وإن كان الفضل في انتشار مذهبه يرجع إلى مجهودات تلميذه الأول القاضي أبي يوسف، أما عن ثناء الناس عليه فكثير، يخرج عن حد الحصر، وهذه طائفة من كلامهم:

• قال ابن المبارك: لولا أن الله أعانني بأبي حنيفة وسفيان كنت كسائر الناس، وما رأيت رجلا أوقر في مجلسه، ولا أحسن صمتًا وحلمًا من أبي حنيفة.

• قال الشافعي: الناس عيال في الفقه على أبي حنيفة.

• قال الإمام مالك: رأيت رجلا - يعني أبا حنيفة - لو كلمك في هذه السارية أن يجعلها ذهبًا لقام بحجته.

• قيل للقاسم بن معن: ترضى أن تكون من غلمان أبي حنيفة؟ قال: ما جلس الناس إلى أحد أنفع من مجالسة أبي حنيفة.

• قال تلميذه أبو يوسف: كان أبو حنيفة ربعة، من أحسن الناس صورة، وأبلغهم نطقًا، وأعذبهم نغمة، وأبينهم عما في نفسه.

• قال شريك: كان أبو حنيفة طويل الصمت، كثير العقل.

• قال يزيد بن هارون: ما رأيت أحدًا أحلم من أبي حنيفة.

• قال أبو معاوية الضرير: حب أبي حنيفة من السنة.

• قال الذهبي: الإمامة في الفقه ودقائقه مسلمة إلى هذا الإمام (يعني أبا حنيفة).

• قال يحي بن سعيد القطان: لا نكذب الله، ما سمعنا أحسن من رأى أبي حنيفة، وقد أخذنا أكثر أقواله.

• قال علي بن عاصم: لو وزن علم الإمام أبي حنيفة بعلم أهل زمانه لرجح عليهم.

• قال حفص بن غياث: كلام أبي حنيفة في الفقه أدق من الشعر، ولا يعيبه إلا جاهل.

• سئل ابن المبارك يومًا: مالك أفقه أو أبو حنيفة؟ قال: أبو حنيفة أفقه الناس.

• وسئل الأعمش عن مسألة فقال: إنما يحسن هذا النعمان بن ثابت الخزاز، وأظنه بورك له في علمه.

• والآثار الواردة في فضله ومكانته العلمية وثناء الناس عليه كثيرة جدًّا، لا يتسع المقام هنا لسردها، واكتفينا بما ذكرناه للتدليل على مكانة الإمام.

محنته:

الإمام أبو حنيفة عاصر عهدين مختلفين ومتتابعين في حياة الأمة الإسلامية: العهد الأول عهد الدولة الأموية المجاهدة، وفيه وُلد الإمام، ونشأ وترعرع، وتعلم ودرس، وطاف البلاد، وجالس العلماء الكبار، وفيه أيضًا بلغ حد الإمامة والتصدر، وصار له تلاميذ وأتباع، وأصبح من جملة علماء الأمة الكبار والمعروفين، والذين يرجع إلى رأيهم، ويفزع إلى علمهم وقت النوازل والمحن.

أما العهد الثاني فهو عهد الدولة العباسية، التي قامت بعد التخلص من الدولة الأموية، وقد شهدت الدولة العباسية في بداية عهدها العديد من المشكلات الكبيرة ضدها من أولياء الدولة السابقة، أو من الناقمين على أسلوب وطريقة

قيام وحكم الدولة الجديدة.

وفي هذا الجو المتوتر، والمليء بالفتن والاضطرابات تجد الشائعات البيئة الخصبة للرواج والانتشار، ويجد الوشاة والحاقدون والحاسدون الآذان المصغية لأكاذيبهم وافتراءاتهم، ومن هنا كانت محنة الإمام أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فعندما اندلعت فتنة النفس الزكية سنة ١٤٥ هـ بقيادة أخوين من آل البيت: هما محمد وإبراهيم ابنا عبد الله بن حسن، استطاعت هذه الحركة أن تسيطر على المدينة والبصرة والكوفة، وأجزاء من الدولة العباسية، وكانت هذه الفتنة من أشد و أقوى الفتن التي قامت على الدولة العباسية أيام الخليفة أبي جعفر المنصور، والذي بذل مجهودات ضخمة من أجل القضاء عليها، وخلال هذه الفتنة راج بين الناس أن الإمام أبا حنيفة بالعراق والإمام مالك بالمدينة يؤيدان هذا الخروج على الحاكم، وكان الإمامان من أكبر علماء العصر وقتها، فلما انتهت هذه الفتنة انتهز الوشاة والحاقدون الأمر، وأخذوا في تأليب الخليفة المنصور على العالمين الجليلين، وقد مر بنا أثناء الكلام على محنة الإمام مالك تفاصيل ما جرى له، أما ما جرى مع الإمام أبي حنيفة أشد وأقسى جرمًا.

فلقد كان الإمام أبو حنيفة - كما ذكرنا من قبل- عازفًا عن المناصب الدنيوية، وخاصة المناصب التي يكون صاحبها قريبًا من السلطة الحاكمة، وخاضعًا لتأثيراتها وضغوطها، لما يعلمه من حجم المخالفات التي سيقع فيها صاحب المنصب من أجل إرضاء السلطة الحاكمة: إما رهبة، وإما رغبة، لذلك لما عرض

ابن هبيرة والي العراق في أيام الخليفة الأموي يزيد بن الوليد - الملقب بالناقص - على الإمام أبي حنيفة منصب القضاء بالكوفة رفض أبو حنيفة بشدة؛ فهدده ابن هبيرة بالضرب والحبس، ومع ذلك أصر أبو حنيفة على الرفض، فما كان من ابن هبيرة إلا أن ضربه وجلده؛ فلم يُزِدْ ذلك الضرب أباحنيفة إلا إصرارًا على الرفض، وعندما تركه ابن هبيرة، وعين آخر مكانه أدت هذه الحادثة لارتفاع مكانة أبي حنيفة بين الناس، وعلا شأنه بين علماء الزمان.

ولما انتهى الخليفة أبو جعفر المنصور من فتنة النفس الزكية، وفعل ما فعله مع الإمام مالك في المدينة، التفت لمن حامت عليهم الشائعات، ودارت حولهم الأقاويل في اشتراكهم في فتنة النفس الزكية، أو حتى في تأييدهم لها، وعلى رأس هؤلاء الإمام أبو حنيفة، فطلبه إلى بغداد، فحُمِلَ الإمام إلى هناك، وفي مجلس الخليفة المنصور، دعا المنصور أبا حنيفة إلى منصب القضاء - وهو يعلم علم اليقين أن الإمام سيرفض تمامًا - كما فعل من قبل مع الأمويين وواليهم ابن هبيرة- وإنما أراد المنصور بهذا العرض أن يختبر مدى طاعة وولاء أبي حنيفة للدولة العباسية، وفي مجلس المنصور دار الحوار الفريد بين الخليفة والإمام الكبير:

فعن مغيث بن بديل قال: دعا المنصور أبا حنيفة إلى القضاء فامتنع، فقال المنصور: أترغب عما نحن فيه؟ [أي يشكك في طاعة الإمام للدولة].

فقال أبو حنيفة: لا أصلح.

فقال المنصور وقد احتد: كذبت.

فقال أبو حنيفة: فقد حكم أمير المؤمنين على أني لا أصلح!!

ثم استخدم أبو حنيفة مهارته الفائقة في الإقناع والقياس فقال: فإن كنت كاذبًا فلا أصلح [يعني لكذبه]، وإن كنت صادقًا، فقد أخبرتكم أني لا أصلح.

وعندها غضب أبو جعفر المنصور بشدة، وأقسم بأغلظ الأيمان ليلينَّ الإمام منصب القضاء، وكان من الطبيعي أمام هذا الغضب، وهذه الأيمان المغلظة، وسطوة الخلافة أن يرضخ أبو حنيفة لكل هذه الضغوط ويوافق، ولكن أباحنيفة العالم الرباني، الذي لا يبالي إلا بسخط الله عز وجل وحده وغضبه، والذي يعلم عواقب أمثال هذه المناصب المشروطة يرد على الخليفة المنصور قسمه بقسم أغلظ، ويمين أوكد، ويقسم أبو حنيفة ألا يلي هذا المنصب الخطير، ومع قوة رد الإمام لم يستطع الخليفة المنصور أن يرد، وعندها يتدخل الربيع حاجب الخليفة المنصور في الحوار لعله يستطيع إثناء أبي حنيفة عن رأيه، ويقول للإمام أبي حنيفة مهددًا: ترى أمير المؤمنين يحلف وأنت تحلف؟ فرد أبو حنيفة بهدوئه ووقاره وفطنته المعهودة: أمير المؤمنين على كفارة يمينه أقدر مني، وهو بذلك يؤكد على إصراره، ورفضه لمنصب القضاء، وأنه مهما كانت الضغوط، ومهما كانت شخصية صاحب هذه الضغوط وسطوته فلن يرضخ الإمام.

عندها قرر الخليفة المنصور أن يُصعد ضغوطه على الإمام؛ فخيره بين قبول القضاء أو السجن، وكأنا بالخليفة المنصور قد تأكدت عنده الشائعات التي

راجت حول دعم أبي حنيفة لفتنة النفس الزكية، وأراد أن ينكل بالإمام ويؤدبه بشدة كما حدث مع الإمام مالك؛ فأصر أبو حنيفة على الرفض، ولسان حاله يقول: ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ [يوسف: ٣٣]، فأمر المنصور بضربه أولا، ثم حملوه في القيود إلى سجن بغداد.

وفي السجن المظلم عانى الإمام أبو حنيفة من التضييق والتشديد، وأيضًا من التهديد بالقتل يومًا بعد يوم، وقد أمر الخليفة المنصور بالتشديد على الإمام، وكان وقتها على مشارف السبعين، وقد وهن جسده، وحطمته دروس العلم، وسؤالات الناس، ومع ذلك لم يتراجع أبو حنيفة عن قراره، ولم تلن عزيمته قيد أنملة، ولكن إن صمد قلبه وروحه وعزيمته وإيمانه أمام كل هذه الضغوط فإن الجسد الواهن لم يصمد كثيرًا؛ فتوفي الإمام أبو حنيفة في سجنه في رجب سنة ١٥٠هـ، وصعدت روحه إلى بارئها وهي في قيود السلطان لتخاصمه يوم القيامة أمام المحكمة الإلهية يوم لا ينفع مال ولا بنون، وقد قيل: إن المنصور قد دس على الإمام أبي حنيفة من وضع له السم في السجن، وإن صح الكلام فقد توفى الرجل شهيدًا تقيًا، صابرًا محتسبًا، والله أعلم بما كان، وما سيكون.

العجيب في هذه المحنة التي تعرض لها الإمام أنها كانت بسبب فرار الإمام من الدنيا ومن المناصب، وإننا لنعجب من حال هذا الإمام الرباني، الذي أقبلت عليه الدنيا بزخارفها، والمناصب تعرض عليه، ويهدد بكل وسيلة من أجل أن يكون من أصحاب المناصب العليا، ولكنه يرفض، ويؤثر الضرب

والسجن، ثم الموت على أن يكون من الدنيا وأهلها، ونحن الآن نرى من ينتسب للعلم يتهافت على الدنيا والمناصب، ويلهث وراء الدنيا، ولا يبالي بأي شيء من أجلها، وهؤلاء عادة ما يكونون مطية للسلاطين والحكام، وهم بذلك أسوأ مثال للعلم والعلماء، وهذا هو الفرق بين العلماء الربانيين، والعلماء الدنيويين.[١]

محنة الإمام سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ

لا يزال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم أسباب المحن والابتلاءات التي تعرض لها كثير من علماء الأمة، خاصة في الفترات التي يحكم فيها الطغاة؛ حيث لا تجد الأمة من يتصدى لهؤلاء الطغاة سوى علمائها، وهذه محنة واحد منهم، بل واحد من أعظمهم.

التعريف به:

هو شيخ الإسلام، إمام الحفاظ، سيد العلماء العاملين في زمانه، أمير المؤمنين في الحديث، المجتهد المطلق، العابد الزاهد، قدوة العصر، الإمام أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق بن حبيب الثوري، وُلد سنة ٩٧هـ بالكوفة، في بيت علم وورع وديانة، فأبوه المحدث الثقة: سعيد الثوري وهو من طبقة صغار

---

(١)المصادر والمراجع: سير أعلام النبلاء: (٣٩٠/٦)، تاريخ بغداد: (٣٢٣/١٣)، البداية والنهاية: (١١٥/٩)، الكامل في التاريخ: (١٩٢/٥)، وفيات الأعيان: (٤١٥/٥)، تذكرة الحفاظ: (٢٢٧/١)، النجوم الزاهرة: (١٢/٢)، تراجم أعلام السلف: (١٤٧).

التابعين، وأمه كانت امرأة صالحة، دفعت ولدها منذ صغره نحو طلب العلم، وقالت له: اذهب فاطلب العلم حتى أعولك بمغزلي، وكان أبوه فقيرًا مشغولا بالحديث.

انطلق الثوري كالشهاب يطلب العلم من مشايخ الوقت، وعلماء العراق، وأكثر من ذلك حتى بلغ عدد شيوخه ستمائة شيخ، وعلا ذكره، وطارت شهرته، وعرفه الناس، وهو شاب دون العشرين؛ وذلك لعلو همته، وكثرة رحلته، وشدة زهده وورعه، وفرط ذكائه، وسعة محفوظاته، وما زال أمره في علو ورفعة، وخبره في ذيوع وشهرة، حتى لقب بأمير المؤمنين في الحديث، وكان أحفظ أهل زمانه، على الرغم من وجود العديد من الحفاظ الأعلام، والأئمة والأثبات في زمانه، إلا أنه يفوقهم جميعًا.

جمع الثوري بين العلم والعمل، والزهد والورع والعبادة، والجهر بالحق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومجافاة السلاطين والأمراء، والفرار من المناصب، والتحرز من الشبهات، حتى صار درة الدهر، وبركة العصر، وحجة الله على الخلق.

ثناء الناس عليه:

للثوري منزلة خاصة عند المسلمين عامة، وأهل العلم والحديث خاصة؛ فلقد كان الإمام الثوري كلمة إجماع بين العالمين، لم يختلف عليه اثنان، ولم يؤثر عن أحد من المسلمين مهما كان حاله أنه نال الثوري بكلمة ذم أو انتقاص، فهو من سادات المسلمين، ومن الأئمة الأعلام المتبوعين، ولقد ظل مذهبه

واختياراته الفقهية والعلمية معمولا بها حينًا من الدهر، ولو وجد الثوري من التلاميذ والأتباع من يقوم بمذهبه وعلمه لظل مذهبه قائمًا حتى الآن، ومن بين المذاهب المتبوعة المعروفة، ولكنه مثل الليث بن سعد، وأبي ثور والأوزاعي، وغيرهم من الأئمة الذين لم يجدوا من يقوم بهم، وينشر علمهم، وهذه طائفة من كلام وثناء الناس على الإمام الثوري:

قال شعبة بن الحجاج: سفيان أمير المؤمنين في الحديث، ساد الناس بالورع والعلم.

قال أبو حنيفة: لو حضر علقمة والأسود من كبار التابعين لاحتاجا إلى سفيان.

قال سفيان بن عينية: ما رأيت رجلا أعلم بالحلال والحرام من سفيان الثوري.

قال الفضيل بن عياض: كان سفيان الثوري - والله - أعلم من أبي حنيفة.

قال بشر الحافي: كان الثوري عندنا إمام الناس، وسفيان في زمانه كأبي بكر وعمر في زمانهما.

قال شعيب بن حرب: إني لأحسب أنه يجاء غدًا بسفيان حجة من الله على خلقه، يقول لهم: لم تدركوا نبيكم، قد رأيتم سفيان.

قال يحيى بن معين: ما خالف أحد سفيان في شيء إلا كان القول قول سفيان.

قال ابن المبارك: ما نعت لي أحد فرأيته إلا وجدته دون نعته إلا سفيان الثوري.

قال الأوزاعي: لو قيل لي اختر لهذه الأمة رجلا يقول فيها بكتاب الله وسنة

نبيه لاخترت لهم سفيان الثوري.

قال الشافعي: ما رأيت بالكوفة رجلا أتبع للسنة، ولا أود أني في مسلاخه من سفيان الثوري.

قال يحي القطان: سفيان الثوري فوق مالك في كل شيء.

قال أحمد بن حنبل: أتدري من الإمام؟ الإمام سفيان الثوري، لا يتقدمه أحد في قلبي.

قال الذهبي: قد كان سفيان رأسًا في الزهد والتأله والخوف، رأسًا في الحفظ، رأسًا في معرفة الآثار، رأسًا في الفقه، لا يخاف في الله لومة لائم، من أئمة الدين.

محنته:

محنة الإمام سفيان الثوري ترجع في المقام الأول لوجوده في عصرين مختلفين، وشهوده لقيام دولة وانهيار أخرى، ومعاينته للأهوال والملاحم التي وقعت خلال ذلك القيام والانهيار، فآثر ذلك في نفسه بشدة، وكوَّن الإمام رؤيته وحكمه على الدولة الجديدة من خلال الفتن والملاحم التي وقعت، وجعلت الإمام يفر من أية علائق مع تلك الدولة، ويرفض أي منصب تعرضه عليه السلطة الجديدة؛ لاعتراضه بالكامل عليها شكلا وموضوعًا.

وُلد سفيان الثوري سنة ٩٧هـ بالكوفة كما أسلفنا، ونشأ وترعرع وطلب العلم في عهد الدولة الأموية المجاهدة، وطاف البلاد، ولاقى الشيوخ، ولما صار في سن الكهولة في الخامسة والثلاثين - أي في سنة ١٣٢هـ - وقع الزلزال الكبير في الأمة الإسلامية، وقامت الدولة العباسية على أنقاض الدولة الأموية، وذلك

بعد سلسلة رهيبة من المعارك الطاحنة، والمجازر المروعة، وكان إعلان قيام الدولة في الكوفة نفسها، ورأى سفيان الثوري ذلك كله، وكان وقتها قد صار من علماء الكوفة وشيوخها المعروفين، إليه يفزع الناس عند النوازل والملمات طلبًا للفتيا والسؤال، وكان سفيان الثوري لا يرى الخروج على الأئمة ولو جاروا؛ من باب درء الفتنة، وارتكاب أخف الضررين من أجل دفع أعظمهما، ومنع المفاسد العظيمة، ولكنه في الوقت نفسه يرى وجوب الإنكار على الملوك والأمراء والسلاطين، والصدع بالحق مهما كان.

ومن أجل تلك الرؤية والفكرة تعرض الإمام سفيان الثوري للكثير من المحن والفتن، حيث طلبه خلفاء الدولة العباسية الواحد تلو الآخر، وعرضوا عليه منصب القضاء، ولكنه رفض بشدة، وفر منهم؛ فقضى شطر حياته الأخير طريدًا شريدًا، لا يأويه بلد ولا صديق إلا ينتقل منه لآخر، وهكذا.

محنته مع الخليفة أبي جعفر المنصور:

مر بناء أثناء الحديث عن محنة الإمام أبي حنيفة كيف قام الخليفة العباسي أبوجعفر المنصور بالضغط عليه من أجل تولي منصب القضاء؛ فضربه وحبسه وتهدده، والإمام يرفض بكل شدة حتى مات قتيلا في سجون المنصور، وبعد وفاة الإمام أبي حنيفة سأل المنصور عمن يلي الأمر فوصفوا إليه سفيان الثوري، وأخبروه أنه أعلم أهل الأرض، فأرسل في طلبه مرة بعد مرة، وسفيان يرفض القدوم عليه.

اشتد أبو جعفر المنصور في طلب سفيان الثوري، والثوري مصر على عدم تولي

القضاء، حتى اضطر سفيان للخروج من الكوفة إلى مكة، فأرسل المنصور في الأقاليم بمنادٍ يقول: من جاء بسفيان الثوري فله عشرة آلاف، فاضطر الثوري للخروج من مكة إلى البصرة، وهناك عمل في حراسة أحد البساتين، ولنا أن نتخيل حجم المعاناة النفسية التي تعرض لها إمام العصر، وهو يستخفي من الناس، ويفر من مكان لآخر.

لم يلبث الثوري في البصرة كثيرًا حتى عرفه الناس، وهموا به؛ فخرج منها إلى بلاد اليمن، وهناك تعرض الإمام لمحنة أشد وأنكى؛ إذ اتهموه بالسرقة، وكان غير معروف في تلك البلاد البعيدة، ورفعوه إلى الوالي، وهو الأمير معن بن زائدة، وكان مشهورًا بالدهاء والمروءة وكرم الأخلاق، فلما تكلم معه قال له: ما اسمك؟ قال سفيان: عبدالله بن عبدالرحمن، فقال معن: نشدتك الله لما انتسبت، قال الثوري: أنا سفيان بن سعيد بن مسروق، قال الأمير معن: الثوري؟ قال: نعم الثوري. قال معن: أنت بغية أمير المؤمنين، قلت: أجل، فأطرق ساعة، ثم قال: ماشئت فأقم، ومتى شئت فارحل؛ فوالله لو كنت تحت قدمي ما رفعتها.

طالت غربة الثوري وتشريده في البلاد أيام الخليفة المنصور، وهو يتنقل من مكان لآخر: تارة بالعراق، وأخرى بالحجاز، وثالثة باليمن، ثم قرر الثوري في النهاية أن يذهب إلى مكة حاجًا وعائدًا، وكان المنصور قد عزم على الحج في نفس السنة ١٥٨هـ، وقد وصلت إليه الأخبار أن الثوري بمكة؛ فأرسل إلى واليها يطلب منه القبض على الثوري وصلبه، وبالفعل نصبوا الخشب، وأخذوا

في البحث عن الثوري لصلبه، فلما علم الثوري قام وتعلق بأستار الكعبة، وأقسم على الله عز وجل ألا يدخل المنصور مكة، وبالغ في الدعاء والقسم، وبالفعل وقعت كرامة باهرة للثوري؛ إذ مرض المنصور بقدرة الله عز وجل، ومات قبل أن يدخل مكة.

وكان السر وراء رفض الثوري للمنصب، وإيثاره للفرار، والتشرد في البلاد، أنه كان لا يصبر على أي منكر يراه، وكان يقول عن نفسه: إذا رأيت منكرًا ولم أتكلم بُلْتُ دمًا من شدة الكمد، وهو يعلم أنه سيرى كثيرًا من المنكرات، ولا يستطيع أن يتكلم؛ لذلك فضل الفرار والخوف والتشرد على أن يسكت على المنكر والباطل.

محنته مع الخليفة المهدي:

ظن الإمام الثوري أن محنته قد انتهت بوفاة الخليفة المنصور، فعاد إلى بلده الكوفة، وبرز للناس، وأخذ في التحديث والتدريس كما هي العادة، ولكنه فوجئ بالخليفة الجديد: وهو محمد المهدي بن الخليفة المنصور يستدعيه على وجه السرعة، فلما دخل عليه دار هذا الحوار العجيب:

قال الخليفة المهدي: يا أبا عبد الله، هذا خاتمي، فاعمل في هذه الأمة بالكتاب والسنة.

قال الإمام الثوري: تأذن لي في الكلام يا أمير المؤمنين على أني آمن، قال المهدي: نعم، قال الثوري: لا تبعث إلَيَّ حتى آتيك، ولا تعطني حتى أسألك.

فغضب المهدي، وهمَّ أن يقع به، فقال له كاتبه: أليس قد أمنته؟ قال المهدي:

نعم، ولكن اكتب إليه العهد بالقضاء، فكتبه وأعطاه للثوري رغمًا عنه.

خرج الثوري من عند الخليفة المهدي ومعه عهد القضاء مختوم بخاتم الخليفة نفسه؛ فلما مر على نهر دجلة رمى العهد في النهر، وكان معه أصحابه فنهوه، ونصحوه بقبول القضاء، والعمل بالكتاب والسنة، فسفه قولهم، واستصغر عقولهم، ثم خرج هاربًا إلى البصرة، واستخفى عند المحدث يحي بن سعيد القطان، فلما عرف المحدَّثون أخذوا في التوافد إلى بيت يحي القطان حتى انكشف أمره، فخرج من البصرة إلى الكوفة، واختبأ في دار عبد الرحمن بن مهدي.

اشتد الخليفة في طلب الإمام الثوري، ووضع على رأسه جائزة مالية قدرها مائة ألف درهم، خاصة بعد أن عرف أن الثوري قد ألقى كتاب عهده في النهر، وظل الثوري يفر من بلد لآخر، وجنود الخليفة من ورائه، لا يقدرون على الإمساك به، وقضى الإمام العامين الأخيرين من حياته شريدًا طريدًا خائفًا، ومع ذلك لم يفكر للحظة واحدة أن يقبل المنصب، وسبحان الله: الإمام العلامة، الذي هو أجدر الناس بالمنصب يفر منه، ويحتمل هذه المحن والابتلاءات، وآخرون لا يزن الواحد منهم عند الله عز وجل، ولا عند الناس جناح بعوضة من علم يلهثون وراء أدنى المناصب بكل سبيل.

ظل الثوري في محنته حتى جاءه الفرج من عند رب السماء، وأنهى الله عز وجل محنته وآلامه وأحزانه، وأكرمه أعظم كرامة بأن توفاه إلى حضرته العلية قبل أن ينال منه من شردوه، وآذوه، والعجيب أن الثوري قد كتب إلى الخليفة

المهدي يقول: طردتني وشرَّدتني وخوفتني، والله بيني وبينك، وأرجو أن يخير الله لي قبل مرجوع الكتاب، فرجع الكتاب وقد مات الإمام، وانتهت محنته.[1]

محنة الإمام مالك بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ

بين يدي المحنة:

محنة الإمام مالك - وإن كانت تختلف في فصولها عن محنة الإمام البخاري، إلا أنها أيضا محنة قديمة جديدة، وما زالت تقع كل عصر وجيل، ولكن بأسماء ومواقف مختلفة، فمحنة الإمام مالك تتعلق بالدور المنوط لعلماء الأمة في بيان الحق، وتعليم العلم، وإرشاد الناس، خاصة وقت النوازل، والصبر على المكاره، واحتمال المشاق والصعاب من أجل إظهار العلم وعدم كتمانه في ظل تهديدات السلطة الحاكمة، وطلبها الدائم بكتمان هذا العلم الذي قد يمثل إحراجًا وضغطًا على هذه السلطة، كما أن للحسد والحقد دور بارز في أحداث المحنة التي تعرض لها الإمام مالك رحمه الله، وهذه هي أحداث وفصول هذه المحنة الأليمة.

نشأة الإمام مالك ومكانته:

---

(١)المصادر والمراجع: طبقات ابن سعد: (٣٧١/٦)، تاريخ خليفة: (٣١٩)، تاريخ الرسل والملوك: (٥٨/٨)، حلية الأولياء: (٣٥٦/٦)، تاريخ بغداد: (١٥١/٩)، الكامل في التاريخ: (١٤٣/٥)، البداية والنهاية: (١٤٣/٩)، سير أعلام النبلاء: (٢٢٩/٧)، تذكرة الحفاظ: (٣٨٦/١)، وفيات الأعيان: (٣٨٦/٢٥)، شذرات الذهب: (٢٥٠/٢)، صفة الصفوة: (٨٥/٢).

كان مولد الإمام مالك بالمدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم، وبها نشأ وشب وترعرع، وبين جنباتها شق طريقه نحو حلق العلم والحديث، وجلس لأساطين العلم وقتها، وكان مالك غلامًا عاقلا، حافظًا ثبتًا، ضابطًا متقنًا برًا تقيًا، وقد جلس لابن هرمز عالم المدينة سبع سنين كاملة تأثر خلالها مالك بأستاذه ابن هرمز كل التأثر، ثم جلس لربيعة الرأي، ونافع مولى ابن عمر، وحمل عنه ثمانين حديثًا، وعرفت روايته عنه - مالك عن نافع عن ابن عمر - بالسلسلة الذهبية، ودار مالك على علماء زمانه، وسمع منهم، وما زال مالك يرتقي في سلم العلم حتى درج إلى عليائه، وصار إمام دار الهجرة، وعلمها المقدم، تضرب إليه أكباد الإبل من أقصى الأرض لسماع علمه، ونقل فتاويه ومسائله وآراءه، وهو الذي كانت تأتيه طلاب العلم من كل مكان، وهو في المدينة لا يخرج منها، بل حاول عدة خلفاء من بني العباس: كالمهدي والرشيد إقناعه بالإقامة في بغداد، وهو يأبى عليهم، ولا يرى غير المدينة قصرًا ومقرًا.

وقد أثنى عليه كبار الأئمة: مثل الشافعي الذي كان يصف الإمام مالك بالنجم الثاقب، وقال عنه: لم يبلغ أحد مبلغ مالك في العلم: لحفظه، وإتقانه، وصيانته، وقد جعلت مالكًا حجة بيني وبين الله عز وجل.

وقال عنه أحمد بن حنبل: القلب يسكن إلى حديثه، وإلى فتواه، حقيق أن يسكن إليه، مالك عندنا حجة لأنه شديد الاتباع للآثار التي تصح عنده.

وقال عنه الليث بن سعد: والله ما على وجه الأرض أحب إليَّ من مالك، وعلم

مالك علم نقي، ومالك أمان لمن أخذ به من الأنام.

وكان للإمام مالك منزلة رهيبة عند الناس تعدل، بل تفوق منزلة الخلفاء والأمراء والولاة، وكان مجلس درسه تحدوه السكينة والوقار والمهابة، لا يجرؤ فيه أحد على لغو أو لغط، وإذا سأل سائل فأجابه لم يسأل عن الدليل، ولا يطالب ببرهان، ولا يملك أحد أن يراجعه في جواب، حتى دخل على مجلسه يومًا أحد طلاب العلم الوافدين لسماع حديثه؛ فوجد مجلسًا عامرًا بالهيبة والسكينة، يعلوه الوقار فأنشد قائلا:

يدع الجواب فلا يراجع هيبة   والسائلون نواكس الأذقانِ
أدب الوقار وعزُّ سلطان التقى   فهو المطاعُ وليس ذا سلطانِ!

محنة الإمام مالك:

ولد مالك سنة ٩٣، ومات سنة ١٧٩هـ: أي أنه أدرك بهذا العمر الطويل المبارك الدولتين الإسلاميتين: الأموية والعباسية، والتي كانت كل واحدة منهما تحكم باسم الخلافة، بينما الواقع أن كليهما كان مُلكًا عضوضًا، يتوارثه الأبناء عن الآباء، ويعضون عليه بالنواجذ، وهذه الطريقة في الحكم كان لها كثير من المعارضين والمخالفين، بعضهم بلسانه وقلمه، والآخر بسيفه وترسه، وهذه المعارضة الأخيرة - يعني المسلحة - أخذت تتنامى شيئًا فشيئًا حتى قامت المعارضة العباسية بقلب الدولة الأموية، وإقامة دولتها مكانها؛ وذلك بعد ويلات وأهوال وشدائد ودماء مئات الآلاف التي تخضبت بها أرض خراسان والعراق والشام، وإن بقيت الحجاز بمنأى عن هذه الأحداث الملتهبة؛ فهي

مستكينة، وتبع لمن غلب منذ أحداث الحرة الأليمة سنة ٦١هـ، هذه الأحداث المتلاحقة جعلت العباسيون يشتدون مع معارضيهم، حتى أنسوا الناس معنى العفو والصفح، فأدنى محاولة للخروج، أو التلويح به، أو حتى مجرد التلميح بالقول أو الفعل كان بنو العباس يقمعونها بمنتهى الشدة، ويأخذون البريء بالمذنب، والقاعد بالساعي، والبعيد بالقريب.

وبسبب هذه المضار والمفاسد العظيمة المترتبة على الخروج على الحكام لم ير مالك الخروج عليهم، وإن كانوا ظالمين وجائرين، هو مع ذلك لم يكن مداهنًا لخليفة ولا أمير، أو يكتم العلم من أجلهم، بل يلتزم معهم الحياد، فهو وإن كان يلزم الجماعة والطاعة، لا يرى أن سياسة السلطان في عصره هي الحق الصراح الذي يتفق مع أحكام الإسلام، وهدى القرآن، بل يرضى بالطاعة لأن فيها إصلاحًا نسبيًا؛ فكانت طريقته في الإصلاح حسب ما ارتآه ألا يناصر أحدًا عند الفتن، ورغم ذلك، ورغم كره الإمام مالك للثورات والتحريض عليها إلا إنه لم يسلم من آذاها.

فبعد أن ارتفعت مكانة ومنزلة الإمام مالك عند الخاصة والعامة، حتى جلس الخلفاء بين يديه، وقرأ الأمراء له، وأخذ الخلفاء بمشورته، وصدع الناس لما أمرهم به حسده على ذلك بعض أهل العلم ممن يؤثرون الدنيا، ويسعون إليها، ووشوا به عند أمير المدينة جعفر بن سليمان في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور؛ وذلك سنة ١٤٧هـ، وكانت التهمة: أن مالكًا لا يرى أيمان البيعة للخلافة هذه بشيء.

ولكن هل قال مالك ذلك حقًّا؟

إن الذي أفتى به الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يمين المكره لا تلزمه، وذلك عملا بالحديث الموقوف على ابن عباس: ليس لمكره، ولا لمضطهد طلاق؛ وهو صحيح عن ابن عباس، ولا يصح رفعه، وقد علقه البخاري في كتاب الطلاق، وفي رواية أخرى عن ابن عباس: ليس على مستكره طلاق، ولم يكن سبب المحنة هو التحديث بهذا الحديث وحده، ولكن التحديث به وقت الفتن، واستخدام الثائرين لذلك الحديث، ولمكانة الإمام مالك العلمية تحريضًا الناس على الخروج على الخليفة؛ فلما بلغ الأمر السلطة الحاكمة أمر أبو جعفر المنصور الإمام مالكًا ألا يحدث الناس بهذا الحديث، وبهذه الفتوى، ونهاه عن ذلك بشدة، فلم يستجب مالك -رحمه الله- لهذه الضغوط، ولم يسكت؛ فقد كان يرى في السكون عنه كتمانًا للعلم الذي استودعه إياه الله عز وجل، وقد نهى الله عز وجل ورسوله الكريم ﷺ عن كتمان العلم، وتوعدا فاعله بالنار.

ولعلم أبي جعفر المنصور أن الإمام مالك لن يسكت عن نشر العلم أمر واليه على المدينة: جعفرًا بن سليمان أن يدس على مالك من يسأله عن هذا الحديث على رؤوس الناس، وبالفعل أجاب مالك على المسألة، وروى حديث ابن عباس، وعندها أرسل جعفر بن سليمان من قبض على الإمام مالك، واحتج عليه بما رفع إليه عنه، فلم ينكر الإمام، ولم يخش في الله عز وجل لومة لائم، فأمر جعفر بتجريده من ملابسه، وضربه بالسياط، وجذبت يده حتى انخلعت من كتفه، وعذبه عذابًا شديدًا، وأهانه، وتعمد إسقاط هيبته ومنزلته بكل

هذه الإساءات، ولكن الله عز وجل قد رفع قدر مالك بعد هذه المحنة، وازداد رفعة بين العالمين، وهذه ثمرة المحنة المحمودة؛ فإنها ترفع صاحبها عند المؤمنين.

عندما علم أهل المدينة بما جرى للإمام مالك اشتد سخطهم على الوالي، وتطاولوا عليه، بل وعلى الخليفة نفسه، خاصة وأن مالكًا قد أصيب في هذه المحنة بعجز كبير في ذراعه: بحيث لم يقدر بعدها على رفعها إلا بمساعدة ذراعه الأخرى، وقد جلس في بيته، وشعر الخليفة أبو جعفر المنصور بمرارة ما فعل؛ فأرسل إلى الإمام مالك يعتذر إليه، ويتنصل مما فعله واليه، ولما جاء أبوجعفر إلى الحجاز حاجًا أرسل إلى مالك، واجتمع معه، وبالغ له في الاعتذار؛ وذلك كله لتطييب خاطر العامة أولا، ثم الإمام ثانيًا، وإلا فجميع ما وقع بعلمه وبأمره. والله أعلم.

في هذه المحنة اختلفت النظرة إلى الحديث بين الإمام مالك العالم التقي الرباني، قدوة الناس وفقيههم، ومرشدهم عند النوازل والحاجات، والذي يمثل طبقة العلماء، وبين الحكام الذين يمثلون طبقة أولى الأمر، التي لها حق السمع والطاعة، فرأى مالك في إذاعة الحديث نشرًا للعلم، وتبصيرًا للناس، فلم يكتمه إرضاء للحكام، ولا لأي سبب مهما كان.

ورأى الحكام في إذاعته تحريضًا على الفتنة والثورة؛ لأن فيه بيانًا ببطلان بيعة الخليفة، وصادف ذلك خروج محمد بن عبد الله بن حسن العلوي الملقب بالنفس الزكية على المنصور، ومطالبته بالخلافة لنفسه، وكان في المدينة، وذلك



سنة ١٤٦هـ.

ومهما يكن من مبررات الخليفة، والتي ساقها من أجل منع الإمام من التحديث يبقى ثبات الإمام مالك، وجهره بالحق، وصبره على الضرب والتجريد والإهانة علامة فارقة في حياة الإمام؛ إذ ضرب لعلماء الأمة كلهم مثالا يحتذى به في الصبر والثبات نسج على منواله الأئمة من بعده: مثل الشافعي، وأحمد بن حنبل، والبخاري، ممن ابتلوا في ذات الله، وصبروا على الحق، وجهروا بالعلم، ورفعهم الله عز وجل بذلك لأعلى الدرجات بين العالمين.[١]

محنة الحافظ الواعظ أبي الفرج بن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ

بين يدي المحنة:

طريق العلماء الربانيين مليء بالابتلاءات والمحن، وهم يعرفون ذلك جيدًا، ولكن بعض البلايا والمحن تكون أشد وقعًا وأثرًا من غيرها، فمثلا إذا كانت المحنة من أقارب العالم وأهله فهي أشد وقعًا من غيرها، وإذا كانت المحنة عند تقدم السن، واشتعال الرأس فهي أشد وقعًا من غيرها، وإذا كانت المحنة ستشرد صاحبها وتنفيه وحيدًا عن أهله وبلده فهي أشد وقعًا من غيرها،

(١)المراجع: سير أعلام النبلاء: (٤٨/٨)، البداية والنهاية: (١٨٨/١٠)، الكامل في التاريخ: (٣٠٦/٥)، تذكرة الحفاظ: (٢٠٧/١)، الديباج المذهب: (٥٥/١)، النجوم الزاهرة: (٩٧/٢)، شذرات الذهب: (١٢/٢)، وفيات الأعيان: (١٣٥/٤)، صفة الصفوة: (٣٩٦/١)، الإمام مالك بن أنس: لعبد الغني الذقر، تراجم أعلام السلف: (٢٢٣)، الإمام مالك: حياته وآراءه وفقهه - الدكتور/محمود عبد المتجلي

وإذا كانت المحنة ستنقل صاحبها من المكانة والشهرة والإمامة إلى الهجر والنسيان والإهانة فهي أشد وقعًا من غيرها، وأما إذا اجتمعت كل هذه الشروط والعناصر في المحنة والبلية، ثم يروضها صاحبها، ويستفيد منها، ويحولها إلى منحة عظيمة؛ فهذا أمر جدير بالكتابة، والاستفادة منه.

التعريف به:

هو الشيخ العلامة، الحافظ المفسر، شيخ صناعة الوعظ، درة المجالس، وجامع الفنون، وصاحب التصانيف الكثيرة، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله بن الجوزي، ينتهي نسبه إلى أمير المؤمنين، وخليفة رسول ﷺ أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولد ابن الجوزي سنة ٥١٠هـ ببغداد، ومات أبوه وله ثلاثة أعوام، فتولت عمته تربيته لزواج أمه، فنشأ ابن الجوزي يتيمًا: يتنقل بين أقاربه الذين كانوا يعملون في تجارة معدن النحاس، فلما أنست منه عمته عزوفًا عن اللهو والتجارة دفعت به إلى طريق العلم، فلزم مسجد محمد بن ناصر الحافظ، وجلس لسماع الدروس والحديث، ثم لزم حلقة الشيخ ابن الزغواني شيخ حنابلة العراق، فظهر نجمه، وتقدم على أقرانه، وكان وهو صبي دينًا مجموعًا على نفسه لا يخالط أحدًا، ولا يجاري أترابه في لهوهم ولعبهم.

كان ابن الجوزي طموحًا، فيه بهاء وترفع في نفسه، دفعه لأن يطلب الجلوس مكان شيخه الزاغوني بعد وفاته، وكان وقتها شابًا دون العشرين، فأنكروا عليه ذلك؛ فاشتغل بالوعظ، وكان فنًّا رائجًا، وبضاعة نافقة في تلك الأيام،

وبغداد زاخرة بالوعاظ: الكبار منهم والصغار؛ فبذ الجميع، وتفرد بفن الوعظ، الذي لم يُسْبَقْ إليه، ولا يلحق شأوه فيه وفي طريقته وشكله، وفي فصاحته وبلاغته وعذوبته، وجمال عباراته، وروائع تشبيهاته، وغوصه في المعاني البديعة، وتقريبه الأشياء الغريبة فيما يشاهد من الأمور الحسية، بأيسر وأوجز عبارة، حتى صار إمام صناعة الوعظ والتذكير، ومفخرة بغداد بلا نظير، وتهافت الناس على حضور مجالسه، وحضرها الخلفاء والوزراء، والكبراء والأمراء، والعلماء، والأغنياء والفقراء، كل على حد السواء، حتى عد عشرات الألوف من الناس في المجلس الواحد من مجالسه، وله العبارات المأثورة، والكلمات المؤثرة المشهورة.

ورغم تفرده وإمامته لفن الوعظ إلا أن له مشاركات كثيرة في فنون شتى، وله اليد الطولى في فن التفسير والتاريخ والفقه، ودون ذلك في الحديث والحساب والفلك والطب، وله في كل فن عدة مصنفات، حتى صار رأس علماء العراق في زمانه، وهذا التقدم والرياسة والاحتشام والسؤدد، جلب عليه كثيرًا من الحساد وعداوة الخصوم والأقران، وأتباع المذاهب الأخرى، وكان له دور ظاهر في تأجيج تلك العداوات بحدة لسانه، وهجومه اللاذع على الصوفية والفقراء، وبعض معاصريه.

ثناء الناس عليه:

لم يكن ابن الجوزي مثل غيره من كبار علماء الأمة، الذين كانوا كلمة إجماع بين الناس، ولم يخض في حقهم أحد، ذلك أن لابن الجوزي عداوات كثيرة،

وخصومات عديدة أزكاها بحدة لسانه، وقوة نقده، وجهره بآرائه، واعتزازه الشديد بنفسه، ولكن لا يقلل ذلك كله من تقدير الناس لعلمه وإمامته، وتبحره في فنون شتى، وهذه طائفة من أقوال الناس عنه، وثنائهم عليه:

قال الإمام الذهبي: كان رأسًا في التذكير بلا مدافعة، يقول النظم الرائق، والنثر الفائق بديهًا، ويسهب، ويعجب، ويطرب، ويطنب، لم يأت قبله ولا بعده مثله؛ فهو حامل لواء الوعظ، والقيِّم بفنونه، مع الشكل الحسن، والصوت الطيب، والوقع في النفوس، وحسن السيرة، وكان بحرًا في التفسير، علامة في السير والتاريخ، موصوفًا بحسن الحديث، ومعرفة فنونه، فقيهًا، عليمًا بالإجماع والاختلاف، جيد المشاركة في الطب، ذا تفنن وفهم وذكاء، وحفظ واستحضار.

وقال أبو عبد الله الدبيثي في تاريخه: شيخنا جمال الدين صاحب التصانيف في فنون العلوم: من التفسير والفقه والحديث والتواريخ وغير ذلك، وإليه انتهت معرفة الحديث وعلومه، والوقوف على صحيحه من سقيمه، وكان من أحسن الناس كلامًا، وأتمهم نظامًا، وأعذبهم لسانًا، وأجودهم بيانًا، وبورك له في عمره وعمله.

وقال الموفق عبد اللطيف المقدسي: كان ابن الجوزي لطيف الصورة، حلو الشمائل، رخيم النغمة، موزون الحركات والنغمات، لذيذ المفاكهة، يحضر مجلسه مائة ألف أو يزيدون، لا يضيع من زمانه شيئًا، يكتب في اليوم أربع كراريس، وله في كل علم مشاركة، لكنه كان في التفسير من الأعيان، وفي الحديث من الحفاظ، وفي التاريخ من المتوسعين، ولديه فقه كاف، وأما السجع

الوعظي فله فيه ملكة قوية.

وقال الإمام ابن قدامة المقدسي: ابن الجوزي إمام أهل عصره في الوعظ، وصنف في فنون العلم تصانيف حسنة، وكان صاحب فنون، كان يصنف في الفقه، ويدرس وكان حافظًا للحديث، إلا أننا لم نرض تصانيفه في السنة، ذلك أن ابن الجوزي قد خالف الحنابلة في الكثير من مسائل الاعتقاد، حتى جلب على نفسه كثيرًا من المشاكل.

محنته:

رغم أن المحنة التي تعرض لها الإمام ابن الجوزي كانت في آخر عمره، إلا أن أسباب تلك المحنة كانت قديمة، وبعيدة الجذور، وذلك لأمرين: أولهما متعلق بالأجواء السائدة في بغداد خلال القرن السادس الهجري، وثانيهما متعلق بطبيعة شخصية ابن الجوزي، والتي أورثته خصومة وعداوة الكثيرين.

فبغداد ومنذ سيطرة الدولة السلجوقية على مقدرات الخلافة العباسية، وظهور شخصية الوزير الشهير نظام الملك، أخذ أتباع المذهب الشافعي، والعقيدة الأشعرية في الظهور والتحكم في الساحة العلمية لبغداد عاصمة الخلافة، والسيطرة على حلق العلم والمدارس الفقهية، ومحاريب الجوامع، وكانت تلك المكانة من قبل بيد أتباع المذهب الحنبلي، والعقيدة السلفية، فلما ظهر الشافعية استطالوا بشدة على الحنابلة، وضيقوا عليهم في المجالس والمدارس، ودخلوا معهم في مهاترات حامية بسبب العقائد، وشنعوا عليهم، وظل الأمر على ما هو عليه فترة طويلة، حتى ظهرت شخصية الإمام ابن الجوزي، الذي

استطاع أن يستقطب الناس إلى مجالس وعظه، ويبهرهم بفريد عباراته، وفائق تذكيراته، فحضر مجالسه عشرات الآلاف من الكبار والصغار، والرجال والنساء، وحضرها الخليفة العباسي نفسه، والسلطان السلجوقي، والوزراء والأمراء والكبراء، والأغنياء والفقراء، حتى كان يحضرها الشيعة الذين بهرهم رائع بيانه، خاصة وابن الجوزي كان ممن يداري ويهادن، ولا يخوض في الخلافيات، وبالجملة أصبح ابن الجوزي حديث الناس، وأشهر علماء بغداد والعراق، وقد أدى ذلك لارتفاع مكانة الحنابلة، وإقبال الناس على شيوخ المذهب، وذلك الأمر أغاظ أتباع باقي المذاهب عامة، والشافعية خاصة.

وفي سنة ٥٥٠ هـ استوزر الخليفة العباسي المقتفي بالله الوزير عون الدين بن هبيرة، وكان من خيار الوزراء، وأفاضل العلماء، وكان حنبليًّا سلفيًّا، وقد اجتهد ذلك الوزير الصالح في إقامة الدولة العباسية، واستعادة هيبة الخلافة، وحسم مادة ملوك السلاجقة، وكان ذلك الوزير مصاحبًا لابن الجوزي قبل ذلك، فلما صار في الوزارة قرب ابن الجوزي واصطفاه لمجالسه ومشورته، وارتفعت مكانة ابن الجوزي أكثر مما قبل، وكذلك الحنابلة، وقد استمر ذلك الوزير في منصبه خلافة المقتفي، ثم ولده المستنجد، وكان له كثير من الخصوم لصلاحه، وكفاءته في الإدارة، والإخلاص للدولة العباسية، ومن كان خصمًا لابن هبيرة كان خصمًا لابن الجوزي معه للصداقة التي بينهما، وقد قتل ذلك الوزير الصالح بالسم سنة ٥٦٠هـ، ولم يُعلم قاتله، وبموته أخذ أعداء ابن الجوزي في التربص به، والكيد له.

هذا الشق كان فيما يتعلق بالأمر الأول، والمتعلق بأحوال الخلافة والأجواء السائدة في بغداد، أما فيما يتعلق بالأمر الثاني؛ وهو طبيعية شخصية ابن الجوزي نفسه، فإن ابن الجوزي كان مفخرة العراق في وقته، ودرة بغداد في زمانه، شهرته طغت على علماء الوقت، فحسدوه، وغاروا من إقبال الناس عليه، وقابل ذلك هو بمزيد من الاعتداد بالنفس، والاعتزاز بالقدر، كما أنه كان شديدًا في نقده، حادًا في ملاحظاته، لاذعًا في تعليقاته، خاصة على الوعاظ والعلماء من الشافعية والأحناف، لا يبالي بمكانة وقدر من ينتقد ويجرح، حتى خرج بنقده إلى نوع من التحامل والتعصب، وهي أمور كلها قد أورثته عداوة وخصومة الكثيرين، حتى من أصحابه الحنابلة، الذين غضبوا من انتقاده للشيخ الرباني عبد القادر الجيلاني، وكان رأس الوعاظ في العراق قبل ظهور ابن الجوزي، وفي نفس الوقت شيخ الحنابلة بالعراق.

محنة آخر العمر:

ظل ابن الجوزي على مكانته ومنزلته حتى تولى الخلافة الناصر لدين الله العباسي سنة ٥٧٥هـ، وكان يخالف سيرة آبائه وأجداده، فقد كان أول وآخر خليفة عباسي يتشيع، ويتظاهر بذلك، ويجهر به، وقد عمل على تقريب الشيعة، فاستخدمهم في أعماله وشئونه، وبالطبع أخذت الأضواء تنحسر عن رجال أهل السنة وعلمائهم، ومنهم ابن الجوزي؛ فاستغل خصوم الرجل ذلك الأمر، وخططوا للإيقاع به.

كان ألد أعداء الشيخ ابن الجوزي رجل اسمه الركن عبد السلام بن

عبدالوهاب، وهو حفيد الشيخ عبد القادر الجيلاني، وكان أبناء الشيخ عبدالقادر وأحفاده يبغضون ابن الجوزي بشدة بسبب رأيه في الشيخ عبدالقادر، وانتقاده الدائم له، وكان الركن عبد السلام ذلك أشدهم كراهية لابن الجوزي، ولكن لسبب آخر؛ وهو أنه كان رجلا رديء المعتقد على مذهب الفلاسفة، شروًبا للخمر، فأفتى ابن الجوزي بحرق كتبه؛ فأحرقت ومنعت، ثم أخذت منه مدرسة جدهم الشيخ عبد القادر الجيلاني، وأعطيت لابن الجوزي، فاغتم الركن لذلك، وقرر الإيقاع بالشيخ ابن الجوزي.

العجيب أن الذي تآمر مع الركن عبد السلام في مؤامرته ضد ابن الجوزي هو أقرب الناس لابن الجوزي، ولده الكبير أبو القاسم علي، وكان ماجنًا فاسقًا نديم الركن في مجالس الخمر والفجور، وكان عاقًا لأبيه، وقد هجره أبوه وإخوته لسوء أخلاقه وأفعاله؛ فتآمر أبو القاسم عليّ مع الركن عبد السلام للنيل من الشيخ ابن الجوزي.

تولى الوزارة في تلك الفترة رجل شيعي اسمه ابن القصاب، وكان صديقًا للركن عبد السلام للموافقة في الاعتقاد، فسعى عنده للإيقاع بالشيخ عند الخليفة الناصر العباسي، فقال الوزير الرافضي للخليفة العباسي: أين أنت من ابن الجوزي الناصبي؟ وهو أيضًا من أولاد أبي بكر الصديق، ثم ما زال بالخليفة حتى غير قلبه على ابن الجوزي، وفوض الأمر إليه في التصرف معه، وذلك سنة ٥٩٠هـ، وكان ابن الجوزي وقتها في الثمانين من العمر؛ ففوض الوزير ابن القصاب الركن عبد السلام في التصرف مع الشيخ ابن الجوزي؛ فذهب إلى

داره بنفسه، ومعه الكثير من الحراس، وأبناء الشيخ عبد القادر؛ فشتموه وأهانوه، وجذبوه بشدة من بين عياله، وكان عليه ملابس خفيفة بلا سراويل، وختموا على داره، ووضعوه في سفينة صغيرة، ونفوه إلى مدينة واسط، وهناك حبسوه في بيت ضيق بلا أحد يخدمه، وكان شيخًا مسنًا قد جاوز الثمانين، فبقي وحده يطبخ لنفسه، ويغسل ثيابه لنفسه، ممنوع عليه الاجتماع مع الناس، أو الجلوس للوعظ كما هي عادته، ولاقى ضروبًا من المحن والهم والتعب طيلة خمس سنوات في النفي.

لم يكتف الركن عبد السلام بما فعله مع الشيخ ابن الجوزي من الإهانة والنفي والتشريد، والسجن الانفرادي، بل حاول التوصل إلى والي مدينة واسط، وكان شيعيًا أيضًا ليقتل ابن الجوزي، فقال الوالي للركن: يا زنديق، أفعل هذا بمجرد قولك؟ هات خط أمير المؤمنين، والله لو كان على مذهبي لبذلت روحي في خدمته، فخاب سعي الركن، وفشلت خطته، ولكن لم يمنع ذلك من التضييق على ابن الجوزي وحبسه.

تلك المحنة الكبيرة التي نزلت بالشيخ ابن الجوزي وهو في أواخر عمره، وبعد أن جاوز الثمانين قد زاد من ألمها جناية ولده أبي القاسم عليٍّ على تراث أبيه العلمي، ونتاجه التأليفي، إذ تسلط ذلك الولد العاق الفاسق على كتب أبيه، وكانت مئات المجلدات في شتي الفنون، وباعها بالأحمال، وشرب بثمنها الخمر، وتجاهر بذلك الفحش والخسة، والأب يعاني في غربته ووحدته مرارة ذلك الجحود والنكران.

ظل الشيخ ابن الجوزي في محنته بين النفي والسجن والإهمال والإهانة خمس سنوات كاملة كانت كفيلة بتحطيم عزيمة أي رجل قوي، وليس شيخًا طاعنًا في السن، ولكن الشيخ العلامة ابن الجوزي، الذي طالما وعظ الناس، وذكرهم وصبرهم، ورغبهم ورهبهم، حول محنته إلى محنة عظيمة، وروض تلك المحنة الأليمة، فاستغل تلك السنوات الخمس في قراءة كتب الحديث، والتلاوة بالعشر قراءات للقرآن على يد الشيخ ابن الباقلاني، وأبدى همة عالية في ذلك، حتى أتم حفظ القراءات العشر وهو في الرابعة والثمانين من العمر.

وفي سنة ٥٩٥هـ أذن له الله عز وجل في رفع المحنة، وفك الكربة، وذلك بشفاعة أم الخليفة الناصر العباسي، وعاد ابن الجوزي من منفاه في واسط إلى بغداد، وأذن له في الوعظ كما كان، وعاد إلى مكانته وعزه وسؤدده، وحضر الخليفة العباسي بنفسه أول مجالس وعظه، وكانت كلمات ابن الجوزي مؤثرة، ملهبة، وقد خرجت من قلب احترق بالمحن، حتى خرج نقيًا من كل شائبة، وبعد ذلك بقليل مرض ابن الجوزي، ثم مات في منتصف شهر رمضان سنة ٥٩٧هـ فرحمة الله عليه، وتجاوز عنه، وغفر له ما خاض فيه من تأويل، وغير ذلك.[(١)]

---

(١)المصادر والمراجع: سير أعلام النبلاء: (٣٦٥/٢١)، البداية والنهاية: (٣٥/١٣)، الكامل في التاريخ: (٢٧٦/١٠)، وفيات الأعيان: (١٤٠/٣)، تذكرة الحفاظ: (١٣٤٢/٤)، ذيل طبقات الحنابلة: (٣٩٩/١)، تراجم أعلام السلف: (٥٩٧)، شذرات الذهب: (٣٢٩/٢)، النجوم الزاهرة: (١٧٤/٦).

محنة الإمام وكيع بن الجراح رَحِمَهُ ٱللَّهُ

بين يدي المحنة:

من الأصول الثابتة عند أهل العلم عامة، وأئمتهم وكبارهم خاصة، أنهم لا يحدِّثون الناس إلا بقدر ما تفهم عقولهم، وتستوعب مداركهم، لأنهم إذا تجاوزوا هذا الأصل، وعمدوا إلى تحديث الناس بقدر أكبر من عقولهم ومداركهم كان ذلك سببًا مفضيًا لضلال بعضهم، فيكون بعض العلم والعلماء سببًا - من حيث لا يشعرون - إلى فتنة الناس، وعمدة هذا الأصل في الشرع حديث النبي ﷺ الذي رواه عنه معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في حق الله على العباد، وحق العباد على الله، والذي قال فيه النبي ﷺ: «حَقُّ العِبَادِ على الله ألا يُعَذِّبُهُمْ إذا لَمْ يُشْرِكُوا بهِ شَيْئًا»، فقال معاذ: ألا أبشر الناس، فقال الرسول ﷺ: «لا حَتَّى يَتَّكِلُوا»، وهذا من كمال حكمته ﷺ، وخبرته بالناس أنهم إذا سمعوا هذه البشارة ربما اتكل بعضهم عليها، وترك العمل، ولم يخبر معاذ بهذا الحديث أحدًا قط إلا في مرض موته، إنما قاله خوفًا من إثم كتم العلم، وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: حدثوا الناس بما يعرفون، ودعوا ما ينكرون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟! وقد أخرجه البخاري تحت باب من خص بالعلم قومًا دون قوم كراهية ألا يفهموا، وقال عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: ما أنت محدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم، أخرجه مسلم في مقدمة كتابه، والعالم - خاصة إذا كان إمامًا متبوعًا - إذا خالف هذا الأصل ولم يلتزم ربما تسبب في الكثير من الفتن والمحن، ولربما

كانت المحن من نصيبه هو، فيكتوي بنارها، ويشنع عليه بسببها، وهو ما جرى بالضبط لصاحبنا.

التعريف به:

هو الإمام المحدث، بحر العلم، وإمام الحفظ والسرد، العالم الجوال، والعابد المجتهد، راهب العراق، وزاهد المصرين [البصرة - الكوفة]، وكيع بن الجراح الرؤاسي الكوفي، محدث العراق، وأحد أئمة الأثر المشهورين، وأستاذ الأئمة: الشافعي، وأحمد بن حنبل، وغيرهم، ولد سنة ١٢٩هـ في بيت علم ورياسة واحتشام، وأبوه كان من أعيان الكوفة وزعمائها، وكان ممن يتعانى حديث النبي ﷺ، فوجه ولده وكيعًا لطلب العلم، وسماع الحديث منذ صباه، فسمع من الأعمش، وهشام بن عروة، والأوزاعي وابن جريج، وغيرهم، ثم انقطع إلى إمام الوقت، وبركة الزمان سفيان الثوري، فحمل عنه علمه، وسمع منه كل مروياته، حتى لقب براوية الثوري، وطاف البلاد، وسمع من الأكابر، فاجتمع عنده من أسانيد الأحاديث ورواياته المختلفة ما لم يكن لأحد من معاصريه، حتى إن أستاذه الثوري كان يدعوه وهو غلام حَدَثٌ؛ فيقول: يا رؤاسى! تعال، أي شيء سمعت؟ فيقول: حدثني فلان بكذا، وسفيان يبتسم، ويتعجب من حفظه، ويقول: لا يموت هذا الرؤاسي حتى يكون له شأن، حتى إن سفيان نفسه - على جلالة قدره، وعظم مكانته في الأمة - قد روى عنه الحديث، وصدقت فراسة سفيان رحمه الله؛ ذلك أنه لما مات سفيان الثوري سنة ١٦٦هـ جلس وكيع بن الجراح مكانه مجلس تحديثه.

وكان وكيع بن الجراح آية من آيات الله عز وجل في الحفظ والإتقان، فلقد كان مطبوع الحفظ، لا يسمع شيئًا إلا حفظه، ولا يحفظ شيئًا فينساه، أبهر الناس بقوة حفظه، وكان يستعين على ذلك بترك المعاصي، سأله أحد تلاميذه يومًا وهو على خشرم عن دواء يأخذه حتى يقوى حفظه، فقال له: إن علمتك الدواء استعملته؟ قال: إي والله. قال: ترك المعاصي، ما جربت مثله للحفظ.

وعلى الرغم من شهرة وكيع بن الجراح، وإقبال الطلبة عليه، وتصدره لمجلس تحديث الثوري، إلا أنه كان عابدًا زاهدًا، يديم الصوم في السفر والحضر، لا يتركه أبدًا، يختم القرآن في الأسبوع الواحد عدة مرات، مدمنًا لقيام الليل، مشتغلا بالأوراد والأذكار لا يضيع لحظة من وقته هدرًا، يقسم يومه على نفع نفسه والناس، فلقد كان يجلس لأصحاب الحديث بكرة إلى ارتفاع النهار، ثم ينصرف فيقيل، ثم يصلي الظهر، ويقصد الطريق إلى المشرعة حيث يتجمع الناس لسقيا دوابهم، فيعلمهم القرآن والفرائض، وسائر ما يحتاجونه من أمور دينهم إلى حدود العصر، ثم يرجع إلى مسجده فيصلي العصر، ثم يجلس يدرس القرآن، ويذكر الله إلى آخر النهار، ثم يدخل منزله، يتناول إفطاره، وبعد صلاة العشاء يصف قدميه لقيام الليل، ثم ينام ويقوم، وهكذا حتى وقت السحر.

ولقد عرض الرشيد منصب القضاء على وكيع عدة مرات فرفض بشدة، وكان منقبضًا عن السلطان ومجالسه مثل أستاذه الثوري، بل كان مجافيًا حتى لمن يتلبس بشيء من أمور السلطان، فلقد هجر أقرب أصدقائه - وهو حفص بن غياث - لما تولى منصب القضاء، وهكذا شأن العلماء الربانيين في كل زمان

ومكان.

ثناء الناس عليه:

يتبوأ الإمام الكبير وكيع بن الجراح مكانة خاصة ومميزة في طبقات حفاظ الأمة، وثبت أعلامها، وعلى الرغم من أن العصر الذي كان يعيش فيه وكيع بن الجراح زاخر بالكثير من الحفاظ والأئمة الأعلام، إلا أن وكيعًا بن الجراح كان علمهم المقدم، وأوفرهم نصيبًا في الثناء والمدح، وهذه طائفة من أقوالهم:

قال الإمام أحمد بن حنبل: ما رأيت أحدًا أوعى للعلم ولا أحفظ من وكيع، وما رأيت مثل وكيع في العلم والحفظ والإسناد والأبواب، مع خشوع وورع.اهـ

هذا على الرغم من أن الإمام أحمد قد شاهد الكبار: مثل هشيم، وابن عيينة، ويحي القطان، وأمثالهم، ولكن كان أحمد يعظم وكيعًا ويفخمه، وكان أحمد يفضل وكيعًا على ابن مهدي، ويزيد بن هارون.

قال ابن عمار: ما كان بالكوفة في زمان وكيع أفقه ولا أعلم بالحديث من وكيع، وكان جهبذًا، لا ينظر في كتاب قط، بل يملي من حفظه.

قال عبد الرزاق بن همام: رأيت الثوري وابن عيينة ومعمرًا ومالكًا، ورأيت ورأيت، فما رأيت عيناي قط مثل وكيع.

قال يحي بن معين: ما رأيت أفضل من وكيع، فقيل له: ولا ابن المبارك؟ قال: قد كان ابن المبارك له فضل، ولكن ما رأيت أفضل من وكيع، كان يستقبل القبلة، ويحفظ حديثه، ويقوم الليل، ويسرد الصوم.

سئل ابن المبارك: مَنْ رجل الكوفة اليوم؟ فقال: رجل المصرين - يعني الكوفة

والبصرة - وكيعًا بن الجراح.

سئل أبو داود: أيهما أحفظ: وكيع أو عبد الرحمن بن مهدي؟ قال: وكيع أحفظ وعبد الرحمن أتقن، والتقيا بعد العشاء في المسجد الحرام، فتواقفا حتى سمعا أذان الصبح.

قال الحسين بن محمد: كان وكيع يكونون في مجلسه كأنهم في صلاة، فإن انكسر من أمرهم شيئًا انتعل ودخل داره.

قال سلم بن جنادة: جالست وكيعًا سبع سنين، فما رأيته بزق، ولا مس حصاة، ولا جلس مجلسًا فتحرك، وما رأيته إلا مستقبل القبلة، وما رأيته يحلف بالله.

قال مروان بن محمد: ما رأيت فيمن رأيت أخشع من وكيع، وما وصف لي أحد قط إلا رأيته دون الوصف إلا وكيعًا، رأيته فوق ما وُصِفَ لي.

قال إسحاق بن راهويه: حفظي وحفظ ابن المبارك تكلف، وحفظ وكيع أصلي، قال وكيع فاستند، وحدث بسبعمائة حديث حفظًا.

محنته:

المحنة التي تعرض لها وكيع بن الجراح محنة غريبة، تورط فيها بمخالفته من حيث لا يدري للأصل الذي قررناه في مقدمة الكلام، ألا وهو مخاطبة الناس على قدر عقولهم وفهومهم، وإن كان لم يُرِدْ إلا الخير، وأصل هذه المحنة يرجع إلى السنة التي حج فيها وكيع بن الجراح، فلما علم الناس في مكة بمجيئه، وهو حافظ العراق، اجتمعوا عليه، وعقدوا له مجلسًا في الحديث، فأخذ وكيع في تحديثهم، فلما وصل إلى الحديث الذي رواه عن إسماعيل بن أبي خالد عن

عبد الله البهي عن أبي بكر الصديق أنه جاء إلى النبي ﷺ بعد وفاته، فأكب عليه، فقبله، وقال: بأبي وأمي، ما أطيب حياتك وميتتك، ثم قال عبد الله البهي: وكان ترك يومًا وليلة حتى ربا بطنه، وانثنت خنصراه، وهذا الحديث قد حكم عليه أهل العلم بأنه منقطع ومنكر، وعلته عبد الله البهي، وهو مصعب بن الزبير، وهو لم يدرك أبا بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فلما سمعت قريش هذا الحديث هاجت وماجت، وظن أهلها أن الحديث ينتقص من قدر النبي ﷺ، واجتمع رجالات قريش عند واليها - وهو العثماني - وقرروا طلب وكيع بن الجراح وقتله، وقد حبسوه استعدادًا لذلك، وقيل إن الخليفة هارون الرشيد كان حاجًا هذا العام، فلما علم بالخبر استفتى العلماء في شأنه، فأفتى ابن أبي رواد بقتله، واتهم وكيعًا بالنفاق، والغش للنبي ﷺ، ولكن الإمام سفيان بن عيينة قال: لا قتل عليه، رجل سمع حديثًا فرواه، فتركوا وكيعًا وخلوا سبيله.

خرج وكيع من مكة متجهًا إلى المدينة، وندم العثماني والي مكة على تركه بشدة، وقرر أن يقتل وكيعًا بأي سبيل، فأرسل أهل مكة إلى أهل المدينة بالذي كان من وكيع، وقالوا: إذا قدم عليكم، فلا تتكلوا على الوالي، وارجموه حتى تقتلوه، فلما عرف بعض علماء المدينة مثل سعيد بن منصور هذا الخبر، وعزم أهل المدينة على قتل وكيع - أرسل إليه بريدًا عاجلا أن لا يأتي المدينة - ويغير مساره إلى طريق الربذة، فلما وصل البريد إلى وكيع، وكان على مشارف المدينة، عاد إلى الكوفة.

بعد هذه الحادثة لم يستطع وكيع بن الجراح أن يذهب إلى الحج مرة أخرى، وحيل بينه وبين مكة والمدينة، وخاض بعض الجهال في حقه، واتهموه بالتشيع والرفض، ولكنه تجاسر سنة ١٩٧هـ، وحج بيت الله الحرام؛ فقدر الله عز وجل وفاته بعد رجوعه من الحج مباشرة؛ فمات ودفن بفيد على طريق الحج بين مكة والكوفة.

هذه المحنة التي تعرض لها وكيع بن الجراح، وكادت تودي بحياته، وأثرت على سمعته، وأدت لمنعه من إتيان مكة والمدينة سنوات كثيرة، إنما حدثت له بسبب زلة الإمام العالم نفسه، فما كان لوكيع بن الجراح أن يروى هذا الخبر المنكر المنقطع الإسناد، والقائمون عليه معذورون، ولربما كانوا مأجورين، لأنهم تخيلوا من إشاعة هذا الخبر المردود انتقاصًا من قدر النبي ﷺ، ولقد كان وكيع يتأول هذا الخبر قائلا: إن عدة من أصحاب رسول الله ﷺ- منهم عمر بن الخطاب - قالوا لم يمت رسول الله ﷺ، فأراد الله أن يريهم آية الموت، ولو على فرض صحة الخبر فليس فيه قدح بمقام النبوة، فعند التأمل فيه نجد أن الحي قد يربو جوفه، وتسترخي مفاصله تحت تأثير الأمراض، والرسول ﷺ كان يوعك كرجلين من الناس، وكانت الشقيقة تأخذ رأسه فيمكث اليوم واليومين لا يخرج للناس من شدة الوجع، وكما جاء في الخبر الصحيح: «أَشَدُّ النَّاسِ بَلاءً الأَنْبيَاءَ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَل»، والمحذور والممنوع في حق النبي ﷺ وسائر الأنبياء تغير أجسادهم ورائحتهم، وأكل الأرض لأجسادهم بعد موتهم، بل هم في أطيب ريح من المسك، وهو وسائر إخوانه من الأنبياء أحياء في

قبورهم.

وما سقناه من دفاع في الاعتذار عن إمام من أئمة المسلمين، إنما نقلناه بتصرف من دفاع إمام الحجاز سفيان بن عيينة، والحافظ الذهبي في سيره، وهذا لا يغير من حقيقة ثابتة على كل إمام وداعية وعالم أن يراعيها عند احتكاكه مع الناس، وتصديه للدعوة والإرشاد، والإفتاء والتعليم وهي مراعاة عقول الناس عند الخطاب، لذلك كره أهل العلم رواية الأثار والأحاديث التي تؤدي إلى سوء فهم، أو تكريس بدعة عند أصحابها، فكرهوا رواية أحاديث الكبائر وسلب الإيمان عن مرتكبها عند الخوارج؛ لأنهم يفهمون الأحاديث على وجه الخطأ، ولا يعرفون مراد النبي صلى الله عليه وسلم، فيتخذون تلك الأحاديث ذريعة ودليلا على تكفيرهم للمسلمين، وكذا الأمر مع أحاديث الرجاء والمغفرة، وفضل كلمة التوحيد عند المرجئة، والأمثلة على هذه القاعدة كثيرة، والعالم عندما لا يلتزم بتلك القاعدة فإنه يجر على نفسه، وعلى غيره الكثير من المحن والبلايا.[١]

---

(١)المصادر والمراجع: طبقات ابن سعد: (٣٩٤/٦)، تاريخ خليفة: (٤٦٧)، سير أعلام النبلاء: (١٤٠/٩)، تاريخ بغداد: (٤٦٦/١٣)، البداية والنهاية: (٢٦١/١٠)، حلية الأولياء: (٣٦٨/٨)، تذكرة الحفاظ: (٣٠٦/١)، صفة الصفوة: (٩٨/٢)، النجوم الزاهرة: (١٥٣/٢)، شذرات الذهب: (٣٤٩/١).

متفرقات

من محاسن الأخلاق

قَالَ الزُّبَيْرُ بْنُ بَكَّارٍ: أَنْشَدَنِي يُونُسُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عِيسَى، عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ[١]:

فَلَا تَعْــجَلْ عَلَى أَحَـدٍ بِظُلْمٍ فَإِنَّ الظُّلْمَ مَرْتَعُـهُ وَخِـيمُ

وَلَا تُفْحِشْ وَإِنْ مُلِّئْتَ غَيْظًا عَلَى أَحَدٍ فَإِنَّ الْفُـحْشَ لُومُ

وَلَا تَقْطَعْ أَخًا لَكَ عِنْدَ ذَنْبٍ فَإِنَّ الذَّنْبَ يَغْفِرُهُ الْكَرِيـمُ

وَلَكِنْ دَارِ عَــوْرَتَهُ بِـرَقْعٍ كَمَا قَدْ يُرْقَعُ الْخَلِقُ الْقَدِيمُ

وَلَا تَجْزَعْ لِرَيْبِ الدَّهْرِ وَاصْبِرْ فَإِنَّ الصَّبْرَ فِي الْعُقْبَى سَلِيمُ

فَمَــا جَزَعٌ بِمُغْنٍ عَنْكَ شَيْئًا وَلَا مَا فَاتَ يُرْجِعُهُ الْهُمُـومُ

من روائع النظم العربي في الحلم والرفق والتأني.

نظم العلامة أبو الحسينِ محمد بن أحمد بنِ جبير الكناني:

تأن في الأمر لا تكن عجلا فمن تــأنى أصاب أو كادا

وكــن بـحبل الإله معتصما تأمن من بغي كيد من كادا

فكم رجـاه فــنال بغــيته عبدٌ مــسيءٌ لنفسه كادا

---

(١) "الحلم" لابن أبي الدنيا (ص: ٧٣)، وأخرجه البيهقي في "شعب الإيمان" (٧٠٨٨) من طريق يونس بن إبراهيم لمحمد بن عيسى بن طلحة بن عبد الله، وكذا ابن حبان في "روضة العقلاء" (ص: ١٤٠)

ومن تطل صحبة الـزمان له يلق خطوبا به وأنكادا[١]

قال إبراهيم بن عبد الله الزبيبي: سمعت نصر بن علي يقول: دخلت على المتوكل، فإذا هو يمدح الرفق، فأكثر، فقلت: يا أمير المؤمنين أنشدني الأصمعي:

لم أر مثل الرفـق في لـينه أخرج للعذراء من خدرها

من يستعن بالرفق في أمره يستخرج الحية من جحرها

فقال: يا غلام، الدواة والقرطاس، فكتبهما.[٢]

وعن أبي طاهر علي بن الحسن الحمامي لما هرب أبو القاسم المغربي من مصر كتب إلي الحاكم بالله:

وأنت- وحسبي أنت- تعلم أن لي لسانا أمـــام الـمجد يبني ويهدم

وليس حليما من يُبـاس يمـــينه فيرضى ولكن من يُعَضُّ فيحلُم[٣]

التحذير من عقارب وأفاعي البشر

قال الإمام ابن حبان رَحِمَهُ ٱللَّهُ : أنشدني الكريزي:

من نَمَّ في الناس لم تؤمن عقاربه على الصديق ولم تؤمن أفاعيه

(١) "سير أعلام النبلاء" (٨١/١٦).

(٢) "سير أعلام النبلاء" (٥٠٢/٩).

(٣) "تاريخ بغداد وذيوله" (٢١٥/١٨)، وفي "تاريخ الإسلام" (٢٥٨/٢٨):

وليس حليما من تُقبل كفه فيرضى، ولكن من تعض فيحلم.

كالسيل بالليل لا يدري به أحد ... من أين جاء ولا من أين يأتيه

فالويل للعهد منه كيف ينقضه ... والويل للود منه كيف يفتيه[1]

حديث وفائدة: من ثلاثيات الإمام البخاري

قال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٦٦/٤) رقم (٣٠٤١): حدثنا المكي بن إبراهيم، أخبرنا يزيد بن أبي عبيد، عن سلمة، أنه أخبره قال: خرجت من المدينة ذاهبا نحو الغابة، حتى إذا كنت بثنية الغابة، لقيني غلام لعبد الرحمن بن عوف، قلت: ويحك ما بك؟ قال: أخذت لقاح النبي ﷺ، قلت: من أخذها؟ قال: غطفان، وفزارة فصرخت ثلاث صرخات أسمعت ما بين لابتيها: يا صباحاه يا صباحاه، ثم اندفعت حتى ألقاهم، وقد أخذوها، فجعلت أرميهم، وأقول:

أنا ابن الأكوع ... واليوم يوم الرضع

فاستنقذتها منهم قبل أن يشربوا، فأقبلت بها أسوقها، فلقيني النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله إن القوم عطاش، وإني أعجلتهم أن يشربوا سقيهم، فابعث في إثرهم، فقال: «يا ابن الأكوع: ملكت، فأسجح إن القوم يقرون في قومهم»[2].

الفائدة: معنى: «اليوم يوم الرضع»: قال القاضي ناصر الدين البيضاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

---

(١) "روضة العقلاء "(١٧٧)

(٢)وأخرجه مسلم (١٨٠٦).

أي اليوم يوم قتل اللئام، من قولهم: «لئيم راضع»: إذا كان في غاية الخسة والبخل، ويقال: أن رجلا كان يرضع إبله وغنمه، ولا يحلبها حذرا من أن يسمع صوت حلبه، فيسأل منه، فاتصف به، ثم اتسع لكل لئيم متجاوز في البخل.اهـ(١)

وقال الإمام زكريا الأنصاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأصله: أن رجلا كان يرضع إبله أو غنمه ولا يحلبها، لئلا يسمع الحلب الفقير فيطمع فيه.اهـ(٢)

وقال العلامة محمد الأمين الهرري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قيل: أصله أن رجلا كان شديد البخل فكان إذا أراد حلب ناقته ارتضع من ثديها لئلا يسمع جيرانه صوت الحلب فيطلبوا منه اللبن، وقيل: بل صنع ذلك لئلا يتبدد من اللبن شيء إذا حلب في الإناء.اهـ(٣)

الصغائر والكبائر

ما الفرق بينهما؟ اختلف أهل العلم في ذلك، وأحسن تعريف للكبائر، وبه يظهر الفرق بينها وبين الصغائر: ما عرفها به الإمام القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومن أحسن التعاريف: قول القرطبي في المفهم: كل ذنب أُطلق عليه بنص الكتاب، أو سنة، أو إجماع أنه كبيرة أو عظيم، أو أُخبر فيه بشدة العقاب، أو علق عليه الحد، أو شدد النكير عليه، فهو

---

(١) "تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة" (٤٣/٣)

(٢) "منحة الباري شرح صحيح البخاري" (٧/ ٣٥٧).

(٣) "الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم" (٣٧٣/١٩).

كبيرة.اهـ[1]

وهذا قول الإمام أحمد، واختاره الإمام أبو يعلى وابن تيمية والذهبي والماوردي وغيرهم..

والصغيرة: ما عدا الكبيرة. وأحسن ما عرفت به: أنها ما دون الحدين: حد الدنيا وحد الآخرة. أي: ليس فيها حد في الدنيا كحد السرقة مثلًا، ولا وعيد في الآخرة كالوعيد بالنار والغضب واللعنة، ومثل ذلك: لعقوق الوالدين، أو أكل الربا. روي هذا التعريف عن ابن عباس، واختاره شيخ الإسلام. كما في "مجموع الفتاوى"(١١ /٦٥٠).

والصغيرة كبيرة مع الإصرار، والكبيرة قد تصغر مع الخوف من الله والاستغفار.. قال الإمام ابن القيم: الإصرار على الصغيرة قد يساوي إثمه إثم الكبيرة، أو يربو عليها.اهـ[2]

وقال: وهاهنا أمر ينبغي التفطن له، وهو أن الكبيرة قد يتقدم بها من الحياء والخوف والاستعظام ما يلحقها بالصغائر، وقد يقترن بالصغيرة؛ من قلة الحياء وعدم المبالاة وترك الخوف والاستهانة بها ما يلحقها بالكبائر، بل يجعلها في أعلى رتبها، وهذا أمر مرجعه إلى ما يقوم بالقلب، وهو قدر زائد على مجرد الفعل، والإنسان يعرف ذلك من نفسه ومن غيره، وأيضًا فإنه يعفى للمحب ولصاحب الإحسان العظيم ما لا يعفى لغيره، ويُسامَح ما لا يُسامَح به

---

(١) "فتح الباري" (١٢ /١٨٤)

(٢) "إغاثة اللهفان" (٢ /١٥١).

غيره.اهـ[١]

مسألة: أيهما أفضل وأجمل: نساء الدنيا، أم الحور العين في الجنة؟

الجواب: لم يرد في المسألة حديث صحيح؛ ولهذا اختلف العلماء في هذه المسألة. والراجح - والله أعلم -: أن المرأة المؤمنة في الجنة تكون أفضل حالًا وأكثر جمالًا من الحور العين، فالمرأة الصالحة التي دخلت الجنة إنما دخلتها جزاءً على العمل الصالح، وكرامة من الله لها لصلاحها، ودينها، وصبرها.

وأما الحور العين فإنما خُلقت في الجنة؛ نعيما لأهلها، ولم تُبتلَ كما ابتُليت نساء الدنيا، وشتان بين من دخلت الجنة جزاء على عملها الصالح، وبين من خُلقت جزاء لغيرها من أصحاب العمل الصالح.

وقد سُئل العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هل المرأة الصالحة في الدنيا تكون من الحور العين في الآخرة؟

فأجاب: المرأة الصالحة في الدنيا تكون خيرًا من الحور العين في الآخرة، وأطيب وأرغب لزوجها؛ فإن النبي ﷺ أخبر أن أول زمرة تدخل الجنة على مثل صورة القمر ليلة البدر.

وسُئل: هل الأوصاف التي ذكرت للحور العين تشمل نساء الدنيا في القرآن؟

فأجاب: الذي يظهر لي أن نساء الدنيا يكن خيرًا من الحور العين، حتى في الصفات الظاهرة، والله أعلم.[٢]

---

(١) "مدارج السالكين" (١/ ٣٣٧)

(٢) "فتاوى نور على الدرب"

دعاء الطلاب الأوفياء من واجباتهم للمشايخ والعلماء

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أما بعد: فإنَّ ديننا الحنيف وشريعتنا السمحة تقوم على مبدأ الحقوق والواجبات

ومن أعظم الحقوق علينا حقوق مشايخنا وعلمائنا، فالعلم رحم بين أهله.

الرحم الذي بين أهل العلم مشايخ وطلابا لا يقل عن الرحم الذي بين الأقارب وذوي الأرحام، ولهذا لابد من رعايته والاهتمام به، وأداء حق الرحم.

فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما أنا لكم مثل الوالد لولده». رواه أبو داود، وابن ماجه والدارمي، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح.

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ - عن أهمية تراجم العلماء-: إنهم أئمتنا وأسلافنا، كالوالدين لنا.اهـ[١]

وقال -وهو يترجم لابن سُرَيج-: وهو أحد أجدادنا في سلسلة الفقه.اهـ[٢]

وكذا قال عن الطبري، وأبي إسحاق الأنماطي، وابن عيينة.

وقال أيضا: الشيوخ في العلم آباء في الدين، ووصلة بينه وبين رب العالمين، فكيف لا يَقْبَح جهلُ الأنساب، والوصلة بينه وبين ربه الكريم الوهاب، مع أنه مأمور بالدعاء لهم، وبرهم، وذكر مآثرهم، والثناء عليهم، والشكر لهم.اهـ[٣]

---

(١) "تهذيب الأسماء واللغات" (١/١١).

(٢) "المجموع" (١/١٥٦)

(٣)بتصرف من: "مواهب الجليل" (١/٨)

ورحم الله القائل:

أفضِّل أستاذي على فضـل والدي   وإن نالني من والدي المجـد والشرف

فهذا مُربي الروح والروح جوهر   وذاك مربي الجسم والجسم كالصدف(١)

ومن أعظم حقوقهم: الدعاء والاستغفار لهم بظهر الغيب، في حياتهم وبعد وفاتهم، هذا من أوجب الواجبات، وأنفعها للشيخ والطالب.

فعن أبي الدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب، إلاَّ قال الملك: ولك بمثل».

وفي لفظ: «دعوة المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك موكل، كلما دعا لأخيه بخير، قال الملك الموكل به: آمين ولك بمثل». رواه مسلم.

فعلى الطالب ألا يبخل بالدعاء لشيخه، فما جزاء الإحسان إلا الإحسان وكما تدين تدان، وليس هنالك ما هو أحسن وأفضل لك ولشيخك من الدعاء بالصلاح وبحسن الختام وبالعافية والاستغفار في الحياة وبعد الممات.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « مَنِ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ فَأَعِيذُوهُ، وَمَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ فَأَعْطُوهُ، وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ، وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ ».
رواه أبو داود وغيره.

وأي معروف أعظم علينا في الدنيا من معروف علمائنا الذين يدلونا على ما يقربنا إلى رضوان الله ويجنبنا سخطه.

---

(١) "موسوعة الأخلاق" (ص ٣٢٤)



وهذا شأن الأخيار والأئمة الكبار.

قال أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما صليت صلاة منذ مات حماد –بن أبي سليمان، شيخه– إلا استغفرت له مع والديَّ، وإني لأستغفر لمن تعلمت منه علما أو علمته علما.اه [١]

وقال أبو يوسف القاضي، تلميذ أبي حنيفة رحمهما الله: إني لأدعو لأبي حنيفة قَبل أبويَّ، وسمعت أبا حنيفة يقول: إني لأدعو لحماد مع والديَّ.اه[٢]

وكان الإمام أحمد بن حنبل يدعو لشيخه الإمام الشافعي وقت السحر مع والديه.

قال عبد الله بن الإمام أحمد: قلت لأبي: أي رجل كان الشافعي، فإني سمعتك تكثر من الدعاء له؟ فقال: يا بني كان الشافعي كالشمس للدنيا، وكالعافية للناس، فانظر! هل لهذين من خلف، أو عنهما من عوض.

وقال الإمام أحمد: ما بت منذ أربعين سنة إلاَّ وأنا أدعو للشافعي.[٣]

وقال إسحاق بن راهويه: قَلَّ ليلة إلا وأنا أدعو فيها لمن كتب عني، ولمن كتبنا عنه[٤].

وقال عبدالرحمن بن مهدي: ما أصلي صلاة إلا وأنا أدعو للشافعي.[٥]

---

(١) "تهذيب الأسماء واللغات" للنووي (٢/٢١٨)

(٢) المصدر السابق (٢/٢١٩)

(٣) انظر: "السير" (١٠/٤٥)، "سير السلف الصالح" (١١٧٠).

(٤) "فتح المغيث" (٣/٣٠١).

(٥) "تاريخ الإسلام" (١٤/١٦٣)

وقال الحارث بن سُريج: سمعت يحي القطان يقول: أنا أدعو الله للشافعي، أخصه به.[١]

وقال ابن أبي حاتم: رأيت في كتاب عبد الرحمن بن عمر الأصبهاني، المعروف برسته إلى أبي زُرعة بخطه: اعلم –رحمك الله– أني ما أكاد أنساك في الدعاء لك ليلي ونهاري: أن يمتِّع المسلمون بطول بقائك، فإنه لا يزال الناس بخير ما بقي من يعرف العلم، وحقه من باطله، وقد جعلك الله منهم. اهـ[٢]

وسأل رجل الإمام أحمد فقال: بالرَّي –مدينة– شاب يُقال له: أبو زُرعة، فغضب أحمد، وقال: تقول شاب؟ كالمنكر عليه، ثمَّ رفع يديه يدعو الله عز وجل لأبي زُرعة ويقول: اللّٰهُمَّ انصره على من بغي عليه، اللّٰهُمَّ عافه، اللّٰهُمَّ ادفع عنه البلاء، اللّٰهُمَّ..، اللّٰهُمَّ.. اللّٰهُمَّ..، في دعاء كثير.[٣]

فيا مشايخنا الفضلاء وإخواننا النبلاء أدبوا الطلاب وربوهم وعلموهم حقوق العلماء.

فاللّٰهُمَّ يا حي يا قيوم، يا الله، يا ذا الجلال والإكرام، يا رب العالمين، نسألك باسمك الأعظم الذي إذا دعيت به أجبت وإذا سئلت به أعطيت: اشف شيخنا ووالدنا ومربينا الإمام أبا نصر محمدا الإمام، أمده بعفوك وعافيتك وتوفيقك وأطل عمره في طاعتك، واحفظ مشايخنا وعلمائنا الأخيار الأبرار،

---

(١) "مناقب الشافعي" (٢/٢٤٣)

(٢) "الجرح والتعديل" (١/٣٤١)

(٣) "سير السلف الصالح" (١٢٢٥)

وزدهم من توفيقك وحفظك، وارحم من مات منهم واخلف عليهم وأهلهم بخير واجمعنا بهم في الفردوس الاعلى، وأعنا على البر بهم أحياء وأمواتا، يا رب العالمين.

المحتويات